

أفكارُنا تحدِّدُ حياتَنا

الشيخ تداوس الصّربي: حياتُه وتعاليمه

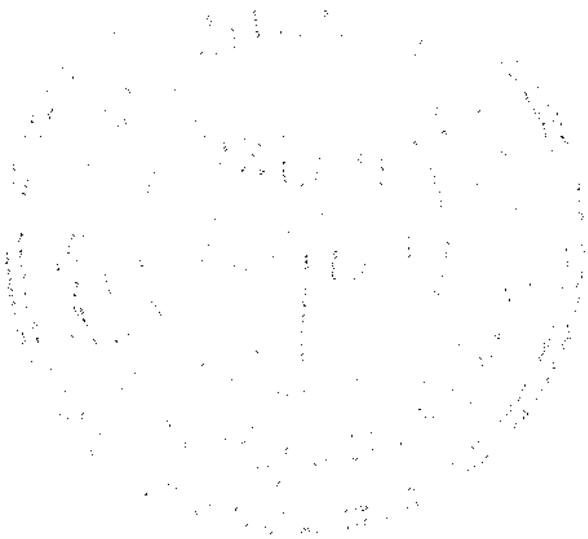
(١٩١٤ - ٢٠٠٣)

أخوية القديس هرماس – ألاسكا

ترجمته من اللغة الصربية آنا سميليانك

نقلته إلى العربية مهى عفيش

دير القديس جاورجيوس - دير الحرف



تمهيد

"كنْ في سلام مع نفسك، وستصبح السماء والأرض في سلام معك"
(القديس اسحق السوري)

كان الشيخ تدّاوس من فيتوفنيكا في صربيا أحد أهم الشيوخ الروحيين في القرن العشرين. وقد أمدّت إرشاداتُه آلافَ الأشخاص بالتعزية وعلى الأخص في أثناء الأيام الحالكة، أيام الشيوعية في صربيا حين بُذلت كلُّ المساعي لتحقير الإيمان المسيحي وإضعافه. وكانت تُنشر أقواله التي تحمل السلام والتواضع والمحبة، على شكل نسخات مطبوعة على الآلة الكاتبة أو على شرائط مسجلة كما ومن خلال شهادات أبنائه الروحيين الكثر.

أمضى الأرشمندريت تدّاوس (Shtrbulovich) الجزء الأكبر من حياته في الظل مُجاهِداً في سبيل خلاصه ورافِعاً الصلوات من أجل العالم. وفي السبعينيات، حين كان قد تجاوز الستين من العمر، بدأ الناس يتوافدون إليه، طلباً للإرشاد والشفاء والتعزية.

ولد الشيخ تدّاوس في مستهلّ الحرب العالمية الأولى، فشهد تأسيسَ دولة يوغوسلافيا في العام ١٩١٨ وانهيارها المأساوي في نهاية القرن العشرين. وما بين هذين الحدَثين البارزَين، قاسى الأبُ تدّاوس بؤس الحرب والاعتقال النازي واضطهاد حكم تيتو الشيوعي. ورغم كل تلك المشقّات لم يفقد إيمانه بالله يوماً، بل جاهد دوماً لتحقيق الشركة معه من خلال أسرار الكنيسة وصلاةِ القلب.

انشغل الأب تدّاوس منذ طفوليته بمعنى حياته وأهمية الأفكار. وبنضالِه لفهم معنى الوجود أدرك بأن حياتنا يجب أن تكون مُكرَّسة لخدمة الآخرين، وقبل كل شيء، لله. كما قد أدرك بوضوح في الوقت نفسه – على غرار مُعاصره الشيخ باييسيوس من جبل آثوس – أن أفكارنا قادرة على أن تخلق من حولنا الجنَّة أو الجَحيم، في هذا العالم. وقد عاد مرات كثيرة إلى هذَين الموضوعَين في خلال حياته.

تلقَّن الأب تدّاوس فنَ الصلاة بتأثير تقاليد ديرَي أوبتينا وبلعام. وفي سنة ١٩٣٢ أصبح مبتدئاً في دير ميلجوكوفو

(Miljkovo) في صربيا، والابنَ الروحي للأرشمندريت-لابس الإسكيم أمبروسيوس الذي تتلمذ على شيوخ أوبتينا. ومن خلال هذا الأب الروحي حصل الأب تدّاوس على عطية الصلاة الممتلئة بالنعمة، وكانت ذكرى [الأرشمندريت أمبروسيوس] تنير طريقه على مدى الأعوام الأكثر حلكةً في القرن العشرين. وكان في ميلجكوفو مثل شاهدٍ على التقليد الروحي العميق لرهبان دير بلعام الروس الذين اقتُلعوا من ديرهم المحبوب.

كانت بدايات الشيخ تدّاوس في الحياة الروحية ممتلئة بالنعمة، إلا أنه أمضى سنواتٍ طويلة يحارب الأسقام نفسها التي تصيب الكثيرين في منطقتنا، أي الإجهاد والكآبة والتوتر العصبي. وبفضل خبرته الشخصية في الحرب ضد هذه الأمراض التي تدمّر حياة البشر، أصبح قادراً على مؤاساة آلافِ الزوار الذين حضروا إليه في وقت لاحق من حياته، وتعزيتِهم. وكانت مشورته مصممة دوماً للشخص الموجود أمامه، كائناً مَن كان؛ ولكنه لم يبتعد يوماً عن تعليمه المركزي بأن: "حياتنا هي رهن نوعية الأفكار التي نغذيها. فإن كانت أفكارنا سلامية، هادئة، وديعة وودية، هكذا تكون حياتنا. وإنْ تحوَّل انتباهُنا إلى

الظروف التي نعيش فيها فإننا سننجذب إلى دوّامة من الأفكار ولن نعود ننعم بالسلام ولا بالهدوء".

قلة من الناس في الغرب قد سمعوا عن الشيخ تدّاوس، إلا أن كلماته وحياته هما مصدرُ بصيرةٍ جوهرية لزمننا هذا. لقد أدرك مقدار ما عاثت فلسفةُ أيامنا المعاصرة فساداً في روح الإنسان: من خلال الحرب وخراب البيئة والأهم من ذلك بابتعاد الإنسان عن الله. وقد فهم الشيخ تدّاوس أن العلاج الأوحد لمرض الإنسان هو العودة إلى حياة متمركزة حول المسيح الإلٰه– الإنسان، والوحيدِ القادر على تحقيق كل رغبات الجنس البشري.

ليجلبْ هذا الكتابُ الراحةَ للمُثقَلين بأحزان هذا العصر وشكوكه، فيحوِّلوا أنظارهم إلى **الكائن**، مخلِّصِنا السرمديّ والربِّ يسوع المسيح.

الراهب لابس الثوب أدريانوس

٣١/١٨ تموز ٢٠٠٩

مقدمة الطبعة العربية

ما أكثر ما قرأنا في سيَر القديسين أنهم جاهدوا الجهاد الحسن وقاسَوا قشف النسك وتعب الأسهار والأصوام، وقرأنا أنَّ بعضهم قاتل الشيطان وجهاً لوجه، فانتصروا وتكلَّلوا. ولكننا لم نقرأ عن ضعفاتهم إلا في النادر، على الأقل في مكتبتنا العربية. وكثيراً ما تولَّد في أذهاننا الانطباع بأن هؤلاء فئة متفوّقة وسلالة جبّارة لا يتعبون ولا يُقهرون. مع أن القديسين لم يَخلوا بالطبع من نقاط الضعف ولكنَّ الرواة استبقوا، في الأغلب، الصوَر المجيدة من سِيَرهم ليعطونا درساً في الجهاد.

هذا الأب المُستنير – الذي أضحى في سنوات حياته الأخيرة شيخاً روحياً لآلاف تقاطروا إليه من كل أنحاء صربيا – قد أصيب مرتين بانهيار عصبي ثم تجاوز ذلك بمعونة الله. كان يدخّن السجائر وقد كلَّفه التغلب على هذه العادة السيئة جهداً كبيراً. واجه الخوف عدة مرات وكثيراً ما تذمَّر محاولاً التهرّب من مشيئة الله ولكنه عاد وسلَّم بها بتواضع... كل ذلك يجعله "بشرياً" وعفوياً وقريباً إلينا ومشابهاً لنا وخصوصاً أنه عاش في أواخر

القرن العشرين وعاصر حروباً وصراعات في حقبة تشبه إلى حد بعيد البيئة المضطربة التي نعيش فيها الآن.

تعاليم الأب تدّاوس مستمدة بالدرجة الأولى من مؤلفات آباء الكنيسة القديسين مع صبغة تعود في الغالب إلى البيئة الرهبانية التي عاش فيها، إلى جانب طابعه الشخصيّ وتشديده على أهمية الأفكار.

أفكارنا تحدِّد حياتنا. وحياتنا انعكاس للأفكار التي نغذيها في ذواتنا. فإنْ كانت أفكارنا سلامية، ودودة، كانت حياتنا كذلك، والعكس صحيح أيضاً. لا يمكن للغضوب أو الحقود أن يكونا في سلام، وأما الودعاء والمتواضعون الذين يغفرون الإساءات فهم الذين يتمتعون بالسلام. وقد جاء في المزمور ٣٦: "أما الوادعون فينعمون بكثرة السلام" (٣٦: ١١).

والأفكار السلامية الودودة لا بد أن تولّد الصلاة من أجل الآخرين. ونحن نؤمن بفاعلية الصلاة التي قال عنها الرسول يعقوب: صلاة البارّ تشفي المرضى (راجع يع ٥: ١٥). فأدعيتنا

تفيد الآخرين. والمشاركة الوجدانية بين الناس معروفة في حالات الفرح والحزن على السّواء.

هكذا تكون أفكارنا نقطة انطلاق نحو الشركة المسيحية الحقَّة والاتحادِ الصلاتيّ في عصر فاسد يعزِّز الأنانية وحبَّ الذات ويقوّي الغرائز ويسعى إلى إلغاء الآخر.

مسيرة التنقية تبدأ بالقلب وتنتهي به. والأفكار تنبع من القلب، فإما تدنّسه أو تحافظ على نقاوته. وقد قال عنها الرب: "لأنَّ من القَلب تخرجُ الأفكارُ الشريرة... وهيَ التي تُنجسُ الإنسان" (متى ١٥: ١٩-٢٠). والاتحاد بالله يتمّ في القلب النقيّ وإلا فسيهجر اللهُ مركز حياتنا، القلب، إن كان مفعماً بالشرور، وهو الذي قال يوماً على لسان نبيّه: "يا بنيَّ أعطني قلبك" (أم ٢٣: ٢٦).

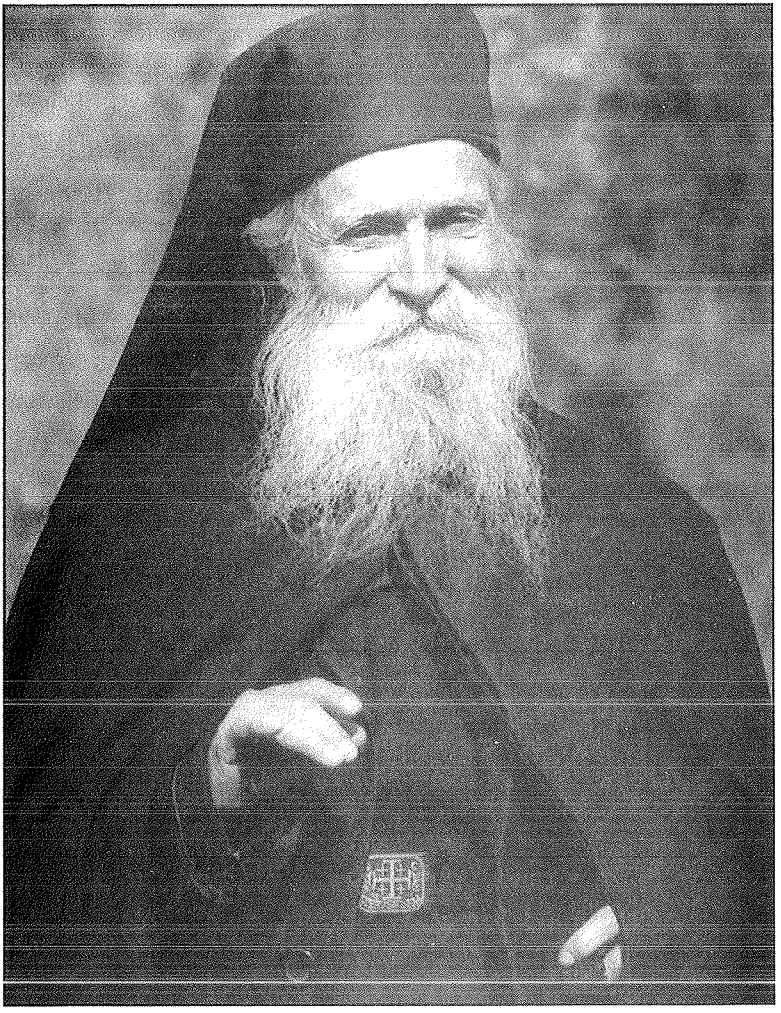
نصلّي أن تكون هذه الترجمة العربية للكتاب تعزية لنا جميعاً في هذه الشدائد الصعبة وحافزاً للحفاظ على طهارة قلوبنا، وإيمانِنا، وصلابةِ أنفسنا، ولنتذكر بأن الرب يسوع قد سبق فأوصانا أن: "لا تضطربْ قلوبكم ولا تجزعْ" (يوحنا ١٤:٢٧) لأنَّ

"خلاصنا قريبٌ" (لوقا ٢١: ٢٨) كما يقول، له المجد إلى كل الدهور.

ولا بد من كلمة شكر من القلب إلى كل الذين، من بعيد أو من قريب عملوا على صدور هذه الطبعة وما زالوا في الظلّ، ليُجزل لهم الرب نِعمَه وبركاته، آمين.

الجزء الأول

حياة الشيخ تدّاوس



الشيخ تدّاوس الصّربي

طفولته وشبابه

ولد الشيخ تدّاوس (Shtrbulovich) في ١٩/٦ تشرين الأول ١٩١٤، يوم عيد الرسول الإلهي توما فدُعي "توميسلاف" في المعمودية المقدسة تيمّناً به. وقد ولد قبل أوانه بشهرَين في عائلة مزارعين من قرية (Vitovnica) الواقعة بقرب (Petrovac) على نهر (Mlava)، وكان ذلك أثناء عيدٍ قروي. ونال سرّ العماد المقدس مباشرة بعد ولادته لخوف والديه من أن طفلهما الذي رأى النور قبل أوانه لن يعيش، إذ بالكاد بدت عليه علاماتُ الحياة. ولم يفتح عينيه إلا بعد عماده. كان طفلاً ضعيفاً وعليل الصحة. فيما بعد، وحين أصبح راهباً، كان أحياناً يسخر من نفسه بتواضع قائلاً: " في أية حال ما كان سيظهر مني أمرٌ جيد لكوني ولدتُ في عيد قروي!"

لم يعرف توميسلاف في طفولته سوى القليل من الفرح وهو ينمو وسط عائلة فقيرة في أثناء الحرب العالمية الأولى والأعوام التي تلتها. ماتت والدتُه وهو ما زال صبياً يانعاً، وبدل حنانِ كلمات الأم ووداعتِها، سيطر على البيت صوتٌ حادّ لخالةٍ

أولى ثم ثانية. وهكذا لجأ الصبي الضعيف ذو النفس الفائقة الحساسية إلى العيش في عالمه الخاص من الأفكار والتأملات هرباً من فظاظة الحياة اليومية التي كانت تسبب له الألم الشديد. وقد أخبر لاحقاً بأنه فرّ من المنزل أكثر من مرة وهو لا يحمل في جيبه سوى كسرة من الخبز.

ما كان يشبه غيره من الأولاد لا في القامة ولا في بنية الجسم ولا في الطباع. كان هذا صليبه: أنه كان مختلفاً حتى في المأكل. وحين يعود بالذاكرة إلى الوراء لا يمكنه أن يتذكر سوى أنه كان يعجز عن تناول أي طعام مصنوع من شحم الخنزير، وأنه لم يكن يأكل البيض ولا يشرب الحليب. كما كان يعجز حتى عن الإقبال على تذوُّق اللحم. وكثيراً ما كان يناله التأنيبُ بسبب ذلك، ويُفرض عليه الأكل، ولكن جسده كان يرفض كل طعام من أصل حيواني. فعاش حتى سنته السادسة عشرة وهو يغتذي بشكل رئيسي من الخبز والبصل والخيار. لقد ولد في هذا العالم وكأنه في أرض غريبة: لكي يصوم ويعيش في العفة منذ طفولته المُبكرة. ترعرع كولدٍ ناسك ورحلَ من هذه الحياة إلى ملكوت السماوات كشيخ ناسك.

كثيراً ما كان توميسلاف يتلقى العقوبات ويلاقي الهُزء باعتباره عاجزاً عن العمل، وبشكل عام عديمَ الفائدة في الحياة، ولم يكن يحلم بنَيل أية تعزية في هذا الوجود. فكان يقال له: "أنتَ لا تصلُح لشيء. أنظر إلى مْلادِن (وهو صبي بعمر توميسلاف يقطن في الجوار). إنه الآن شاب ويساعد والدَه وكلَّ الناس! أما أنت فلا تفعل غير الجلوس هنا وتأكل خبزك من دون أن تدفع ثمنه!" وكان توميسلاف الصغير يتألم كثيراً لسماعه هذه الكلمات فيهرب إلى الحقول ليجلس تحت شجرة، ويبقى هناك على العشب الندي، وحيداً في هذا العالم، يصلّي لكي ينال التعزية، ويتضرع إلى الله حتى يجعله هو الآخر ذا فائدة. كان يرهقه على الدوام خوفٌ من ألا يَرضى عنه الكبارُ (وقد عذَّبه أيضاً هذا الخوف في أوائل حياته الرهبانية).

لا شك في أن روح هذا الولد كانت مُثقلة أيضاً بالحزن لكون والده – الذي كان رجلاً هادئاً ولطيفاً – قد عجز عن مَنحه الحماية والمعاملة التي كان يرجوها، هو الولد الجائع إلى حُبّ الأب. كان يقول: "شعرتُ بالخيبة حين تزوج والدي ثانيةً بعد وفاة والدتي وأنجب ولدَين من زوجته الجديدة. وشعرتُ بخيبة

أكبر حين تزوج ثالثةً لأن زوجته الثانية ماتت هي الأخرى. مسكين، لقد تزوج من جديد فقط لكي تكون في بيته امرأةٌ تهتم بأولاده. وبسبب تلك الحرب التي خضتُها في أفكاري ضدّ والدي، عجزتُ طويلاً عن أن أنمو روحياً".

بدأ الله يكشف لتوميسلاف، وهو في سنٍّ مُبكرة جداً، سرَّ الفكر والحياةِ الذهنية: تركيز الفكر والجهاد ضد تشتُّت العقل. فكان يقول: "حتى عندما كنتُ صبياً كنت أتفكَّر كثيراً في كل شيء. وحين أصبحتُ شاباً يافعاً اهتممتُ بشكل خاص بأفكاري. والآن في شيخوختي أجد بأنه ما زال عليَّ أن أتوصَّل إلى درجةِ فَهمِ الأفكار التي بلغتُها في طفولتي، لأنَّ الرب ينير الأطفال. كنت ما أزال صغيراً جداً ولم أكن أرتاد المدرسة بعد حين اكتشفتُ بأن أفكاري تَهيم عندما كنت ألعب مع غيري من الأطفال. فقلتُ لنفسي: 'ليس هذا بالأمر الجيد. يجب أن أكون حاضراً هنا في أفكاري، وألا أركِّز سوى على العمل الذي أقومُ به'. ولكن دون جدوى، إذ بقيتْ أفكاري تهيم".

إبّان تلك السنوات تكوَّن في قلب الصبي إحساسٌ مُقدّس بأنه لا ينتمي إلى هذا العالم، ورغبةٌ سرّية (mystic) بالتحرّر من عالمٍ من الأسى والحزن وبالتكرُّس الكليّ لله، وابتغاءِ التعزية فقط عند الرب الهادئ الذي هو وحده مُعزّي جميع المتألمين. وقد تكلم الله الحيّ بعذوبةٍ إلى النفس التي لم يكن لها أين تسندُ رأسَها (راجع متى ٨: ٢٠).

"حين أدركتُ أن لا الأهل ولا العائلة ولا الأصدقاء ولا أحد في الدنيا قادرٌ على أن يقدِّم لي سوى الألم والشتائم والجِراح، عقدتُ العزم على ألا أعيش بعد اليوم من أجل العالم، بل أكرِّس الأيام المتبقية لي في هذه الحياة للرب. أدركتُ أنه ليس لي أحدٌ في هذا العالم غير الله". وفي الوقت نفسه أنار اللهُ عقلَ الصبي فعرف أن حياتنا الأرضية ليست سوى خدمة للآخرين، وأن لا حياة سوى تلك التي تقوم على الخدمة والصبر في احتمال الأسى والألم. "عرفتُ في سنٍّ مبكرة جداً أن الحياة ليست سوى خدمة. الأهل يخدمون أولادهم والأولاد يخدمون والديهم. وفي تلك اللحظة راودتني فكرة: بما أن كلَّ إنسانٍ هو هنا من أجل خدمة

إنسان آخر، فإني أريد أن أخدم الله لأن الله هو فوق كل الآخرين. أرأيتم؟ هكذا يدعو اللهُ الإنسانَ منذ سنواته الأولى".

ورغم أن طفولة الشيخ تدّاوس ومَطلع شبابه كانا، بعناية إلٰهية، مَصبوغَين بألوان الخريف المتأخر أكثر مما بألوان الربيع، إلا أنه كان دوماً يتكلم عن والدته التي قال إنه ورث عنها حساسيةَ الروح، بحبٍ لا حدود له، وعن والده الذي يصفه بأنه كان "رجلاً هادئاً ووديعاً، طيبَ الخُلُق بما لا يُصدَّق". وبقي الشيخ تدّاوس حتى أيامه الأخيرة يقول إنه تألم كثيراً لكونه أساء إلى والده في أفكاره وإنه لن يتوب كفاية عن ذلك. وكان دوماً يلقّن أبناءه الروحيين أهميةَ كون المرء مُطيعاً بجسده، وبأفكاره على السواء، لوالدَيه بالطبيعة لأنهما، بعد الرب، "أعظم خير لنا هنا على هذه الأرض".

وكان يقول دوماً لأبنائه الروحيين إن هدف الحياة المسيحية هو العودة إلى حضن أبينا السماوي، عودةَ الابن الضالّ من البلد البعيد إلى أرض الأحياء: "كنتُ أتعذب طوال حياتي بأفكارٍ عن هدف حياتنا. وكثيراً ما كنت أتساءل إلى أين

نحن ذاهبون. فهل تكون الحياة مجردَ نضال لتحقيق الثروة المادية، والطعام، والشراب؟ هل هذا هدف الحياة؟ الشكر لله أننا حين نقرأ سيرة القديس سيرافيم ساروفسكي نجد بأن القديس يشرح شخصياً أن هدف حياتنا هو العودة إلى حضن **أبينا** السماوي لكي يكون باستطاعتنا، نحن أناسَ هذه الأرض، أن نصبح كالملائكة الذين يقودهم الروحُ القدس".

بعد أن أنهى دراسته الابتدائية بعلامات ممتازة، أرسله أهله إلى بتروفاك (Petrovac) ليتعلَّم حرفة الخياطة لكونه غير صالح للعمل في الأرض بسبب اعتلال صحته وبنيتِه الضعيفة. فأنهى فيها دراسته في التجارة والاقتصاد ولكنه لم ينجح في عمله الجديد، بل تألم كثيراً على يد أشخاص قساة وعديمي الإحساس.

الدعوة الرهبانية

في العام ١٩٣٢، وإذ كان توميسلاف، البالغ الثامنة عشرة من العمر، مستغرقاً كلياً في الأفكار المتعلقة بمعنى

الحياة، انبثقت من أعماق قلبه الرغبةُ باعتناق الرهبنة. فكتب رسالة إلى أخوية دير غورنياك (Gornjak) متوسلاً إليهم أن يقبلوه كمبتدئ. وشاءت عنايةُ الله أن ينتظر ستة أشهر قبل الحصول على جواب. وما حدث في تلك الأثناء كان له تأثيرٌ عظيم في مستقبله. إذ بينما كان توميسلاف ينتظر جواباً من الدير، أصيب باعتلال رئوي حاد استوجب نقله إلى بلغراد لتلقي العلاج. فأمضى سبعة وعشرين يوماً في المستشفى لم يُحرز في خلالها أيَّ تحسن لِما كان عليه من ضعف الصحة والبنية الهزيلة.

"فتألَّفت لجنةٌ من الأطباء لاتخاذ القرار بخصوص علاجي التالي. وبعد أن تداولوا لبعض الوقت وصفوا لي علاجاً شديد التعقيد والإيلام: الاستراواح الصدري (pneumothorax)، وهو إجراء صعب ومؤلم يقوم على حقن الأوكسجين الممزوج ببعض الأدوية داخل رئتيَّ. وكنتُ قد عرفت من مرضى آخرين بأن هذا العلاج مرهق ومؤلم للغاية، وأنه حتى المرضى الأقوى مني جسدياً يستنفدون قواهم لإنهائه، فقلت لطبيبي: 'إن كنتَ تعرف أيَّ نوع آخر من العلاج لي فأنا موافق، وإلا فلستُ أود

الخضوع لهذا العلاج' . فاغتاظ الأطباء غيظاً شديداً وقالوا: 'ومن تكون أنتَ حتى تعلِّمنا كيف نُعالج الناس! عليك أن تحضر غداً إلى قسم السلّ للبدء بعلاجك!'

"فقلت في نفسي: 'إنه لأمرٌ بعيد الاحتمال بدرجة كبيرة أن تروني هناك غداً'. وسألتُهم كم يتوقعون أن أعيش من دون علاجهم هذا فأجابتني طبيبة: 'إن وافقتَ على الخضوع لهذا العلاج فربما تشفى من مرضك، وإلا فمن المؤكد أنك لن تعيش أكثر من خمس سنين' . وفكرتُ: 'هكذا إذن، حتى إنهم غير متأكدين من نتيجة هذا العلاج!' فسلَّمتُ بحالتي وقررت أن أمضي السنوات الخمس المتبقية لي من العمر في خدمة الله. ولكن مشكلة أخرى استجدَّت: لم يكن أهلي موافقين على قراري.

"ولكن التزامي لم يكن ليدعني في سلام، فذهبت إلى دير غورنياك رغماً عن إرادتهم. ووصلت إلى الدير في أواخر ساعات العشية، في اللحظة التي كان رئيسُ الدير، الأب سيرافيم، خارجاً من الكنيسة بعد صلاة الغروب. فاستقبلني

بلطف. وأعلمتُه بقراري بتكريس حياتي لخدمة الله وشرحتُ له مفهومي للحياة الرهبانية. وكان يجلس معنا راهبٌ روسيّ.

"لم أعد أذكر بالضبط ما قلتُه لرئيس الدير. وفي اليوم التالي، وقبل القداس الإلٰهي، لمحتُ الراهب الروسيّ يحمل قربانة الذبيحة والخمر والماء إلى الكنيسة، فتبعتُه. دخل إلى الهيكل، فقبَّلتُ الأيقونات. ثم خرج من الهيكل وقال لي: 'سمعتُ ما كنتَ تتكلم به مع رئيس الدير. وسمعتُ أفكارك عن الرهبنة. لن تجد نوع الرهبنة التي تبحث عنها في أي مكان في صربيا سوى مع الرهبان الروس في دير ميلجكوفو. إن أخوية ذلك الدير مؤلفة من رهبان مَنفيين من دير بلعام في فنلندا' .

"وقال لي الراهب: 'إنه المكان الذي يجب أن تذهب إليه فهناك فقط ستجد ما تشتهيه روحُك'. ولكني لم أكن متأكداً إن كانوا سيقبلونني، وقلت له ذلك، فأجاب: 'سيقبلونك'."

حدث ذلك في ٢٤ تموز/٦ آب ١٩٣٢.

دير ميلجكوفو: في فردوس النعمة الأولى

في ذلك الوقت كان دير ميلجكوفو مقرّاً لرهبانٍ روس قدم معظمهم إلى صربيا من دير بلعام المعروف بعد أن لاقوا الإضطهاد من أترابهم. ففي العام ١٩١٨ ضمَّت فنلندا إليها جزرَ بلعام [التي يُقال لها] "جبل آثوس الشمال"، من روسيا، فأصبحت جزءاً من أراضيها. وهكذا أضحى دير بلعام تحت سلطة الكنيسة الأرثوذكسية الفنلندية التي اعتمدت التقويم الجديد سنة ١٩٢١. وعلى أثر صراع هائل أجبرت السلطاتُ الكنسية الفنلندية ديرَ بلعام في العام ١٩٢٥ على اعتماد التقويم الجديد. ونُفي معظم الرهبان الأوفياء لتقويم الكنيسة الروسية الأرثوذكسية من الدير ما بين العامين ١٩٢٥ و١٩٢٧. فقادت العنايةُ الإلٰهية الكثير منهم إلى صربيا حيث استقبلتهم الكنيسة وسمحت لهم بدخول الأديار الصربية. فأتى بعضهم إلى دير ميلجكوفو.

كان أبوهم الروحي الأرشمندريت لابس الإسكيم أمبروسيوس (Kurganov) (+١٩٣٣)[١] ابناً روحياً لآباء أوبتينا[٢].

---

[١]- راجع كتاب:

وقد أحضر هؤلاء الرهبان معهم روح الهدوئية الخاصة بحياة الشركة الديرية، هذه الروح التي كانت مشتركة بين دير بلعام وأوبتينا. وقد التزم دير ميلجكوفو التزاماً وثيقاً بتيبيكون[٣] بلعام فجاءت الخِدم "روسية" بامتياز، غالباً ما تستمر لساعات طوال. وامتثل الرهبان لقاعدة صوم صارم مع قانون طويل ومتعب للصلاة في القلاية. وكان القداس الإلٰهي يقام يومياً. فجاهد الأب تدّاوس، طوال حياته ككاهن راهب، لتطبيق قانون صلاة دير بلعام ولخدمة القداس الإلٰهي كل يوم، وحتى حين كان مريضاً جداً. وكثيراً ما كان يردد كلمات القديس يوحنا كرونشتادت: "حين لا أخدم القداس الإلٰهي أشعر وكأني أموت!".

بعد سنوات عديدة كان الأب تداوس يستعيد بالذاكرة وصوله إلى الدير بالقول: "رأيتُ عند بوابة دير ميلجكوفو مبتدئاً شاباً فسألته إن كان الرئيس موجوداً. وكان هناك. وقبِلَ المبتدئ

Archbishop Anthony (Medvedev) of San Francisco, *The Young Elder: A Biography of Blessed Archimandrite Ambrose of Milkovo* (Jordanville, N.Y.: Holy Trinity Russian Orthodox Monastery, 1974).

[٢]- كان منسك أوبتينا مركزاً لنهضة روحية وإرشاد في القرن التاسع عشر في روسيا. وقد تأسّست قواعد أوبتينا الروحية على تعاليم القديس بايسي (فليتشكوفسكي) (١٧٢٢-١٧٩٤) الذي اكتشف من جديد في جبل آثوس كتابات الآباء القديسين حول الصلاة الذهنية. ومن أوائل شيوخ أوبتينا القديسون ليو ومكاريوس وموسى وأنطونيوس.

[٣]- ترتيب الخدم الإلهية. وأيضاً نظام أحد الأديار وطقوسه.

أن يقودني إليه. كان رئيس الدير قد لفَّ ثوبه إلى الأعلى وراح يسحق تحت قدميه العاريتين طيناً ممزوجاً بالقش. فنظر إليّ وسألني: 'إذن أنت تود أن تصير راهباً، أليس كذلك؟' فأجبته بالإيجاب. فتابع: 'حسناً. إني أبني بانيا[٤] للإخوة'.

"ثم أمر المبتدئَ بأن يصطحبني إلى غرفة الطعام ويقدم لي بعض الطعام. وقال له: 'وأعطِهِ أيضاً قلاية حتى يستريح. سوف نقيم سهرانة الليلة، فهذا الشاب غير معتاد على سهراناتنا الطويلة'. وبالفعل فقد كانت السهرانة طويلة جداً إذ بدأت عند السادسة وانتهت في الحادية عشرة. كل يوم كانوا يقيمون القداس الإلٰهي مع كامل دورة الصلوات. وبعد انقضاء أسبوع استدعاني رئيس الدير وسألني: 'هل أعجبك هذا المكان؟ وهل تودّ البقاء؟' فأجبته بأني أرغب بشدة بالبقاء. فقال الرئيس: 'حسناً. لقد سبق لي أن تحدثت إلى الأب بولس'. وكان الأب بولس من البوسنة، راهباً هرماً يكاد يكون في عامه السبعين، عاش في أميركا سنين كثيرة ثم عاد إلى صربيا وأصبح راهباً أولاً في دير غورنياك. وتابع الرئيس: 'الأب بولس يعتني بالكروم

---

[٤]- banya صونا روسية، أو غرفة للتعرّق.

وينام في بيت صغير بالقرب منها. أنتَ ستهتمّ بالكروم الآن، وسوف ينزل الأبُ بولس إلى الدير ليساعد الإخوة. إنه راهب متمرِّس'. وهكذا بقيتُ في دير ميلجكوفو".

كان في الدير ثلاثون راهباً تقريباً. وكان الأرشمندريت لابس الإسكيم أمبروسيوس الشمسَ الحيَّة لدير ميلجكوفو وناسكاً يحيا بقداسة. كان الشيخ ثيودوسيوس، رئيسُ اسكيت أوبتينا[٥]، مرشدَه الروحي في فترة الابتداء. وقد اقتنى الأبُ أمبروسيوس موهبة الصلاة الدائمة وعاش في ذِكر دائم للموت. وكان يفوح منه فرحُ ملكوت الله وسلامُه.

ولسوف يحمل الأبُ تذّاوس، حتى نهاية حياته الأرضية، محبةً متأججة لأستاذه الروحي. وقد وصفه بالقول: "كان الأب أمبروسيوس يشعّ محبةً صافية لا تصدَّق. وقد حصل من شيوخ أوبتينا على أفضل موهبة على الإطلاق: المحبة. لم يغضب يوماً على أحدٍ من رهبانه أو مبتدئيه، ولا خاطب أحدهم يوماً بكلمة جارحة. كان يحتمل كل شيء بصبر ويسامح

---

[٥]- كان الشيخ ثيودوسيوس (١٨٥٤-١٩٢٠) تلميذ الشيخ برصنوفيوس أوبتينا ومعرِّفه في آن. وكان رئيس السكيت ما بين العامين ١٩١٢ و١٩٢٠.

الجميع. وضعَ كلَّ همومه وأثقاله عند قدمَي الرب وأودعه وحده كلَّ أحزانه. جاهد لينقل كل ذلك إلى أخوية ديره فتعلّم الكثيرون منهم كيف يحملون، في حياتهم اليومية، هذه المحبة الخالية من الهوى التي تغمر الجميع".

بروح المحبة الإلٰهية هذه أشعل الشيخُ أمبروسيوس، وهو مثال الحياة البارّة، قبساً في نفس الأخ توميسلاف النقية الذي بقيت له هذه المحبةُ الإلٰهية على الدوام المقياسَ الوحيد للحياة الحقيقية. "كان الأب أمبروسيوس على الدوام أول من يدخل الكنيسة للخِدم، ويقف بجانب كرسيّ رئيس الدير. فكان الناظر إليه يلاحظ بأنه مُثقل بهموم الدير ولكنه لم يشتكِ يوماً لأحد، بل اعتاد أن يُفضي بأسراره لله وحده. لم يعاقب أحداً يوماً ولا فكَّرَ بالسوء تجاه أحد، ولا حتى رمق أحدهم بنظرة غاضبة. أحبَّ كل واحد كما هو، وصلّى من أجل أن ينيرهم الله جميعاً. علَّم الآخرين بمثاله بالدرجة الأولى، ومن خلال ذلك جاهد ليقود الجميع على درب الخلاص".

كانت أيام الأخ توميسلاف الأولى في الدير أيام الفرح الأعظم. فترك نفسه تغوص في العلاقة السرّية (mystical)، علاقة الأب الروحي بالابن الروحي، وتلقّن من الأب أمبروسيوس عن الطاعة المقدسة والخلاصية، وعن اليقظة على أفكاره وصلاة يسوع[٦]. "قال لي الأب أمبروسيوس: 'مهما كان العمل الذي تؤديه، ردِّدْ على الدوام وبصمت هذه الكلمات: ربي يسوع المسيح، ابنَ الله، ارحمني أنا الخاطئ'. كنتُ فتى صغيراً وأطعتُه من كل قلبي. وكنت في كل ليلة أعترف لأبي الروحي وأخبره بما يحدث في داخل نفسي، وكان يرشدني". وإذ كان المبتدئ يظن بأن أمامه خمس سنوات فقط من الحياة، فقد أسلم ذاته بالكلية لصلاة القلب.

"في وقت قصير جداً، وبفضل تسليمي الكامل لإرادة الله واشتياقي الصادق إليه، أنارتني نعمةُ الله، وهذا ما أوجد [في نفسي] شعوراً لا يوصف من الفرح والسلام. أصغيتُ إلى قلبي فسمعت في داخله كلمات: 'ربي يسوع المسيح، ابنَ الله، ارحمني

---

[٦]- صلاة قصيرة موجهة إلى الرب يسوع المسيح وهي: "ربي يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا عبدك الخاطئ"، أو بعض الأشكال المشابهة لها.

أنا الخاطئ'. حاولت أن أستعيد بالذاكرة بعضَ الأحداث من الماضي فعجزت عن ذلك؛ كانت كلُّ أفكاري في سلام، وعمَّ كلَّ كياني شعورٌ فائق الوصف بالفرح والحنين. هذه هي حالة الملائكة والقديسين، وهي حالة من النعمة التامة الكاملة. وحدهم الذين اختبروا موهبة النعمة يفهمون حالة الملائكة والقديسين الذين يقودهم الروح القدس". هكذا أضحى توميسلاف الإناءَ المتواضع للروح الهدوئية للكنيسة، مزيَّناً بالزهرة الفوّاحة التي لصلاة القلب.

في وقت لاحق صار الأب تداوس يخبر أبناءه الروحيين تكراراً عن "النعمة المجانية" التي يمنحنا اللهُ إياها هبةً لا تُثمَّن ومن خلالها يقودنا في حياتنا الروحية، مُرياً إيانا أولاً هدف حياتنا: أي التألّه في المسيح، داخل الكنيسة، ومانحاً إيانا في أوقات الحزن والمعاناة، القوةَ والتعزية. وإذ كان الأخ توميسلاف عديمَ الخبرة في الحياة الروحية، فقد ظن بأن جميع الرهبان يمتلكون هذه النعمة المجانية الممنوحة من الله، ولم يفهم إلا بعد وقت طويل بأن محبة الله قد جعلته أهلاً لموهبة عظيمة لا يستحقها، مُعِدَّةً إياه لجلجلةِ خدمتِهِ المستقبلية كرئيس دير وأبٍ

روحي للكثيرين. "ظننتُ بأن جميع الرهبان والكهنة والأساقفة يملكون هبةَ النعمة المجانية. وهل تصدقون؟ لقد أمضيت كلَّ هذه السنوات الطويلة مع الرهبان والكهنة ولم ألتقِ سوى براهب واحد قد حصل على هذه الموهبة. واحد فقط! في حين أنني التقيتُ بالعديد من العلمانيين المتزوجين الذين حصلوا على موهبة النعمة هذه".

تحسَّنت صحةُ الأخ توميسلاف تدريجياً بفضل الصوم الصارم المُتَّبع في الدير، ولكنه بقي واهن الجسم. وكثيراً ما كان يغطُّ في النوم حين كان يؤدي أعمالَ الطاعة الموكلة إليه. "حال وصولي إلى ميلجكوفو أوكِلَتْ إليَّ أولاً مهمةُ العمل في الكروم. ولكني عجزتُ عن البقاء مستيقظاً، فغفوتُ بينما كنت أقوم بحراسة الكروم، فجاء اللصوص وسرقوا العنب. ورحتُ أنتظر بخوف قدوم مديرِ أعمال الدير إلى الكرم. ثم حضر مديرُ الأعمال ورأى ما حصل ولم يوجِّه إليَّ كلمة واحدة! سُرقت العناقيد ولكنه لم يؤنِّبني. ثم جاءني في اليوم التالي وقال لي: 'يا تاموشكا (هكذا كانوا ينادونني في الدير حين كنتُ ما أزال

مبتدئاً)، لقد باركَني باتيوشكا[٧] حتى أعهدَ إليك بمهمةِ طاعةٍ أخرى. سوف تقوم بحراسة الأغنام والماعز في الحقول القريبة من نهر مورافا'. وهكذا أصبحتُ راعياً، ولكني ما لبثتُ أن ارتكبتُ خطأً جديداً".

"كانوا قد أعطَوني كتاب "السواعي"[٨] لكي أتدرّب على قراءته، وبينما كنتُ أقرأ في الكتاب غططتُ في النوم مجدداً. وحين استيقظت تفقَّدتُ الخراف فلم أجد سوى عنزة عجوز واحدة. فقفزتُ للبحث عنها وماذا بي أجد؟ لقد أحدثَتْ شِقاً في أحد السياجات وهامَتْ في الخارج حتى وصلتْ إلى حقل أحد المُزارعين وراحت تمضغ مَحصوله فرحةً. فركضتُ نحو الخراف، وعندما رأتني العنزةُ لحقتْ بي مُقتلعةً في طريقها كاملَ السياج تقريباً. ولما رأى صاحبُ الحقل ما حصل مضى في الحال يحتجّ إلى رئيس الدير. فطلب رئيسُ الدير من مدير الأعمال أن يدفع للمزارع تعويضاً على خسارته، وهكذا كانت النهاية. لم يتفوّه أحدٌ من الإخوة بكلمة واحدة عن الموضوع برمّته. ولا كلمة! وجاءني

---

[٧]- لقب تحبُّب لكاهن أو راهب (والمقصود به هنا رئيس الدير) (المترجمة).

[٨]- أو "كتاب الساعات" الذي يحتوي على الأقسام الثابتة من الخدم اليومية إلى جانب خِدم الساعات وأيضاً الطروباريات والقناديق الخاصة بكل يوم (المترجمة).

في الصباح مديرُ أعمال الدير من جديد قائلاً: 'بارَكَني باتيوشكا لكي أوكل إليك بمهمةِ طاعةٍ جديدة. من الآن فصاعداً سوف تهتم بالأبقار، عند الجهة الأخرى من الحقل'.

"وحدث أمرٌ مماثل. كنا نملك ستَّ بقرات بينها واحدة عجوز كان يبدو بأنها تحب التخريب. فكنتُ أعدُّ الأبقار باستمرار حتى لا أكرر الخطأ نفسه. كما أحضرتُ معي كتاب "السواعي" خاصتي وكنت أقرأ فيه بين الحين والآخر. وبينما كنت أقرأ تمكنتْ البقرةُ العجوز من الهرب إلى الحقول الواقعة عند الجهة الأخرى. وكنتُ جالساً أقرأ في كتاب "السواعي" وألقي نظرة على البقرات من وقت لآخر. وكان يبدو لي بأنها كلَّها أمامي. ولكن حين عدَدْتُها بعناية وجدتُ بأن البقرة العجوز مفقودة، فأصابني الخدَرُ من الخوف وركضت أبحث عنها. والتفتُّ إلى أتلام الملفوف فوجدت البقرة الهاربة تلتهم التلم الثالث من الملفوف بعد أن وطئَتْه بالكامل. ومن جديد اشتكى المزارع لرئيس الدير، ومن جديد كلَّفني مديرُ الأعمال بمهمة طاعةٍ جديدة. وصارت خدمتي الجديدة البقاءَ في غرفة الطعام وفي الكنيسة.

"هذا جزء يَسير فقط من تجاربي مع الشيخ أمبروسيوس التي سَتَرَها بمحبته غير المحدودة. وقد حدثَتْ بعدها تجاربُ أخرى أسوأ وأكثر إيلاماً إلا أن الشيخ كان يواجِه كُلاً منها بمحبته فقط. فقد كان في الدير راهبٌ سبق له أن شَغَلَ منصباً رفيعاً في الحكومة الروسية وكان مولعاً بشُرب الخمر حتى إنه كان يغادر الدير ويختفي مدة أسبوع. فكان رئيس الدير يضطر للبحث عنه في البلدة حيث كان يمضي وقته في شرب الخمر ليس إلا. وقد يخطر في بال المرء أن رئيس الدير سوف يعاقبه على سلوكه ولكن لا، لم يكن الشيخ أمبروسيوس يتلفظ بكلمة واحدة. بل بقي يحبه بالدرجة نفسها وكأن شيئاً لم يكن".

منذ ذلك الحين بدأ المبتدئ توميسلاف مسعاه الثلاثيّ الذي سيستمر مدى الحياة: [مسعى] الجهاد التائب لنَيل نعمةِ الله، الذي هو حياة الإنسان الحقيقيةُ الوحيدة، و[مسعى] اليقظة في حالة النعمة حين منحه اللهُ إياها، و[مسعى] الدموعِ والحزن التائب كلما كانت هذه الهبة تُرفع عنه. وقد قال مرة: "اهتممتُ جداً بدرس ما شعر به الآباءُ القديسون في خلال حياتهم الأرضية وكيف استطاعوا أن يُحافظوا حتى النهاية على حالة

النِّعمةِ المَجانية". لقد أدركَ أنه لا يمكن الحفاظ على النعمة سوى باليقظة المُتواصِلة على القلب والذهن، عن طريق الصلاة. فقال: "إن أردتَ أن تحافظ على منحة النعمة هذه، عليك أن تصلّي طوال الوقت لكي تمنع عن ذهنِكَ الأفكارَ المُرهِقة والسوداء، وهكذا تحافظ على السلام والفرح اللذَين تشعر بهما حين تكون مُستنيراً بالنعمة".

كما أهَّلَ اللهُ الأخ توميسلاف للقاء الكاهن الراهب يوحنا (مكسيموفيتش) الذي أصبح فيما بعد أسقفاً على شنغهاي وبعدها على سان فرنسيسكو ثم طوَّبته الكنيسةُ بعد رقاده. وفي وقت لاحق كان الأب تدّاوس يتذكر التالي: "كان [القديس يوحنا مكسيموفيتش] مُدرِّساً في المعهد الإكليريكي في بيتولا (Bitola) وكثيراً ما كان يأتي خلال عطلات الصيف إلى دير ميلجكوفو لتمضية فصل الصيف. في ذلك الوقت كان مدير أعمال الدير هو الأب بطرس الذي شَغَلَ بالسابق منصبَ حاكمٍ لمنطقة واسعة جداً من روسيا الإمبراطورية، حتى أكبر من الصرب. وقد طلب منا جميعاً أن نذهب ونُزيل الأعشاب الضارَّة من حدائق الدير. وكان عليَّ أن أعمل مع الكاهن الراهب يوحنا... فكان يزيل

الأعشاب الضارة من جهة وأنا من الجهة الأخرى. وقد طرحتُ عليه بعض الأسئلة فأخبرني عن حياة القديسين وتحادثْنا لبعض الوقت.

"فانتبه الأبُ بطرس وبدأ بتأنيب الأب يوحنا بالقول: 'ما عساكَ تفعل هنا، تُسلّي هذا المُبتدئ الشاب في حين أنه ينبغي تأدية العمل!' فأجاب الأب يوحنا: 'سامِحْني يا باتيوشكا، سامحْني. سأقوم بعملي!' كان تقياً جداً ويتمتع بكثير من الخبرات الروحية. كان قد قرأ الكثير عن الآباء القديسين ويعرف وفرةً من الأمور المفيدة في بنيان الروح، فحالما كان يبدأ بالكلام كنت أتوقفُ عن كل عمل وأصغي إليه".

حين أصبح الأخُ توميسلاف راهباً بدأت المعركة الجدّية مع الأفكار التي كان قد اختبرها وبلغ أعماقها السرّية (mystical) حتى في طفولته. وبدأ يدرك بفضل خبرته الشخصية أن كَون المرء مسيحياً يعني أن يخوض، في داخل قلبه، معركةً متواصلة ضدَّ الشر والموت، وهي معركة بدون رحمة وليس فيها خطوطٌ أمامية ولا وقف إطلاقِ نار ضدَّ عدوٍ لا يكلّ ولا ينام.

"كنتُ، مثلي مثل كل الرهبان، أجاهد وأصلي. أقوم بسجدات كثيرة وأؤدي صلوات كثيرة. وعشتُ في خوف متواصل من أن يظهر لي الشيطان بصورة ملاكٍ أو قديس، وبالفعل فقد سمح الربُّ للشيطان بأن يظهر لي في أحد الأيام. فإذ كنتُ أقف مقابل الأيقونات المقدسة، انتصبَ أمامي حتى أسجد له. فرسمتُ إشارة الصليب ودعوتُ باسم الرب ولكنه قال لي: 'أنا لا أخاف من الصليب!' فبدأت بتلاوة صلواتي، ولكنه قال: 'ولا أخاف من الصلوات أيضاً!' وهكذا عذَّبني. فذهبتُ إلى شيخي الذي قال لي بأني، على الأرجح، لم أكن أصلي بحرارة كما يجب. فأخبرتُه بأني كنت أصلي من كل قلبي ولكن الشيطان عذّبني ليلاً ونهاراً وهو ينظر إليّ بابتسامة عريضة. فما كان عليَّ أن أفعل؟ يا ربي، لم تكن لي أدنى فكرة عن كيفية التخلص منه. لم يعد لي سلام ولا راحة. ثم أخبرني شيخي بأن التوبة ضرورية جداً وعليَّ أن أصلّي بندامةٍ من القلب، وعندها سيرحل الشيطان".

وأتقنَ الأخ توميسلاف اللغة الروسية إلى جانب تَعلُّمِه تأدية مختلف الأعمال الديرية، وهذا ما مَكَّنه من أن يقرأ بحماسةٍ كتابات الآباء القديسين التي تُرجمت من اليونانية واللغات

السورية. كما شرعَ في ترجمة بعضٍ من تلك النصوص إلى اللغة الصربية، ومن بينها "عظات القديس اسحق السوري". ولسوف يكون لهذا الأمر مستقبلاً مغزى عظيمٌ له حين وجد نفسه في وضع القديس باييسيوس (فيليتشوفسكي) بالذات: ففي القرن الثامن عشر عجز القديسُ باييسيوس عن إيجاد أبٍ روحي له ولكنه وجد في خبرة الآباء القديسين وذهنِهم، الذي أناره الله، الإرشادَ الروحي المُتمثِّل في لاهوتهم وتعاليمهم.

ولكن هذه الحالة من الفرح الإلٰهي لم تدم طويلاً، كما يحدث غالباً في الحياة، إذ لا يسمح اللهُ لشخص غير مُختَبر بالتمتُّع بحالة النعمة لمدة طويلة لئلا يُسيء استعمالها، كما فسَّر الأبُ تدّاوس. فقد رقد الأبُ أمبروسيوس في الرب سنة ١٩٣٣، بعد بسنة واحدة فقط على دخول توميسلاف إلى الدير، فأصابه لذلك حزنٌ عميق وفَقَدَ صلاة القلب وفارقته نعمةُ الله. "على أثر وفاة أبي الروحي أمضيتُ سنوات كثيرة في الحزن والألم. تمزَّقتْ روحي إرباً، وعادت إليَّ المخاوفُ التي كانت تعذبني في طفولتي".

فصار يحمل آلة الأكورديون خاصَّته ويذهب إلى التلال ليقضي ساعات في الوحدة وعزف الموسيقى، في محاولة لمداواة روحه. "طوال عمري أحببتُ الموسيقى، وكان ذلك يُفرج همّي". كما التمس المؤآساةَ عند شيوخ آخرين إلا أن روحه لم تشعر بالعزاء. وحين فارقه كلُّ أَمَل أرسل إليه اللهُ التعزية عبر نسخة من كتاب "طريق الخلاص" للقديس ثيوفانس الحبيس، وبهذا تثبَّتتْ خبرةُ الآباء القديسين مرة جديدة في حياة توميسلاف. "حين لا يعود هناك أيُّ إنسان قادر على أن يجلب لنا التعزية، عندها يأتي اللهُ ويجلب لنا الفرح عبر كتاب".

النذور الرهبانية والرسامة الكهنوتية

بعد رقاد الشيخ أمبروسيوس من ميلجكوفو نشأ خلافٌ حول من يخلفه فأدّى ذلك إلى اضطرابٍ كبير في الدير. وانقسمت الأخوية التي كانت موحَّدة بالفكر والصلاة، ورحل بعضُ الرهبان إلى دير تومان (Tumane) والبعض الآخر إلى كالينيش (Kalenich). وفي وقت لاحق انتقل المبتدئ توميسلاف

إلى دير غورنياك (Gornjak) حيث أدّى نذوره الرهبانية في ٢٦ شباط/١١ آذار ١٩٣٥ على يد رئيس الدير الأبِ سيرافيم وحصل على اسم تدّاوس. وفي ١٩ أيار/١ حزيران من العام نفسه رُسم شمّاساً راهباً.

وبعد وقت قصير حصل على بركة الأسقف بنيامين ليدخل في خدمة أبرشية بلغراد وكارلوفكي (Karlovci) في دير راكوفيكا (rakovica) في بلغراد حيث أنهى، ببركة البطريرك برنابا، دراسةَ رسم الأيقونات وانغمس في العمق بلاهوت الأيقونة الأسراريّ. ولكنه ما لبث عند إنهاء دراسته هذه أن تخلى عن رسم الأيقونات لأسباب صحية، إذ لم تحتمل رئتاه العليلتان تبخُّر الدهان والمواد المُذيبة داخل غرفة مغلقة.

أمضى الأب تدّاوس العام ١٩٣٧ بكامله، وهو الذي قال الأطباء إنه سيكون العامَ الأخير من حياته، تحت الغيوم الداكنة التي تسببت بها أزمةُ "الميثاق"[٩] وموتُ البطريرك برنابا

[٩]- تشريع أصدره البرلمان اليوغوسلافي في العام ١٩٣٧ وفيه يمنح امتيازات عظيمة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وقد تم في النهاية إبطاله بسبب معارضة السينودس الأرثوذكسي الصربي.

الغامض[١٠]. ثم رُسم كاهناً في ٢١ كانون الثاني/٣ شباط ١٩٣٨ في راكوفيكا. وفي تلك السنة عينها، أرسله البطريرك غبريل إلى بطريركية بيتش (Pech) في كوسوفو وميتوهيا (Metohija) رغم أنه كان أصغر كاهنٍ راهب في الدير.

في بيتش (Pech) واجه الكاهن الراهب تدّاوس صعوبات غير متوقعة. فقد كان الكاهن الراهب يوحنا (زيسيفيتش)، الذي رَئِس ذلك الدير بين العامين ١٩٣٩ و١٩٤١، متعاطفاً مع الحزب الشيوعي، وغالباً ما كان يرتاد الديرَ أحدُ قادة الشيوعيين في بيتش (Pech) ويهدد الأبَ تدّاوس وغيرَه من الرهبان "الرجعيّين" بالقول إنه ما أن يستلم الشيوعيون السلطة حتى لن يعود لهم مكان في تلك البطريركية. وبقي الأب تدّاوس في ذلك الدير حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية في صربيا سنة ١٩٤١ حين اضطر للفرار مع الرهبان الأربعة

---

[١٠]- كان برنابا (روزيتش) (١٨٨٠-١٩٣٧) بطريرك الصرب ما بين العامين ١٩٣٠ و١٩٣٧. وقد شهدت تلك الفترة نمواً جباراً للكنيسة الأرثوذكسية في تلك المنطقة: فشُيِّدت في تلك الحقبة أبرشيات جديدة وكنائس وأديار. وكان من أهم المناهضين شفهياً للميثاق مؤكداً على أنه قد يُضعف مكانة الكنيسة الأرثوذكسية الصربية والمذاهب الأخرى في يوغوسلافيا. ثم مات بصورة مفاجئة في ليلة ٢٣-٢٤ تموز ١٩٣٧ حين أصدر البرلمان "الميثاق".

المتبقّين بسبب العنف الذي مارسه بعضُ الإرهابيّين الألبان. وعاد إلى بلغراد كلاجئ فاستقبلته من جديد أخويةُ دير راكوفيكا.

اعتقالان وظهور عجائبي لملاك الله

قاسى سكان بلغراد معاناة مَريرة في الأسابيع الأولى للاحتلال الألمانيّ للمدينة فحاول عندها الكاهن الراهب تدّاوس الانتقال إلى أبرشية بانات (Banat) الواقعة ضمن سلطة المطران "الدمشقي" الذي أصبح فيما بعد متروبوليتَ زغرب.

"في بانات (Banat) كان هناك "خبزٌ وفير وأكثر من الخبز، بينما كانت بلغراد تكاد تفتقر إلى الطعام بشكل تامّ". ولكنه تعرَّض للاعتقال في محطة القطار في بلغراد حين ارتاب به بعضُ الموظفين الألمان الرسميين لكونه من الإكليروس. فقد كانت قواتُ الاحتلال النازي تعتبر الكنيسةَ الصربية أحد أصلب أعمدة الروح الصربية والتاريخ الصربي، ولذا وجب تدميرُ الكنيسة بهدف إخضاع الشعب. واقتيد الأبُ تداوس إلى مركز الشرطة الألمانية الخاصة بتهمةِ أنه يسافر إلى "بانات" بهدف

تنظيم مجموعاتٍ شيوعية مُتمرِّدة. فاستجوبه الألمان بدقة فائقة وأخيراً أطلقوا سراحه لعدم وجود الأدلة.

وما أن خرج من الاحتجاز حتى توجه إلى دير فيتوفنيكا (Vitovnica) في بلدته الأمّ. ولكن القاتل وأبو الكذب (راجع يو ٨: ٤٤) لم يدعه في سلام. فبعد أيام قليلة من وصوله إلى فيتوفنيكا تمّ استدعاؤه إلى مكتب قائدِ القافلة الدفاعية في المنطقة الذي فرض أن يضع الأبُ تداوس نفسه بتصرف القوات المحتلة، بصفته عضواً في الإكليروس. فرفض بتهذيب ولكن بحزم قائلاً بأنه، لكونه كاهناً في الكنيسة الصربية الأرثوذكسية، لا يقوم بأي تصرف من دون بَرَكة مطرانه. وبعد سنوات طويلة راح الأب تداوس يتذكر ويقول: "كانت تلك الأيام صعبة. كان ظلُّ الموت يظهر مُتوعِّداً فوق رأسكَ لمجرد أن تقول كلمة غير مناسبة أو ترفض الانصياع لأحد الأوامر". ومع ذلك، ورغم التهديد بالموت، فقد أظهر الشيخ تسليماً كاملاً لمشيئة الله وخدمةً كلية للمسيح وجسده: الكنيسة، وبقيت تلك ميزته حتى نهاية حياته.

ثم اعتقله الألمان مجدداً في العام ١٩٤٣ وهذه المرة في مدينة بتروفاك بدون تُهَمٍ معروفة. وألقي في زنزانة إلى جانب مُهرِّبي تبغ. وحكمت عليه السلطاتُ الألمانية بالموت لأنها كانت تملك ملفاً عنه بسبب اعتقاله الأول في بلغراد.

وفيما كان الأب تداوس مستلقياً على السرير الضيق في السجن تكوَّنت لديه القناعة بأنه لن يعرف الحرية من جديد. [وقد قال عن ذلك]: "ظننت بأني لن أخرج حيّاً من ذلك المكان ورحتُ أقول في نفسي: يا الله، يا الله، لقد حضرتْ نهايةُ حياتي". وفيما كانت هذه الأفكار السوداء تهاجمه انتشله اللهُ فجأة من اليأس عبر رؤية رائعة. "كنتُ هناك مستقلياً على السرير، يائساً بالكلية، أفكر: 'ليس من طريقة للخروج من هنا'. حين ظهر بغتةً جنديٌ طويل القامة، وكأنه من العدم، وكان على صدره شريطان ذهبيان عريضان مَعقودان بشكل صليب. وكان هناك شيءٌ فوق جبهته، ليس خوذة، ولكن فوق ذلك ريشةٌ جميلة جداً. وكانت بزّته وكأنها مأخوذة من جدارية. كان رجلاً وسيماً وطويل القامة. لم أرَ في حياتي كلها ما يشبهه! كان يحمل في يده لفافة وينظر إليّ. فعرفتُ – وكان ذلك واضحاً كوضوح النهار – بأن

هذا ملاكٌ أرسله لي الله لتعزيتي! ثم بسط اللفافة الورقية وأراني إياها فوجدتُ عليها رسم خارطة الصرب. وقال لي: 'انظرْ! لا تخفْ ولا تَجزعْ، لأنه ما يزال هناك الكثير من الناس الذين يجب أن تقدم لهم التعزية والشجاعة. هل تفهم؟' فالتفتُّ حولي لأرى إن كان المسجونون معي في الزنزانة قد سمعوا شيئاً من هذا الحوار. لم أكن أعلم في ذلك الحين أن الإنسان يمكن أن يتواصل مع كائنات روحية في أفكاره. إذ ترتجع أفكارُها في ذهنه. واستدرتُ من جديد لأراه ولكنه كان قد اختفى، فعلمتُ عندها أنني شهدتُ رؤيا سماوية أهَّلني اللهُ لرؤيتها من أجل تعزيتي وإعلامي بمشيئته بخصوص حياتي في هذا العالم. كان ذلك في العام ١٩٤٣ وتلك كانت المرة الأولى والوحيدة التي أعاين فيها باليقظة رسولاً من الله. فيما بعد حدثتْ لي رؤىً فقط في الأحلام".

لقد تكلم الله – بواسطة مَلاكِه – إلى الأب تداوس في إحدى أصعب لحظات حياته، حين كان وجهاً لوجه أمام الموت؛ وبهذا أظهر له الدربَ الذي عليه أن يسلكه والطاعةَ التي عليه

أن يؤديها والصليبَ الذي سيحمله: أن يعزّي ويقوّي شعبَ الله بإنجيل المسيح حتى نَفَسِه الأخير.

وقد سار الكاهن الراهب تدّاوس في طريق آلامه في السجون النازية حيث عانى كمعترِف بالإيمان ضمن الاستشهاد الجماعي الذي طال رجالَ الإكليروس والرهبان في الكنيسة الصربية. وفي ٥ آذار من العام ١٩٤٣، وبعد أن قضى عقوبته في سجنَي بتروفاك وبوزاريفاك (Pozarevac) احتُجز في دير فوجلوفيكا (Vojlovica) حيث التقى بالمطران القديس نيقولاي (فيليميروفيتش). ويخبر الكاهنُ الراهب باسيليوس (Kostich) الذي احتُجز أيضاً في الدير نفسه، أن الأب تداوس حضر إلى الدير مُنهكاً بالكلية والقملُ يملأ جسمه، ولكن ما أن استعاد عافيته حتى خدم القداس الإلٰهي إلى جانب القديس نيقولاي وكهنةٍ آخرين في ١٣ آذار ١٩٤٣.

أعوام ما بعد الحرب

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان على الكاهن الراهب تدّاوس أن يعود إلى بطريركية بيتش (Pech)، ولكنه حصل على بركة المتروبوليت يوسف – الذي كان يقوم بمهمات نائب البطريرك غبريل[11] الذي كان لا يزال مسجوناً – للانتقال إلى دير (Gornjak) لعله يبلغ فيه "السلامَ والفرح الروحي".

ثم نُقل مجدداً في العام ١٩٤٩ إلى أبرشية بلغراد وكارلوفكي (Karlovci) حيث رُفِّع إلى رتبة رئيس دير في كاتدرائية بلغراد على يد الأسقف فيساريون. ولكن البطريرك غبريل عاد وأرسله إلى بطريركية (Pech) في نهاية العام، ولكن هذه المرة بصفة رئيس دير. وحين وصوله إلى هناك وجد الدير في حالة مُريعة: إذ كانت الأبنية مُهمَلة ومدمَّرة جزئياً وقد

---

[11]- في العام ١٩٤١ كان البطريرك غبريل رهن الاعتقال لدى الألمان لأنه رفض التعاون مع قوات الاحتلال. وقد اقتيد فيما بعد مع القديس نيقولاي (فيليميروفيتش) إلى معتقل الموت في داشو (Dachau). وأخيراً استطاع العودة إلى بلغراد في نهاية العام ١٩٤٦.

التجأت بعضُ العائلات النازحة للعيش فيها. كما كان الدير يُستعمل كمقرّ رئيسيّ للشيوعيين المحليين.

"تسبَّب لي الشيوعيون بمتاعبَ كثيرة، إذ بذلوا كلَّ الجهود الممكنة لكي يجعلوا حياتي بائسة بالكامل. ولكني نجوتُ وللرب الشُّكر". وكان الأب تدّاوس قد عاد إلى تدخين السجائر في بطريركية (Pech) بعد سلسلة من التجارب والمحن التي أصابته بعنف من الداخل والخارج على السواء (وقد سبق له التدخين حين كان في بطريركية بيتش أيضاً). وكان للنيكوتين أثرٌ رهيب عليه بسبب أعصابه الواهنة، ولكنه عاد واستطاع أن يتحرر من هذه الرذيلة بعد معركة مَريرة.

وبعد سنوات أخبر الأبُ تدّاوس أحدَ أبنائه الروحيين أنه عانى – في أثناء تلك المعركة الداخلية – من انهيارَين عصبيَّين بسبب الحرب التي خاضها ضد تجارب الخوفِ والكآبة والقلق. كان جسده يرتجف بالكامل لكونه عموماً بحالة سيئة للغاية. وقد اعتبر ذلك تحذيراً من الله وعَقَدَ العزم على تغيير نمط حياته والتخلي عن كل الاهتمامات والهموم الدنيوية.

"أدركتُ بأننا جميعاً نقلق بشكل مُفرط بشأن أنفسنا، وأن وحده الذي يدعُ كلَّ شيء لمشيئة الله يكون بالحقيقة فرحاً ومُشرِقاً وسلامياً". وهكذا، فبعد أن تعلَّم أن يدع كل اهتماماته واهتماماتِ مَن حوله بين يدَي الرب، حملَ بصَبرٍ صليبَ خدمته كرئيس دير في بطريركية (Pech) للسنوات الست التالية.

ثم عاد سنة ١٩٥٥، ببركة الأسقف فِنسنت إلى أبرشية برانيتشيفو (Branichevo) حيث أوكلتْ إليه رعيَّتان. وفي سنة ١٩٥٦ أُسندت إليه مجدداً خدمةُ رئيس دير في بطريركية بيتش (Pech) حيث بقي سنة. ثم عاد من جديد في العام ١٩٥٧ إلى متروبوليتية بلغراد وكارلوفكي (Karlovci) بعدما أمضى في بطريركية بيتش أحد عشر عاماً (ثلاثَ سنوات كراهب وثماني سنوات كرئيس دير). وأصبح في العام نفسه رئيساً لدير غورنياك (Gornjak) وخادماً لرعيَّتين كانتا تَضمّان في ذلك الوقت ثلاثَ قرى. وبقي كاهناً متواضعاً في أبرشية برانيتشيفو حتى رقاده سنة ٢٠٠٣.

كان الأب تدّاوس، مثله مثل كل الرهبان الصربيين المُحبّين للمسيح، يُغذي رغبةً مُتأججة بأن يكون مقرُّه الدائم في

وَقف القديس سابا في الجبل المقدس: أي دير خيلاندار، حيث يسعى إلى خلاص نفسه والسلامِ الضروري لحياة يُمضيها في الصلاة والتوبة. وإذ كان يحمل في ذهنه هذه الرغبة المتأججة توسّلَ إلى مطرانه في منتصف الخمسينيات أن يمنحه بَرَكة زيارة الجبل المقدس، التي حصل عليها أخيراً في العام ١٩٥٩ وسافر بعدها بوقت قصير إلى الجبل المقدس.

ومع ذلك لم يشعر الكاهنُ الراهب تدّاوس بترحابٍ كبير في دير خيلاندار. وقد يكون السبب أنه ذهب إلى هناك بعد أن أدّى نذورَه الرهبانية بالكامل في حين أن أخوية خيلاندار تُفضِّل، كالكثير من الأديار، أن تستقبل طالبي الرهبنة والمُبتدئين أكثر من الرهبان الذين أدَّوا نذورهم لأنهم غير معتادين على نمط الحياة في جبل آثوس. فضلاً عن أن الأب تداوس قد سبق له أن خدم كرئيسِ دير في عدة أديار مُشتركة العيشة. ولم يكن دير خيلاندار في ذلك الوقت مشترك العيشة ولا كان هناك أيُّ مُخطط لتحويله إلى هذا الشكل.

مُنح الأب تداوس خلال مكوثه في خيلاندار الذي دام شهرين، زيارةً عجائبية مِن والدة الإلٰه الكلية القداسة. وقد قال

عن ذلك: "لم أكنْ بحالة صحية جيدة في خيلاندار، وظننتُ بأني أعاني من مشكلات في القلب. ورأيت حُلماً في إحدى الليالي: أننا، نحن رهبان جبل آثوس، نذهب لأخذ بَرَكة والدة الإلٰه الكلية القداسة، رئيسةِ دير خيلاندار. فتقدم إليها الإخوةُ واحداً فواحداً من أجل تَقبيل يدِها. وحين وصلتُ إليها، طلبتُ منها أن تُصلّي إلى ابنها وإلٰهنا أن يغفر لي كلَّ الخطايا التي ارتكبتُها في حياتي، وانتظرتُها حتى تتكلم، فقالت: 'هي غير مهمة! إن أعصابك مُنهكة'."

وبعد مرور شهرين أعلمتْ أخويةُ خيلاندار الكاهنَ الراهب تدّاوس بوجوب مُغادرته جبل آثوس بسبب انتهاء صلاحيَّة تأشيرةِ دخوله [إلى الجبل]. ولم يتحقَّق له البقاء في خيلاندار رغم أنه كان يرغب بذلك أشدَّ الرغبة. وقد قال لاحقاً إن السبب هو أن زيارته إلى خيلاندار كانت ناتجة عن مشيئته الشخصية ولم تكن مشيئة الله التي أُظهرت له بجَلاء في أثناء زيارة الملاك له وهو في السجن سنة ١٩٤٣: "هناك الكثير من الناس الذين عليك أن تقدم لهم التعزية والشجاعة!" وقال إنه كثيراً ما كان يَغيب ذلك الأمرُ عن باله.

وهكذا قاده الربُّ من جديد إلى الصرب ليقوم بعمل الطاعة الموكل إليه: كمُرشدٍ لخلاص نفوس إخوتِه المحتاجة والثقيلة الأحمال. ولدى عودته من خيلاندار خدم في رعية (Bistrik) ثم رئِسَ دير تومان (Tumane). وفي العام ١٩٦٢ طلبَ نقله إلى فيتوفنيكا التي رئِسَ الدير فيها كما اهتمّ برعية (Vlashki Dol) لمدة عشر سنوات.

وفي أحد الأيام هرع إلى الدير بسبب ضغطٍ كبير من هجوم الأفكار عليه، فقدَّم اعترافاً أمام كاهن راهب أصغر منه سناً وأُهِّلَ بعدها لرؤيا سماوية أخرى: إذ استيقظ في قلايته وقد سيطر عليه شعورٌ من السلام الداخلي التامّ والتجدُّد الروحيّ وسمع في داخله صوتاً سماوياً يقول: "هكذا يجب عليك أن تتحرر من كل توتر. لا تحملْ هموم هذا العالم، بل احفظْ سلامك وعِشْ مع الله!" كما منحه اللهُ رؤيا عجائبية في مناسبة أخرى حين كان في حالة سيئة جداً على أثر معركة روحية مُضنية. وعن ذلك يقول الأب تداوس: "لقد كلَّمني المخلِّص وطلب مني أن أخرَّ أمام والدته الكلية القداسة، حاميةِ الرهبان".

كان الأب تداوس راهباً تاق منذ صباه إلى حياة الصمت والتأمل، فلم يرغبْ يوماً بمنصبِ رئيس دير. وهو يقول عن ذلك: "كانت لي رئاسةُ الدير مهمةً صعبة جداً على الدوام إذ وجب عليَّ أن أركِّز اهتمامي على أمور مادية وعلى العلاقات بين الأخويَّة والشعب... وكنت في خلالها أفقدُ باستمرار عطيةَ النعمة التي مُنحت لي في مرحلة الابتداء. وقد ولَّد ذلك في حياتي الروحية كلَّ أنواع الصعوبات التي لم أختبرها قبلاً، وأتلفَ صحتي الجسدية". وفيما بعد أخذ الأبُ تداوس لبعض الوقت بنصيحة الأطباء وتناول علاجاً بالأدوية ولكن ذلك لم يحمل إليه أية منفعة على الإطلاق لأن مرضَ الشيخِ الجسديَّ جاء نتيجة حربه الروحية، إذ لم تكن حربه "ضد لحمٍ ودم، بل ضد أصحابِ الرئاسةِ والسلطانِ والسيادةِ على هذا العالم، عالمِ الظلام والأرواح الشريرة في الأجواء السماوية" (أف ٦: ١٢).

وكثيراً ما توسَّل إلى الله أن يُعفيه من رئاسة الدير التي كان يؤديها بالطاعة، ولم يكن ذلك لعجزه عن احتمال التجارب العسيرة الناتجة عن خدمته هذه، بل لأنه كان يتوق بكل كيانه

إلى حياة الصمت واليقظة والصلاة النقية. إلا أن مشيئة الله كانت تعيده على الدوام إلى قطيعه ومهمّاتِ رئاسة الدير.

وقد استمرَّ هذا الصراع مع الله لسنوات عديدة. وفي السنوات الأخيرة من حياة الأب تدّاوس الأرضيَّة وحين كان يتذكَّر كيف حاول التهرّب من أعمال الطاعة التي وجب عليه تأديتها، ومن الصليب الذي أعطاه الربُّ إيّاه، كثيراً ما كان يردِّد: "إن كنا لا نتعلَّم التواضع بأنفسنا، فإن الله لن يتوقف عن خَفضِنا". ولكن كما يقول المَثَل البيزنطي القديم: "إذا ضايقك الملكُ فاهربْ، وأما إذا ضايقك اللهُ فاجلسْ!" نعم لقد ضايقه [اللهُ]، وهو يقود بلطف هذا الراهب المحبَّ المسيح على خارطة صربيا التي كُشفت له في الرؤيا الملائكية عام ١٩٤٣ لكي يأتي به، عن طريق خدمة الشعب كله، إلى الكمال والتواضع الأقصى.

في العام ١٩٧٢ أُحيل الأب تداوس أولاً إلى التقاعد ثمّ عُيِّن بعد ذلك رئيساً لدير بوكاجنيكا (Pokajnika). وفي هذه الأعوام الصعبة روحياً أُهِّل الأبُّ تداوس مجدداً لرؤيا عجائبية، كتحذيرٍ لطيف من الله. يقول عن ذلك: "حين أرسلوني إلى

(Pokajnika) لأخدم كرئيس للدير شعرتُ بالخوف بسبب المشكلات التي يُحدثها السكان المحليون. حينذاك حضر إليَّ الربُّ نفسه في الحلم وحذَّرَني. فجأة وجدتُ نفسي أمامه وجهاً لوجه. كان يضع بطرشيلاً وأوموفرويون فوق كتفيه وبطرشيلاً آخر فوقه. فوقفتُ متفرِّساً فيه وهو يقول لي: 'لماذا تجاهد الجهاد الحسن إن كنتَ لا تطيع؟ كلما عُيِّنتَ رئيساً لأحد الأديار تتذمّر من ذلك وتطلب إعفاءكَ من هذا المنصب. يجب أن تكفَّ عن هذا التصرف من الآن فصاعداً! اِعلَمْ أن عليك أن تؤدي كل عملٍ طاعةٍ بحب كثير وجِدّية وحماسة، من دون أن تعير أيَّ اهتمام للحسد والخبث المُحيطَين بك'. ثم رسم عليَّ إشارة الصليب ثلاث مرات وخلع بطرشيلَه ووضعه فوق رأسي قائلاً: 'هذا هو الصليب الذي يجب أن تحمله'". كان ذلك صليبَ الأبوَّةِ الروحية المبارَكة والإرشادِ الروحيّ للعديد من النفوس الجائعة والعطشى.

التعزية من خلال أقوال الآباء القديسين

قال الأبُ تدّاوس: "بقيتُ حتى العام ١٩٧٥ منعزلاً جداً. لم أكن أذهب إلى أي مكان، ولا كانت رفقةُ البشر تجتذبُني على الإطلاق، وذلك بسبب حالتي الصحية وطبيعتي على السواء". ولكنه – تلبيةً لتوسّلات المُبشِّر التقيّ الأخ دراجي (Dragi) المُتكررة، وببركة مطرانه، ومدفوعاً بمحبته للكنيسة والمؤمنين فيها – صار يقدم أحاديث روحية ومحاضرات. "هناك التقيتُ بالمطران أثناسيوس (Yevtich) للمرة الأولى، وكان حينها كاهناً راهباً وأستاذاً في معهد اللاهوت. كان رأسي مَحشواً بأقوال الآباء القديسين، وكان الناس يسألونني أمراً بعد آخر فأجيبُهم، ويبدو أنهم كانوا يستسيغون ما يسمعونَه منّي. التقيتُ بعلمانيين أتقياء كثُر وَجدوا في أقوال الآباء القديسين الأجوبةَ على كل أسئلتهم الفائقة الأهمية. ومنذ ذلك الحين بدأ الناسُ يأتون إليَّ أكثر فأكثر. أما الآن فإنهم يأتون إليَّ طوال الوقت".

أطاع الأبُ تدّاوس صوتَ الكنيسة فباشَرَ جهاداً نُسكياً جديداً كأبٍ روحيّ لكثيرين، وهي خدمةٌ تصلب نفسها ولا تعرف

التعب، ولسوف تستمر حتى مغادرته هذه الحياة. "كان عليَّ أن أتكلم كثيراً، فبدأ حلقي يضعف وأصيبَ بالتهابٍ مُزمن. وهو ليس في حالة صحيَّة جيدة بعد كل هذه السنين. أحياناً لا أكاد أجدُ القوةَ في صوتي لخدمة القداس الإلٰهي".

في العام ١٩٧٨ أخبرَ الأبُ تداوس إحدى بناته الروحيات (ج) عن رؤيا أخرى شاهدَها في حُلمه، فقال: "بالكاد غفوتُ حتى حلمتُ بأني مُتُّ. وقادني شابان إلى غرفة وأوقفاني بينهما على نوع من منصة. كان القضاةُ عن يميني، وفي الزاوية اليسار البعيدة كان هناك مَن يتلو التُّهم ضدي قائلاً: 'هذا هو! إنه الشخص الذي لا يستطيع أن يتعايش مع أحد!' ووقفتُ هناك مَصعوقاً. ثم ردَّد الصوتُ الاتهامَ نفسه مرتين أُخريين، ثم قال لي الشاب الواقف عن يميني: 'لا تخفْ! ليس صحيحاً أنك لا تستطيع التعايش مع أحد. أنت بالحقيقة عاجز عن التعايش مع نفسك!'

وفي تلك اللحظة أصبحتْ كلماتُ القديس اسحق السوري دربَه الوحيد للخلاص، وهي الكلمات التي ردّدها الأبُ

تدّاوس على نفسه وعلى أبنائه الروحيين مراتٍ لا عدّ لها: "كنْ في سلام مع نفسك وعندها السماءُ والأرض ستكونان في سلامٍ معك".

حين نُصلّي من أجل أحدهم نأخذ معاناته على عاتقنا

رئِسَ الأب تدّاوس ديرَ (Pokajnica) ثم أُرسلَ مُجدداً ليرأَسَ دير (Tumane)، وبعدها عاد سنة ١٩٨١ إلى فيتوفنيكا (Vitovnica). وفي أوائل الثمانينيات بدأ الناسُ يتدفَّقون إليه من كل أنحاء صربيا، وبالأخص من بلغراد: أولاً مجاريَ صغيرة، ثم جداولَ، وأخيراً أنهاراً من الحُجّاج والتائبين الذين تاقوا إلى المُعافاة والتعزية الإلٰهيَّتين. كانوا يأتون بالباصات أو سيراً على الأقدام أو في سياراتهم. فإن ينبوع المياه الصافية يجتذب الملوَّثين والعطاش الذين يهرعون للاغتسال فيه والنَّهل منه. وكانت الأحاديث والتعليم والنصائح الروحية والصلوات تستمر لساعات وتتواصل أحياناً حتى وقت متأخر من الليل، وكثيراً ما

تمتدّ حتى ساعات الصباح الأولى. وتتدفق الاعترافات في القداس الإلٰهي، والسهرانياتُ في الأحاديث الليلية المتأخرة.

كان الشيخ تدّاوس يرحِّب بجميع الحُجّاج بالمحبة اللامتناهية والاهتمام نفسِهما. وحين يكون الطقس بارداً، كان يَستقبلُهم في مطبخ الديرِ الصغير أو في باحة الكنيسة مُقابل مدخل كنيسةِ رقادِ والدةِ الإلٰه الكلية القداسة، في ظل الكرمة. "يأتونَ ليُخبروني بمصائبهم. وأحياناً نتبادل الأفكار. وبعد ذلك يشعر الكثيرون منهم بأنهم أفضل حالاً. أما أنا فأتكلم وأتكلم. كلَّ يوم. أنا متأكد أنه حتى ولو كانت رئتايَ من الفولاذ لانهارَتا. كلُّ هذا الألم والأسى يؤثِّران فيكَ سلباً. إنهم يطرحونَ عليَّ كل أنواع الأسئلة ولكني لا أعرف الإجابةَ عليها. أنا لست من النوع الذي يتواصلُ مع الآخرين. لم أشعر بوطأةِ الشيخوخة عليَّ سوى في العام الماضي. وأما الآن فقد فقدتُ قوَّتي. لم أعد أستطيع أن أتكلم لوقتٍ طويل. وها هي ذي أَنهارُ البَشرِ التي لا تنتهي... أظن أنه هكذا يجب أن تكون الأمور. ورغم ذلك فقد شعرتُ بابتئاسٍ روحيٍّ كبير في الشهرَين الماضيَين. لم أكن قد اختبرتُ

يوماً مثلَ هذا الابتئاس، ولا حتى إبّانَ الحرب. أظن بأن عليَّ أن أُعاني من ذلك أيضاً".

وقد دوَّنتْ إحدى الزائرات ذكرياتِها عن زيارةٍ قامت بها للأب تدّاوس وفيها وصفٌ حيّ لوصولها إلى الدير ولقائها بالشيخ كالتالي:

"باقترابنا من الدير توقفنا لوقتٍ قصير أمام البوابة. أنصَتْنا للصمت واستغرقْنا في السُّكون. لم تكن هناك ولا حركةٌ لظلٍ، ولا حتى نسمة. تجاوزْنا أولَ مباني الدير وتابعْنا سَيرنا صعوداً. قادَنا الدربُ الضيِّقُ مباشرة إلى كنيسة رقاد والدة الإلٰه الكليةِ القداسة. إلى يسار الكنيسة هناك مبنى وإلى يمينِها مَبنيان. ويَسودُ المشهدَ صليبٌ عملاق مُشيَّد على صخرةٍ قريبة يشعر المرءُ بحاجة ملحَّة للسقوط أمامه مُصلّياً.

"يخبرنا التاريخ أن منجماً قد وُجد قديماً في هذا المكان بالقرب من القرية، وقد دمَّره فيضانٌ. بعد ذلك قَدِمتْ مجموعةُ رهبانٍ للعيش والجهادِ في

الكهوف التي خلَّفتها المياهُ المُنحسِرة في التلالِ الصخرية. بنى الكنيسةَ الملكُ الصربي (Milutin) وقد ذُكرت للمرة الأولى في سنة ١٥٥٢. رُسمت جدرانيات الكنيسة سنة ١٨٥٦، قرابة الحَقبة التي كُتب فيها مؤلَّف "حجٌ إلى غورنياك". وفي القرن التاسع عشر، وأثناء ترميم الكنيسة، وُضِعتْ داخل جدار الكنيسةِ الشماليّ لفافةٌ مكتوبة باللغتَين الأرمنية والسلافونية يعود تاريخها إلى سنة ١٢١٨.

"سبقَنا شابٌ يضع حقيبةً مطرَّزة تتدلى فوق كتفِهِ وسمعناه يقول: "لا بأس يا أبتِ، يُمكنني أن أنتظر... لدي متسعٌ من الوقت"، بينما كان يدور حول طاولةٍ خشبية ليقبِّلَ يدَ راهبٍ عجوز نحيلِ الوجه ذي لحية بيضاء طويلة. الأب تدّاوس! سلَّمْنا عليه وطلبْنا برَكَته. كانت يدُه باردة برودةَ هذا الصباح من كانون الأول، وعذبةً كصوتِه. جلسْنا حول الطاولةِ الخشبية تحت الكرمة التي عَرَّتها رياحُ الخريف من أوراقها منذ وقت طويل. وكنا نُعاين، من حيث نجلس، الطريقَ ونهرَ فيتوفنيكا المتعرِّجَ والدربَ

الأحمر الذي يقود إلى أبواب الدير، وكأنها في راحة يدٍ.

"كان الأب تدّاوس يتكلم على إيقاع تنفُّسِهِ: فهو يُبطئُ أحياناً ويُسرع في أحيان أخرى. ويتوقف بين الجُملة والتالية، ويُسقط أحياناً نهايةَ كلمةٍ ما. كان من الواضح أنه يبذلُ جهداً عظيماً للتحدّث".

راحت صحةُ الأب تداوس تتدهور بشكلٍ خطير بنتيجة الإفراط مِن الكلام وحَمْلِ أعباءِ العديد من الناس، وكثيراً ما كان يصلُ به الأمرُ إلى الإجْهادِ التام. وقد تعكَّرَ سلامُه الداخلي إذ بحسب قوله: "حين نُصلّي من أجل أحدِهِم فإننا نحمل مُعاناته على عاتِقِنا". وقد احتمل المُعاناة الداخلية طوال سنينَ عديدة قبل أن يَتعلَّم كيفية تخفيف العبء الثقيل، عبءِ الأفكار التي تكدَّستْ بمرور الزمن مع الاعترافات التي لا عدَّ لها التي أصغى إليها وحمَلَها على عاتقه في عَملِ تَضحيةٍ بالذّات كراعٍ صالح. "يجب أن نتعلم كيفية تخفيفِ عبءِ الأفكارِ التي تُثقِلُ كاهِلَنا. فحالما نشعر بأننا مُثقَلينَ يجب أن نلتفتَ إلى الربِّ ونضع همومَنا بين يديه، وأيضاً همومَ أحبائِنا وقلقَهم. أنا أضعُ دائماً مشكلاتي بين

يدَي الرب، وأيضاً مُشكلات الذين يأتونَ إليّ. أضعُ كلَّ شيء بين يدَي الرب ووالدتِهِ الكلية القداسة وهما يَهتمّانِ بكل شيء. فكيف يمكنني أن أُقدِّم العونَ إلى الآخرين وأنا عاجز عن تقديم العَون حتى لنفسي؟"

أصيب الأبُ تدّاوس بنوبةٍ قلبية سنة ١٩٩٢ وبأخرى سنة ١٩٩٦. وهو يتذكرُ ذلك بالقول: "أُصِبْتُ بنوبتَين قلبيَّتين بسبب الإفراط في التحدُّث إلى الناس. منذ خمسِ سنوات أُصبتُ بنَوبة قلبية إلى الجهة اليمنى وظننت بأن النهايةَ قد حلَّتْ، ولكني ما زلتُ حياً أمامكم. لم تَعُدْ لي القوةُ للكلام ولكني أستطيعُ أن أَخدم، بإمكاني أنْ أُرتِّل. يجب أن أصمتَ وأَمضي ما تبقى من حياتي في السَّكينة، ولكن ما العمل؟ ما زال الناسُ يأتون إليَّ حاملين كلَّ همومِهم ومِحَنهم. في الماضي لم أكن أُعاني من ضغط الدم المرتفع. أما الآن فحين أُنْصِتُ إلى آلام الناس فإنها تنتقلُ إليَّ، وهذا ما يفسر ارتفاعَ ضَغطِ دمي. ولستُ أحبُّ تناولَ الأدوية، ولكنني بالنتيجة ما زلتُ حياً!"

كان الأبُ تدّاوس يُرشِدُ أبناءَه الروحيين بعباراتٍ بسيطة. كان وجهُه مُشعّاً على الدوام ومُبتهجاً لأن سلامَه الداخليّ كان مُنعكساً عليه. وقد قال الشيخُ عن أولئك الذين اقتنَوا روحَ التواضعِ والوداعة: "لسنا بحاجة لقولٍ أو فِعلِ أيِّ شيء، ولكننا نشعرُ براحةٍ عظيمة حين نكون بصحبة شخصٍ متواضع ووديع، مُمتلئٍ من المحبة والصلاح. ولا هو بحاجة لقولِ أيِّ شيء، ومع ذلك فهو يشعّ بالدفء. [ويكون ذلك] كأننا كنا نرتجفُ من البَرد ثم دخَلْنا إلى غرفةٍ دافئة وجميلة وشَعَرنا بالدفء. أرأيتهم؟ هذا هو معنى الأفكار الصّالحة والرغبات الصالحة المليئة بالمحبة والصلاح". وفي الواقع كان الناس يتقاطرون إليه لتدفئة نفوسِهم المُرتجفة بَرْداً، تحت أشعة شَمسِ مَلكوتِ الله، أشعةِ السلام والفرح في الروح القدس التي كان ينشرها الشيخ.

أبدى الأب تداوس مقاربةً آبائية بسيطة ومتواضعة للقضايا اليومية، كما إلى القضايا المتعلّقة بالكنيسة وأسرارِها المقدسة. وكان يُعلِّم بالقول: "أَحبّوا الأمورَ الصغيرة واسْعَوا من أجل ما هو متواضع وبسيط. وحين تتضح الروحُ سوف يمنحها

اللهُ السلامَ الداخلي. الله يَسهر علينا، وهو يسرُّ لتوقِكم إلى سلامه. وإلى أن تصبح الروح جاهزة لن يسمحَ لنا اللهُ، سوى من وقت إلى آخر، بأن نرى أنه حاضر في كل مكان ويملأُ كل شيء. في مثل هذه الأوقات تشعر الروحُ بفرحٍ لا يوصف! وتُحسُّ بأنها تملك كل شيء! ثم يعودُ اللهُ ويختفي عنا لكي نتوق إليه ونلتمسَه بقلوبنا!" كان الأب تدّاوس لطيفاً دوماً مع الضعفاء والمُتألِّمين، وحازِماً مع الذين يُبدون رغبةً في الجهاد لبلوغ الكمال. ولكنه كان الأكثر حَزْماً مع نفسه.

اعتبرَ الأبُ تدّاوس أن لكلِّ شيء أهميةً في الحياة الروحية. كما أن أصغر مشكلة يواجهها شخصٌ "بسيط" كانت ذات أهمية قصوى لدى الشيخ لعِلمه بأن خلاصَ ذلك الشخص سوف يتقرَّر من خلال هذه المشكلة أو المِحنة بالتحديد. مثلُ هذا الشخص كان الأهمّ في عينَي الأب تدّاوس لأن البسطاء هم الأهم عند الله، كما ورد في الإنجيل.

لم يكن الأبُ تداوس يتعب من تعليم جميع المسيحيين الذين يأتون إليه إلى فيتوفنيكا، رجالاً ونساءً، حقيقةَ خبرةِ الكنيسة

البالغة قرنَين من الزمن – والتي نسِيَها الناسُ بسهولة في أيامنا وعصرنا وتجاهلوها – وهي أن الإنسانَ مخلوقٌ من القوة (energy) والفكر، كائنٌ من القوى الذهنية. وكان يعلِّم أن غالبية الأفكار التي تعذِّبُنا من الداخل ليست مِنّا على الإطلاق بل من الشياطين، وأنَّ لكلٍّ مِنا القوةَ والحريةَ الممنوحتَين لنا من الله حتى نرفض مثل هذه الأفكار، وأنَّ حياتنا رهنٌ بنوعيةِ الأفكار التي نحتضنها في أذهاننا وقلوبِنا.

كان الأبُ تدّاوس يقول: "كلُّ الأمور هنا على هذه الأرض، الجيدةِ وغيرِ الجيدة على السَّواء، كلُّ شيءٍ يأتي من أفكارنا. أفكارُنا تحدِّد حياتَنا بكاملها. فإن كانت أفكارُنا مدمِّرة لن يكون لنا أيُّ سلام. وإن كانت هادئة ووادِعة وبسيطة فستكون حياتُنا على هذا الشكل وسيحلُّ السلامُ في داخلنا. ولسوف يشعُّ السلامُ منا ويؤثِّرُ في كل الكائنات المحيطة بنا: الكائناتِ العاقلة والحيواناتِ وحتى النباتات. هذه هي حال 'جهاز التفكير' الخاص بنا الذي يُطلق الأفكارَ التي بها نؤثِّر في باقي الكائنات جميعها. فينتظر الجميعُ منا السلامَ والتعزية والمحبة والاحترام".

"لا أنا، بل الربُّ"

كان الناس يتوافدون إليه حاملين مآسيَهم وآلامهم وشكوكهم، فيجيب الشيخ على أسئلتهم – ليس من نفسه ومن تفكيره الشخصي بل مما كان اللهُ يخبره. وقد قال عن ذلك: "يأتي الناس إليّ وفي بالهم سؤالٌ لم ينطقوا به بعد، والله يعرف بالطبع ما يحتاجون إليه. الله يعرفُ، لا أنا. فيظنّون بأني أقرأ أفكارَهم في حين أن الله هو الذي يجيبهم، لا أنا".

كُثُر هم أبناء الشيخ تدّاوس الروحيون الذي أفادوا من بصيرته. وقد روى رئيسُ ديرٍ صربي أحداثاً أظهرتْ موهبةَ البصيرةِ عند الشيخ. فقال إنه حين أصبح رئيساً لديره وجد هذا الأمرَ أولاً في غاية الصعوبة. إذ وجب عليه أن يواجه مشكلاتٍ عديدة ويضطلع بمسؤولياتٍ عديدة، وتاق للفرار من تلك الأمور لكي يحيا حياةَ صلاةٍ لا يشوبها تَشويش. فرسم خطةً للذهاب سِرّاً إلى جبل آثوس والعثورِ على قلاية منعزلة يعيش فيها بالصمت والصلاة، على أن يتَّخذ اسماً آخر فلا يعرف الناسُ هويتَه الحقيقية. كان مشتهاه أن يقضي ما تبقى من حياته في الجبل

المقدس. ولم يُعلِم أحداً بخطته هذه بل عقد عزمَه في قلبه بشكل ثابت على أن ينفّذها.

ثم حضر الأبُ تداوس لزيارة ديره. وفيما كان الآباءُ والإخوة مجتمعين، طلب رئيسُ الدير من الأب تدّاوس أن يحدثهم عن الصلاة. وعندها التفت الأبُ تداوس إلى رئيس الدير وحدَّق في عينيه مباشرةً وقال: "حين كنتُ رئيس دير شاباً كنتُ عاصياً جداً. وتكوَّنتْ لدي الرغبةُ بترك مسؤولياتي في صربيا وقضاءِ ما تبقى من حياتي كراهب في جبل آثوس". عندها قال رئيسُ الدير للأب تداوس بأنه لم يكن يريده أن يتحدث في هذا الموضوع بل أن يحكي للإخوة المُجتمعين عن الصلاة. وما كان من الأب تداوس إلا أن تابع النظر إلى رئيس الدير وردَّد ما سبق وقال: "حين كنتُ رئيس ديرٍ شاباً، كنتُ عاصياً جداً..." وعندها لم يعد لرئيس الدير أيُّ شكٍّ في أن الله قد كشف للأب تداوس تصميمَه الخفيّ، وأنه بهذه الطريقة ينصحه مباشرة وشخصياً بأن يتخلّى عن تصميمه هذا ويتابعَ تأدية المسؤوليات التي أوكلتْ إليه.

وفي وقت لاحق أصيب رئيس الدير نفسُه بقنوط كبير لأن زائرين كثيرين كانوا يؤمّون الدير وابتدأوا يتغلغلون في الحياة الرهبانية. وقد تذكّر هذا الأمر بالقول: "رحتُ أتذمر إلى الله وأسأله إن وُجد مرةً في التاريخ ديرٌ كديرِنا للعلمانيين فيه دورٌ أكبر من دور الإخوة في الحياة الرهبانية. وبعد وقت قصير زار الأبُ تداوس الديرَ وجلس في غرفةٍ مع السكان المَحليّين والرهبان وأسقف. وقد طلب الأسقفُ من الأب تداوس أن يخبرَنا عن دير ميلجكوفو (Miljkovo) والقديسين الذين فيه. فأجاب الأبُ تداوس إن هناك بعضَ القديسين ثم التفت إليَّ وقال: 'وليس القديسين فقط، بل هناك أيضاً أشخاصٌ آخرون'. ثم روى قصةً عن راهب سكّير كان ينبغي إعادته من المدينة على عجلة يدوية بدولاب. ثم تابع يُخبر قصصاً أخرى كثيرة جعلتني أُدرك بأن التجارب التي يواجهها ديرُنا هي أصغرَ بكثير من تجارب (Miljkovo)". وفهم رئيسُ الدير بأن الله قد أعلمَ الأبَ تدّاوس مجدداً بفكرته السرّية ومنحَه مجدداً نصيحةً مباشرة لكي يتابع حَمْلَ صليبِه كرئيس دير.

وإضافة إلى ذلك فقد قارب الشيخَ أيضاً أناسٌ بطريقة سيئة وصنمية: بعضُهم بسبب الجهل والبعض الآخر بسبب تعلّقهم العاطفيّ به، والقلة بقصد شيطاني. فعارض الشيخُ ذلك بشدة وكان أحياناً يتألم كثيراً بسبب أحداثٍ تَسبَّبَ بها بعضُ من يَدعون أنفسَهم "أبناءه الروحيين". وكان يعلِّم أن: "على المرء دوماً أن يحب الله أولاً أما أقاربه ورفاقه فيأتون في الدرجة الثانية بعدَ الله. يجب ألا نصبح مطلقاً معبوداتٍ لبعضنا البعض، لأن هذه هي مشيئة الله". وفي جميع الأحوال فقد كان شيوخُ جبلِ آثوس وأوبتينا يتعرضون أيضاً لهذا النوع من التجارب لأن في البشر مَيلاً دائماً لعبادة المادةِ المخلوقة عوضَ الخالق نفسِه. وقد قال الأبُ تداوس في دفاعه عن حقيقة الأبوَّة الروحية الممنوحة من الله: "إن سلامَ الذهن الذي تحلّى به آباؤنا القديسون قد أضفى عليهم التواضعَ، هؤلاء الطاعنونَ في السن، ذوو الحكمةِ الإلٰهية، إذ لم يسمحوا لأحد يوماً بمُعاملتهم كأصنام معبودة أو آلهة. هنا يكمن الفرقُ العظيم بين الشيوخ الحقيقيين، شيوخِ العهد الماضي، والجددِ الذين جعلوا من أنفسهم 'رائيي' العصر الحاضر".

كما أتى بعضُهم إلى فيتوفنيكا مُبيِّتين نوايا نجسة، فكانوا بالعادة يغادرون الدير بنفسِ حالةِ الفراغ التي حَضروا بها. ومرة تذكَّر الأبُ تداوس أحدَهم فقال: "في أحد الأيام أتى كاتبٌ من بلغراد ليراني، ودفع أجرةَ التاكسي ليقلَّه كلَّ المسافة من بلغراد إلى هنا. كان يريد أن يسألني ما إذا كان مبيعُ قصصِه القصيرة سيلاقي رواجاً. فأجبتُه بأني لست رائياً... وأخيراً رحلَ الكاتبُ وهو يقول إنه قد أخطأ بمجيئه إليَّ. أرأيتم؟ لقد أتى لأسباب مادية بحتة، ليعرف ما إن كانت كتبه ستجلب له الشهرة والثروة المادية".

وحين كان يأتي أحدُهم إلى الشيخ متوقِعاً حدوثَ معجزةٍ فورية من الحديث معه، كان الأب تدّاوس يقول له بعذوبةِ الأُمّ: "أنت تأتيني حاملاً مشكلاتك، وأنا نفسي أعاني من مشكلاتٍ كثيرة أيضاً، والربُّ يُعزّينا جميعاً. أخبرُك بما يُكدِّرني وتخبرُني بما يكدِّركَ، وبعد ذلك سيكون كلُّ شيء على ما يرام... سيكون الربُّ قد منحنا التعزية!"

وقد وصف أحدُ أبناء الأب تدّاوس الروحيين الكُثر طريقةَ الشيخ في تعليم المؤمنين، فقال: "كنتُ بالعادة أطرحُ عليه سؤالاً فيُجيبني بشكل مقتضب ثم يقول لي: 'فلان وفلان... من الآباء القديسين قد كتبوا الكثير عن هذا الموضوع، فهل أذهب وأُحضِرُ الكتابَ لنقرأ فيه معاً؟' وكنت أوافق على الدوام مُتلهِّفاً. فيروح يُقلِّب صفحات الكتاب حتى يجد المقاطعَ المناسبة ويقرأها بصوت عال متوقفاً بين الحين والآخر ومُضيفاً تعليقاته الخاصة. لم أقابل في حياتي شخصاً كالأب تدّاوس متآلفاً إلى هذه الدرجة مع الكتابات الآبائية".

ويتذكر زائرٌ آخر واقعيَّة الأبِ تداوس العميقة التجذُّر في تقليد الكنيسة والتي كانت تَظهرُ في أحاديثه الروحية مع المؤمنين: "ما كان الشيخُ يعطيني يوماً أجوبةً مباشرة على أسئلتي المباشرة جداً، بل كان يردُّ دوماً مُستشهداً بآباء الكنيسة أو بحياة القديسين، وهي الطريقةُ الصائبة الوحيدة للإجابة على الأسئلة".

في العام ١٩٨٦ أهَّلت العناية الإلٰهية (م)، أحدَ أبناء الأب تداوس الروحيين، أن يكتشف بأن الشيخ كان يمارس- إلى جانب الجهاداتِ النسكية المعتادة (الصوم والسهرانات والسجدات) - شكلاً آخر من النُّسك: فهو لم يكن يستلقي على سريره مطلقاً، ولا حتى للنوم. لقد شاء اللهُ أن يدخل (م) إلى قلاية الشيخ لطلب البَرَكة من أجل تأدية عملٍ ما في غابة الدير، وإذا به يرى الشيخَ جالساً على سريره وظهرُهُ مُستند إلى الجدار ورأسُه مُنحنٍ على صدره مُتيحاً بذلك لجسده أن ينالَ الراحة. لقد التزمَ بكل أَمانةٍ بنَذرِ الفقرِ الرهباني إلى درجة أنه لم يكن يملكُ شيئاً مادياً، ولا حتى الخصوصية. ففي المبنى الجديد للدير كان بابُ قلايةِ الشيخ مَصنوعاً من الزجاج، ما يجعل الجميعَ قادرين على رؤية داخلِ القلاية.

وفي العام ١٩٨٧ كتب الحاجّ (ف) ما يلي: "يبلغ الأبُ تداوس الثالثة والسبعين من العمر. ولستُ أرى فيه أيَّ تغيير: إنه لطيفٌ ومرِح وما زال بالإمكان رؤيتُه في أية لحظة، تماماً كما من قبل. وهو مضيافٌ ومتحفظ تجاه الجميع. إنه

باختصار، وبالتحديد، الإنسانُ المسيحي كما نتخيَّل أنه يجب أن يكون".

وفي السنة نفسها أطلع الأبُ تداوس هذا الحاجَّ على حُلم رآه مؤخَّراً: إذ وجدَ نفسَه يقبِّل الأيقونات في كنيسة كبيرة "فظهر المسيحُ نفسه أمام أيقونة الرب، وكان يبكي. وعند سؤاله عن سبب ذَرفِه الدموع، أجاب لأن الناس، حين يتواجهون مع الشرّ، يحاربونه بالشرّ".

وفي أحد الأيام تناول الأبُ تدّاوس الطعام في فيتوفنيكا مع زائر تقيّ من بلغراد. وبعد الوجبة لاحظ الزائرُ وجودَ بعضِ فُتاتِ الخبز في لحية الشيخِ الطويلة. وعند نهوضهما عن الطاولة أخبر الأبَ تداوسَ بلطفٍ أنه من الأفضل أن يَنفض لحيتَه حتى لا يلاحظ باقي الزوار فتاتَ الخبز فتخطرُ في بالهم تساؤلاتٌ عنه. ولكن الشيخ اكتفى بالابتسام وقال: "إنه لأمر مؤسف أن نرمي هذه الفتات لأنها وليمةٌ للعصافير!" ثم جلس على مقعد في الحديقة وأرجع ظهرَه إلى الوراء ونادى عصفوراً يَحطُّ على شجرة قريبة قائلاً: "تعال أيها العصفورُ الصغير، تعال

وكُلْ!" وشاهد الزائرُ بأمِّ العين كيف هبط العصفورُ واستقرّ على لحيةِ الأبِ تدّاوس وراح يلتقط الفتات بمنقاره حتى أَتى عليها كلِّها.

كانت عينا الأب تداوس الروحيَّتان تعاينان لغز الخليقة الإلٰهي وامتنانَها السرّي (mystical) لخالقها، كما واللغزَ الرهيب، لغز إفساد الإنسان للخليقة وإساءةِ استعماله للطبيعة بطريقة كئيبة مادية ومدمِّرة، فكان يخاطب حجّاجَ فيتوفنيكا بالقول: "تتعرض الحياةُ للتدمير والإبادةِ على نحو متزايد... وهذا الأمر ليس لغزاً على أحد! فمنذ عشر سنوات تقريباً حين كانت الثلوج تتساقط بغزارة، كنتَ ترى في الليل وعلى ضوء القمر، عائلاتٍ كاملةً من الأرانب تلعب في الفسحات الممتدّة ما بين الأشجار. كانت تتراكضُ في دوائر وتلعب مُطاردةً بعضها البعض. كنتَ ترى المئات منهم على الثلج تدورُ على نفسها كالدواليب وتلعب بفرح. كان ذلك فرحاً حقيقياً، فرحَ الحياة! والحيوانات تشعر به. وأما الإنسان فينتزع منها هذا الفرح. الحيوانات تشعر بفرحِ الحياة في حين أننا نملك كل أنواع الأمور المادية ولكننا لا نشعر بالسعادة ولا بالاكتفاء على الإطلاق. الحيوانات لا تشعر بالقلق

بخصوص الغد. إنها لا تجمع القمح في أهراءاتها ومع ذلك فالرب يُطعِمُها كلها. إنها تقضم جذراً من هنا، وتعثر على مكان للنوم هناك، وتشكرُ الله. على عكسنا، نحن البشر..."

وفي العام ١٩٩٨ ألقى الأبُ تداوس في إحدى ضواحي بلغراد مَوعظته الشهيرة بعنوان: "التوبة هي تغييرٌ للحياة" في مسرح (Shumadija) وكان مكتظاً بالناس. وقد أعيدَ بثُّ هذه الموعظة مرات كثيرة على محطات تلفزيونية عدة واعتُبرت أحد أهم الأحداث الروحية في تلك الأيام العصيبة[١٢].

"لنكن أبناء النور"

أمضى الأبُ تداوس السنوات الأخيرة من حياته بعيداً عن دَيره وأبرشيته، فقد مَنطَقَهُ آخرون وأخذوه حيث لا يشاء (راجع يو ٢١: ١٨). وقد قبِل الأبُ تداوس ذلك بملء إرادته ورضيَ بالعيش خارج ديره وأبرشيته. وراح ينتقل من مكان إلى آخر على مثال **الذي** لم يكن له مكان يسندُ إليه رأسَه منذ بدء

[١٢]- للاطلاع على هذه الموعظة راجع الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب.

حياته على الأرض وحتى نهايتها. فأمضى عدة أشهر في أديار تابعة لمتروبوليتية مونتينيغرو والساحل، وعند اقتراب حياته الأرضية من نهايتها وجدَ ملاذاً في منزل عائلة (Grubor) في مدينة (Bachka Palanka) وبقي فيه حتى رقاده.

في تشرين الثاني من العام ٢٠٠١، وفي حديثٍ للأب تداوس مع أبناء روحيين له من بلغراد بدتْ فيه صحتُه متدهورة وأما وجهُه فكان يتأجَّجُ بإشراقِ صفاءِ ملكوتِ الله، قال بصوتٍ مُتكسِّر يكاد يكون همساً، كلماتٍ التمعت بالنور: "عاش كلُّ الآباء القديسين حياة صالحة، حياة هادئة، وجميعُهم قالوا بأن كمال الحياة المسيحية هو في التواضع الأقصى. هذا يعني بأن أكثر ما نحتاجُه في هذه الحياة هو الصبر في المعاناة الطويلة. علينا أن نحتمل كل شيء بصبر ونغفرَ للجميع. إن كانت أفكارُنا ورغباتنا صالحة، فستمنحنا هذه الأفكار السلامَ والفرح حتى في هذه الحياة، وبالأكثر في الأبدية. وعندها سنفهم بأن لا وجود للموت، وبأن الرب قد قهر الموت وأعطانا حياة أبدية!"

وفي العام ٢٠٠٢ زار صاحبُ السيادة أمفيلوخيوس متروبوليت مونتينيغرو والساحل الأبَ تداوس المريض في (Bachka Palanka). لقد أتى لوداع الشيخ وتقديم الإجلال لأحد أعظم النُّساك الصربيين في القرن العشرين.

وأصيب الأبُ تدّاوس بسكتة قلبية وبمرض مزمن فألمَّ به عَجزٌ بالِغ احتمله بمحبةٍ وطاعة وتواضع حتى اللحظة الأخيرة من حياته، ما جعله يبلغ الكمال. ورقد الشيخُ تداوس من فيتوفنيكا في المسيح المُخلِّص ليلة ٣١ آذار/١٣ نيسان – ١٤/١ نيسان في (Bachka Palanka) في عيد القديسة مريم المصرية، نموذجِ التوبة والطاعة. في ذلك اليوم بلغ شيخُ فيتوفنيكا الهادئ قمةَ سلَّم الطاعة للمسيح وكنيستِه، وحقق الهدفَ الذي ناضل لتحقيقه طوال حياته: الملكوتَ السماوي.

وأقيم دفنُ الأب تداوس في ١٥/٢ نيسان ٢٠٠٣، فودَّعه رفاقه الرهبان وأبناؤه الروحيون بصلوات خافتة ودموع بعد أن حضر العديدُ منهم من أنحاء بعيدة من صربيا للمشاركة في

دفنه. واتحد أبناؤه الروحيون في الأسى لفقدانهم أبيهم الأرضي ولكنهم تعزَّوا بفرح اكتساب شفيع حارّ لهم في السماوات.

وكما حدث للعديد من قديسي الله مثال القديس (Cuthbert of Lindisfarne) والقديس جيراسيموس من الأردن، والقديس سيرافيم ساروفسكي – الذين سكبوا محبةَ الله على كل الكائنات الحية مُجتذبين إياها إليهم – قدَّمت الحيواناتُ إجلالَها عند رقاد الشيخ المُمتلئ من الله. فقد تقاطرت أسرابٌ متنوّعة وعديدة من الطيور لتشييع الشيخ الذي أحبها كثيراً وكان دوماً يتحدث عنها بحنان عظيم:

"إنها مُمتنَّة لله، على عكسنا نحن البشر. فالطيور تُنشد تسابيح للرب على الدوام. إنها تبدأ أنشودتها باكراً، عند الثالثة صباحاً ولا تتوقف حتى التاسعة. عند التاسعة تهدأُ قليلاً، وعندها فقط تذهب للبحث عن طعام لإطعامِ صغارِها. وبعدها تعود للإنشاد من جديد. لا أحدَ يطلب منها أن تغني، إنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها. وأما نحن، فعابِسون على الدوام، مُتجهِّمون على الدوام، ولا رغبةَ لنا بالغناء ولا بأيِّ شيءٍ آخر. يجب أن نحذو

حذو الطيور، فهي فرِحةٌ على الدوام في حين أننا متضايقون على الدوام لسببٍ ما. ما الذي يزعجنا؟ في الحقيقة لا شيء... أليس كذلك؟"

شهادة وديعة للمخلِّص الوديع

كانت خدمةُ الأب تدّاوس، كأبٍ روحيّ، ذات هدف واحد: خلاص شعبِ الكنيسة المؤمن. وقامت جهاداته حصراً على الشهادة للروحانيةِ – النسكية والليتورجية – للكنيسة، التي لا تعدو كونها الروحَ القدس الذي يعمل في جسد المسيح بواسطة قوى (energies) الله غير المخلوقة، من أجل تنقية كلِّ الذين يجاهدون للخلاص واستنارتِهم وتألُّهِهم. إذ يقود الأبُ الروحي، ببَرَكة الكنيسة، أبناءه الروحيين نحو المسيح جاعلاً إياهم جزءاً من جسد المسيح لكي يُشفَوا – بعَيشهم حياة مسيحية ومشاركتِهم في الأسرار المقدسة – من حالتهم الساقطة وموتِهم وفسادِهم. وعلى هذا لا يكون الأبُ الروحي هو الذي يشفيهم، بل الروحُ القدس، وذلك بالقوى (energies) الإلٰهية غيرِ المخلوقة وقد

أُعلِنتْ للبشر من خلال ربِّنا يسوع المسيح، المخلِّص المتجسد. فإنه باللهِ الحيّ – الثالوثِ القدوس – وحده يتم شفاءُ الإنسان روحياً واستنارتُه وتألّهه. ومع ذلك فالله لا يقوم بهذا العمل من دون مشاركة الإنسان، وهذا التعاون السريّ (mystical) هو جوهر الحياة الأرثوذكسية في الكنيسة.

يعتبِر "تقليدُ كنيستنا، كما عرَّفه القديسُ مكسيموس المعترف، أن المستويات الثلاثة للكمال النسكي والسريّ (mystical) هي: التنقية من الأهواء (الفلسفة العملية)، واستنارة النوس (nous)[١٣] والقلب[١٤] (المشاهدة الطبيعية)، والتألّه، أي الاتحاد الفِعليّ بالروح القدس (اللاهوت السرّي (mystical))[١٥]. وقد بلغ الأبُ تداوس خلال حياته كلَّ هذه المستويات الثلاثة في مدرسة الروح القدس. فجميع الذين التقَوا الأبَ تداوس وتحدثوا إليه واعترفوا له وتناولوا القربان المقدس من يده، أدركوا بأنه قد اكتسبَ هذه الكمالات الثلاثة. كما نستشفّ من أخبار تواصلاته

١٣- أسمى ملَكة للروح التي، إذا تنقَّت، يمكنها أن تتوصل إلى معرفة الله تعالى من خلال قواه (energies).

١٤- القلب هو المركز الروحي لكيان الإنسان، المتصل، بمعنى ما، بعضو القلب الفيزيزلوجي.

15- St. Maximus the Confessor, *Various Texts*, 5.94; in *The Philocalia*, vol. 2 (London: Faber and Faber), p. 283.

مع الملائكة والقديسين – التي رواها بتواضع بصيغة الغائب – أن الشيخ قد أُهِّل أيضاً لبلوغ تلك الدرجة السريّة (mystical) الأثر سموّاً في اللاهوت التي فيها، كما قال المتروبوليت إيروثيوس فلاخوس: "يتواصل الإنسانُ المتألّه مع القوات الملائكية ويؤهَّل لمعاينة النورِ غير المخلوق. ويكشف له الروحُ القدس الأعماقَ الإلٰهية وينال قوة (energy) الله غير المخلوقة. أمام مثل هذا الإنسان يتكشَّف العديدُ من أسرار إنجيل الله التي تبقى خافية على الآخرين".

وبفضل ثبات الشيخِ تداوس الرّاسخ في تقليد الكنيسة المتجذِّر في الفيلوكاليا[١٦]، فقد شهد لمعاصريه عن خبرة لاهوت الآباء القديسين الحيّ في كل مظهر من مظاهر خلاص الإنسان: "ليس بإمكاننا تحقيق خلاصنا ما لم نُبدِّل أفكارَنا ونجعلها مختلفة... وهذا يتمّ بعمل قدرةٍ إلٰهية في داخلنا. وهكذا تصبح أذهانُنا متألِّهة، متحرِّرة من الأهواء، ومتقدسة. وحده الذهن الذي يحوي اللهَ في داخله وهذيذاً متواصلاً بالرب يمكنه أن

---

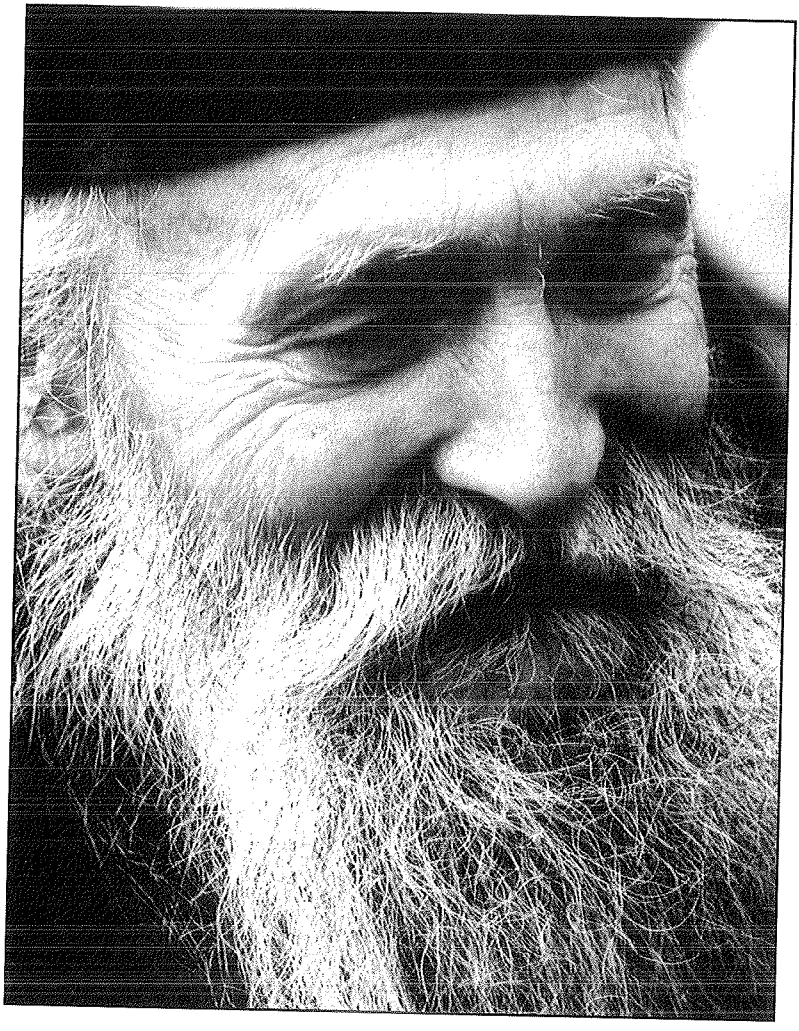
[١٦] - مجموعة مختارات من كتابات الآباء القديسين الكلاسيكية والنسكية جمعها القديسان نيقوديموس الآثوسي ومكاريوس الكورنثي.

يتألَّه. ونحن، حين نُدرك بأن الله فينا ونحن فيه، يمكننا أن نتحرك كالسمكة في الماء. الله في كل مكان ونحن، كالسمكة، نسبح فيه. فإن هجرناه، لا نلبث أن نموت روحياً للحال".

كانت حياة الشيخ تداوس منسوجةً في تدبير المسيح وعملِه الخلاصيّ، فأضحى شاهداً وديعاً للمخلِّص الوديع وسط الشعب الصربي في واحدة من أصعب فترات تاريخه (١٩١٤ – ٢٠٠٣) والتي كانت للصربيين حقبةً من الزلزلة الروحية والتاريخية عرفَتْ حربَين عالميَّتَين، وحرباً أهلية، وخمسين سنة من الاحتلال الشيوعي للبلاد، وحروبَ (Krajina)، والبوسنة والهرسك، وهجومَ قوات الناتو على الشعب الصربي عام ١٩٩٩، واحتلالَ كوسوفو و(Metohija)، وتواصلَ عولمة المجتمعات حول العالم. في ساعة الظلمة هذه التي امتدت طوال قرنٍ كامل من الحرب والمعاناة، سعى الشيخُ تداوس إلى السلام والفرح في الروح القدس وشهد له، مُظهراً بمثاله الغلبةَ في اختيار الطريق الضيّق المُفضي إلى ملكوت الله.

الجزء الثاني

تعاليم الشيخ تدّاوس



الشيخ تدّاوس

الفصل الأول
في الأفكار

١- تعتمد حياتُنا على نوعية الأفكار التي نُغذّيها. فإن كانت أفكارُنا سلامية، هادئة، وادعة وودية، هكذا تكون حياتُنا. أما إذا كان اهتمامُنا منصبّاً على الظروف التي نعيش فيها فإننا نُجتذَب إلى داخل دوّامة من الأفكار ونفقد سلامَنا وهدوءنا.

٢- كلُّ شيءٍ يأتي من أفكارنا: الخير والشرّ. فإن أفكارنا تصبح حقيقةً. وحتى اليوم بإمكاننا أن نرى أن كل الخليقة وكلَّ ما في الأرض والكون لا يعدو كونه فكرةً إلٰهية تحققت في الزمان والمكان. نحن البشر قد خُلقنا على صورة الله. لقد وُهِبت البشريةُ عطيةً عظيمة ولكننا بالكاد ندرك ذلك. فإن قوّة (energy) الله وحياتَه فينا، ولكننا لا ننتبه إلى ذلك، ولا نُدرك أيضاً أننا، بأفكارنا، نؤثّر تأثيراً عظيماً في الآخرين. نحن قادرون على أن نكون صالحين للغاية أو أشراراً للغاية، تبعاً لنوعية الأفكار والرغبات التي تعشّشُ في ذواتنا.

إن كانت أفكارُنا وديَّةً وسلامية وهادئة، متجهة فقط نحو الخير، فإننا نؤثِّرُ أيضاً في ذواتنا ونشعّ بالسلام في كل ما حولنا: داخل عائلتنا، وفي كل أنحاء البلاد وأينما كان. وهذا الأمر صحيح ليس فقط هنا على الأرض بل في الكون أيضاً. حين نعمل في حقول الرب فإننا نَخلق الانسجام. وينتشر الانسجامُ الإلٰهي والسلامُ والهدوء في كل مكان. أما إذا تركْنا الأفكارَ السلبية تعشِّش في داخلنا فذلك شرٌ عظيم. وإذا كان فينا شرّ فإننا نشعّ به ما بين أفراد عائلتنا وأينما نذهب. وهكذا ترون أن بإمكاننا أن نكون صالحين للغاية أو أشراراً للغاية. وعلى هذا فالأفضل بالتأكيد أن نختار الصَّلاح! الأفكارُ المدمِّرة تدمِّر السكونَ في داخلنا، وعندها نفقد السلام.

نقطة انطلاقنا مغلوطة على الدوام: فبدَلَ أن نبدأ بأنفسنا نودّ دوماً أن نُغيِّر الآخرين أولاً وبعد ذلك أنفسَنا. ولو بدأ الجميعُ بأنفسهم لخيَّم السلامُ في كل مكان! يقول القديس يوحنا الذهبي

الفم إن لا أحد يستطيع أن يؤذي الإنسانَ الذي لا يؤذي نفسه – ولا حتى الشيطان[١٧]. أرأيتم؟ إننا وحدنا مهندسو مستقبلنا!

كثيراً ما يعكِّر الإنسانُ بأفكاره ترتيبَ الخليقة. هكذا أُبيد أوائلُ البشر في طوفان بسبب أفكارهم ونواياهم الشريرة. والأمرُ حقيقيٌ اليوم أيضاً: أفكارنا شريرة ولهذا نحن لا نعطي ثماراً جيدة. علينا أن نتغيَّر. على كل إنسان أن يتغيَّر، ولكن المؤسف أننا نفتقد لنماذج نقتدي بها سواء في عائلاتنا أو في المجتمع.

٣- لم يكن الناس في العهد القديم قادرين على قبول محبة الله التي لا حدود لها، ولا على قبول وصاياه، فاتَّبعوا المبدأ القديم القائل: العين بالعين والسنَّ بالسنّ (راجع خر ٢١: ٢٤). وما زلنا نحن المسيحيين مُلتزمين حتى اليوم بمبدأ العهد القديم هذا فصرنا مَحوطين بالشرّ من كل ناحية، إلى جانب أمور كثيرة مزعجة تحتفّ بنا في الحياة وتُدمِّر سلامنا الداخلي. نحن عاجزون عن أن نغفر حتى لأخينا، فما بالك بالآخرين؟

---

[17] - St, John Chrysostom, *Treatise to Prove That No One Can Harm the Man Who Does Not Injure Himself;* in *Nicene and Post-Nicene Fathers,* First Series, vol. 9 (Peabody, Mass.: Hendrickson Publishers, 1994), pp. 269 - 84.

وهكذا ترون كيف تسير الأمور: حين نغذّي في داخلنا أفكاراً شريرة نصبح أشراراً. قد نظن بأننا صالحون ولكن الشرَّ فينا ولا نملك القدرة على مقاومته. ونحن نعلم أننا كمسيحيين يجب ألا نفكر حتى بالشر، فكيف بالقيام به؟

ولكننا، من جهة أخرى نملك قدرة إلٰهية وحياة إلٰهية وطاقة إلٰهية. وسيكون علينا في يوم القضاء الأخير أن نقدّم حساباً عن كيفية استعمالنا لهذه القدرة والحياة والطاقة الإلٰهية التي وُهبت لنا: سواء كنا أسهمْنا في انسجام الكون أو في زرع التنافر.

٤- لقد اتخذ الربُّ كلَّ آلامنا وهمومنا وحمَلَها ووعد بأنه سيُلبّي كلَّ احتياجاتنا ومع ذلك فإننا نتمسَّك بهمومنا بشدة لدرجة أننا نخلق الاضطراب في قلوبنا وأذهاننا وداخلَ عائلاتِنا وما حولنا.

كلما أثقلتْ كاهلي المشكلاتُ، وكلما حاولتُ أن أحمل بنفسي كلَّ هموم الدير والأخوية، تكون هناك اضطراباتٌ بانتظاري وبانتظار الإخوة: إذ يصبح من الصعوبة بمكان تأديةُ

العمل الأكثر سهولة. ولكن حين أُودِعُ نفسي والأخويةَ وكلَّ ما تبقى للرب، يصبح من السهولة بمكان تأديةُ حتى أصعب الأعمال. عندها يزول الضغطُ ويخيِّم السلام فيما بين الإخوة.

٥- الرب حاضرٌ في كل مكان ولا شيءَ يحدث من دون إرادته أو بسماحٍ منه، إنْ في هذه الحياة أو في الحياة الأبدية. حين نقبلُ هذه الفكرةَ يصبح كلُّ شيء أكثرَ بساطة. فلو كان اللهُ يسمح لنا بأن نفعل كلَّ ما نريد وبالطريقة التي نريدها وحين نرغب بذلك، لكان ذلك سيؤول من دون شكّ إلى كارثة. لا يمكن للمرء حتى أن يتخيَّل الفوضى العارمة التي قد تنتج عن ذلك. الله يُذكِّرنا بوجوده بطرقٍ متنوعة وأما نحن فننسى ذلك بسرعة وعلى الأخصّ حين تكون أمورُنا جيدة. ننسى بأننا هنا لوقت قصير فقط ونظن بأننا سنبقى هنا إلى الأبد. ولكن حين تحدث لنا مصيبةٌ نصرخ: "يا ربُّ ارحم!" لهذا السبب ينبغي أن نبذل كلَّ ما بوسعنا لتغيير طباعنا إلى الأفضل.

٦- أتَتْني يوماً امرأتان ومعهما سيدةٌ تَجرُّ رِجلَها وتمشي بشَقِّ النَّفس. قالت لي إنها ذهبتْ إلى العديد من الأطباء ولكنهم

عجزوا عن معرفة المشكلة. فقلتُ لها إن أعصابها ضعيفة، وأضفتُ بأن حالتي أسوأ من حالتها! فقالتْ لي إن زوجها تخلّى عنها، فأجبتها: "بالطبع. فمن سيهتمّ بالأولاد، ومن سيُحضِّرُ له طعامه إن كنتِ مُحبطة إلى هذا الحدّ؟ أنتِ لست مريضة جسدياً! بل مُحبطة للغاية. غَنّي! غَنّي ولسوف يعود إليكِ زوجُك!" ثم قلت لها بأني سأدخلُ إلى الكنيسة وأتلو بعض الصلوات وأريدُها أن تعود إلى بيتها لوحدها. فنظرتْ إليَّ لوهلة ثم عادتْ إلى السيارة وهي تكادُ تركض. وإذ ذهلتْ السيدتان الأُخريان قلت لهما: "إنها بخير، وليست بحاجة إلى مُساعدتكما بعد اليوم!".

٧- الإنسان الذي يَحوي في داخله ملكوتَ السماوات يشعّ بالأفكار المقدسة، بالأفكارِ الإلٰهية. إذ يخلق ملكوتُ الله في داخلنا جوّاً من الفردوس، بعكس جَوّ جهنّم الذي يشعّ به الإنسان الذي يسكن الجحيمُ في قلبه. فللمسيحيين في هذا العالم دورٌ هو تنقيةُ الجوّ على الأرض ونشرُ جوِّ ملكوت الله.

بإمكاننا أن نُقيم الحراسةَ على العالم بأسره عبر حراسة جوِّ الفردوس الموجود في داخلنا، لأننا إن فقدْنا ملكوتَ السماوات فلن نُخلِّص أنفسَنا ولا الآخرين. ومن يملك ملكوتَ الله في داخله سوف ينقلُه إلى الآخرين بطريقة غير محسوسة. سوف ينجذب الناسُ بالسلام والدفء اللذَين فينا ويَودّون البقاء إلى جانبنا، ولسوف ينتقل جوُّ الفردوس تدريجياً إليهم. لا ضرورة حتى لأن نُكلِّم الناس عن هذا الأمر، فإن جوّ الفردوس سيشعّ منا حتى ونحن صامتين أو فيما نتكلم عن أمور عادية. سوف يشعّ منا حتى من دون أن ندري.

لن يجعل ملكوتُ الله سكناه في قلب إنسانٍ لا يعرف الطاعة لأن مثل هذا الإنسان يودّ دوماً أن يحقق إرادته لا إرادة الله. ففي ملكوت الله لا يمكن أن يوجد ملكوتٌ داخل ملكوتٍ آخر. كانت هذه بغية الأرواحِ الساقطة أيضاً ولهذا سقطتْ بعيداً عن الربِّ، ملكِ المجد.

الإنسان الواقع في فخّ الحلقة المُفرَغة حلقةِ الأفكار المشوَّشة في جوّ الجحيم، أو الذي لامسها وحسب، يشعر

بعذابات الجحيم. لأننا قد نقرأ الصحف مثلاً أو نتنزَّه في الشوارع ثم نشعر فجأة بأن هناك أمراً على غير ما يرام في نفوسنا، فنشعر بالفراغ أو بالحزن. وذلك لأننا بقراءتنا أموراً كثيرة تصبح أذهاننا شاردة ويجد جوُّ الجحيم إلى أذهاننا مَنفذاً مفتوحاً.

٨- يوصينا الآباءُ القديسون بأن نُركِّز انتباهنا على الرب حال استيقاظنا من النوم، وأن نجعل أفكارَنا متحدة به طوال اليوم ونتذكَّره في كل لحظة. لقد صلّى الآباء لكي يتحرّروا من الغَفلة، إذ كثيراً ما تجذبنا أمورُ هذا العالم فننسى الرب... ننسى بأنه في كل مكان وأن أي عمل نقوم به وأيةَ مهمةٍ نؤديها هما له. نظن بأن العمل الذي نقوم به هو لشخص آخر وكثيراً ما نؤدّي مهماتنا مُكرَهين. وحين نؤدي عملاً ما مُكرَهين عاجلاً ما تتولّدُ فينا معاندةٌ وشعورٌ بالاشمئزاز، ثم تمتلئ حياتُنا بالمعاندة والاشمئزاز تجاه كل شيء. ويمرُّ الوقتُ ونشيخ على هذه الحال.

٩- أفكارك مثقَلة لأنك متأثر بأفكار رفاقك. صلِّ إلى الرب لكي ينزع عنك هذا الثقل. إنها أفكار الآخرين المختلفة عن أفكارك. إنَّ لهم مخططاً، ومخططُهم هو أن يهاجموك بأفكارهم.

وأنتَ، بدلاً من أن تتجاهل ذلك، قد سمحتَ لنفسك بأن تصبح جزءاً من مخططهم، فمن الطبيعي أن تتألم. لو تجاهلتَ الهجوم لحافظتَ على سلامك. ولكان بإمكانهم أن يفكّروا أو يقولوا أيَّ شيء عنك ولكنتَ حافظت على هدوئك وسلامِك رغم كلِّ ذلك. ولكان كلُّ غضبهم تجاهك قد سَكَنَ في غضون وقت قصير كالبالون الذي يفرغ من الهواء، بفضل الأفكار النقية والسلامية التي تنبعث عنك. إن كنتَ هادئاً وممتلئاً بالمحبة وكانت كلُّ أفكارك صالحةً وودية، فسوف يتوقفون عن شنِّ الحرب عليكَ في أفكارهم ولن يتهددوكَ بعد اليوم. ولكن إن كنتَ تسعى وراء العين بالعين فهذه هي الحرب. وحيث الحربُ لا يمكن أن يوجد السلام. فكيف يوجد سلامٌ في ساحة الحرب حيث ينظر كل واحد من فوق كتفيه متوقعاً هجوماً مفاجئاً من العدو؟

١٠- جاهد الآباء القديسون لاقتناء السلام. وقد قال أحدُ الآباء القديسين: "الذهنُ هائلُ التَّجوال. إنه في تَرحال دائم. لا يمكنه أن يرتاح إلى أن يظهر **الوحيد** الذي يُضجِعُه في راحةٍ دائمة". إن كان الآباء القديسون قد خاضوا أشرسَ الحروب لاقتناء السلام، فعلينا نحن أيضاً أن نضع دوماً في اعتبارنا

ضرورةَ أن نجاهد لنكون صالحين في كل الأوقات. وهذا يعني بأن ذهننا لا يمكن أن يبلغ السلامَ إلا إذا أنارنا **القديرُ**، الروحُ القدس. وهذا يتمّ حين تتعلَّم أذهانُنا أن تنظر في الاتجاه الصحيح. ونُدركُ بأن الأفكار الوديعة والعذبة، المفعمةَ بالحب والغفران، هي الطريقُ [الذي يقود] إلى السلام والسكينة.

لمَ يوصينا الله بأن نحبَّ أعداءنا ونصلّيَ من أجلهم؟ ليس هذا من أجلهم بل من أجلنا! لأننا ما دمنا نحمل الأحقادَ ونتذكَّر باستمرار كيف تعرَّضنا للإهانة فلن يكون لنا سلام.

إن كان ربُّ العائلة مُثقَلاً بالهموم والقلق بخصوص مستقبلِ عائلته فلن يكون له سلام. ولسوف يشعر كلُّ أفرادِ العائلة باضطرابه. سيعرفون بأن هناك مشكلة ما من دون أن يُحدِّدوها. هكذا نُدرك كم تؤثر أفكارُنا بالآخرين. كما يمكن لأفكارنا أن تسبِّب أيضاً حالاتٍ من سوءِ التفاهم داخل العائلة.

١١- كان في مدينتنا (Petrovac) كاهنٌ يدعى الأب ب. وكان ذا شخصية مميزة: قاسياً بعض الشيء، حادَّ الكلام، ومُتشدداً في الانضباط، ولكنه كان يكنّ حباً لا يُصدَّق

للحيوانات. فكنتَ تجد في بيته كلاباً وقططاً على الدوام. وفي أحد أيام الخريف ذهب [هذا الكاهن] ليُبارِك منزلَ أحد أبناء رعيته الذي كان يملك كلباً شرساً وضخماً بضخامة العجل من فصيلة "الراعي الألماني". وما أن تجاوز الأب ب. بوابةَ المنزل حتى وثب الكلب مُنقضّاً عليه. فتيقَّن الجميع من أنه يهاجمه، ولكن الكاهن فتح ذراعيه على وسعهما وقال له: "تعال، هيا لنتعارك!" فوضع الكلبُ قائمتَيه الأماميَّتين على كتفَي الكاهن وراح يلعق وجهه. فدهش الجميع ولكن الكاهن قال: "هو يعرف بأني أحبُّ الحيوانات!" هذا ما يحدث حين تكون أفكارُ المرء صالحة. فإن كانت الحيوانات وهي كائنات غير عاقلة تشعر بهذا فكم بالحري سيشعر أكثر إخوتُنا البشر بأفكارنا الصالحة؟ إن أفكارنا لقادرة على خلق الانسجام أو التنافر في العالم.

١٢- في أحد الأيام حضرت فتاةٌ لتراني. كانت طالبة في الجامعة وكان والداها طبيبَين. قالت لي إنها تعاني من مشكلة مع واحدة من أساتذتها التي ترفض أن تضع علامةً على بحثها. فسألتُها: "لمَ تَشنّين الحربَ على أستاذتك؟ يجب أن تكنّي لها احترامَ الأم. إنها تعاقبكِ من أجل مصلحتك". ولكن الفتاة

رفضت ذلك وقالت: "لا يا أبتِ، هذه المعلمة حقيرة، إنها كذا وكذا... فإني أعطي الإجابات الصحيحة على كل أسئلتها ولكنها لا تفعل شيئاً بل تطلب مني أن أعود في المرة المقبلة. إنها لم تضع لي علامةً واحدة حتى الآن". فأجبتُ الفتاة بأنه من الواضح أن المعلمة غير منتبهة لهذا الأمر ولكنها (أي الفتاة) تشنّ حرباً على أستاذتِها في ذهنها. وطلبتُ منها أن تُصلّي من أجل معلمتها لكي يُرسل الربُ ملاكَ سلامٍ ويعطيَها القوةَ حتى تحب أستاذتها، وعندها ستسير كلُّ الأمور على ما يرام. فظنَّت الفتاةُ بأني أروي لها قصصاً من الخيال. واستمر الوضعُ على هذا النحو مدةَ سنة وبدأت تفقد الأملَ من إنهاء سَنَتِها الأولى. وبعد ذلك راحت تصلي من أجل معلمتها، وحين اجتازت الامتحانَ التالي نجحتْ ونالت علامة مرتفعة.

١٣- حالما تدخل ذهنَنا رغبةٌ أو فكرة عالمية للوقتِ يُرسل لنا اللهُ تحذيراً. وبدلاً من أن نعود إلى رُشدنا ونَصُدَّ مثل هذه الأفكار والرغبات فإننا نغذّيها ونتوق إليها. وبعد ذلك نتساءل عن سبب حدوث الأمور السيئة معنا. إن علامات التحذير هذه تأتينا على شكل تجارب.

١٤- نحن نتصوَّر في ذهننا كلَّ ما نفعله ونقوله ونخطط له ومن دون ذلك لا يمكننا أن نفعل أو أن نقول شيئاً. كل شيء يتخذ شكلَه في الذهن أولاً: كلُّ نشاطنا يتجلّى في أفكارنا أولاً. الأفكار هي القدرة التي تتصوَّر كلَّ شيء في مركز كياننا (القلب)، وحين نكون مُتحدين **بينبوع الحياة** يتكشَّف لنا كل شيء وننفتح على كل أنواعِ المعرفة.

١٥- حين يحظى أحدُهم بنعمة الله تكون أفكارُه قوية بما لا يصدق لأن قوة الله هي التي تعمل فينا. فإن ابتعدنا عن الله بأفكارنا وقلوبنا، عندها يمكن أن تصبح أفكارُنا رهيبة وحتى مُميتة لإخوتنا البشر. أما إذا كنا متَّحدين بالرب بقلبٍ مليء بالإيمان فإن قوة النعمة تعملُ فينا. ولكن إن لم نُطهِّر أنفسَنا بعد من الكبرياء، وما زلنا نشعر بالإهانة والغضب حين يوجّه إلينا الآخرون كلماتٍ غير لطيفة، فإن قوة الله التي فينا تتضاءل.

١٦- جاءت إليَّ امرأةٌ عجوز وأخبرتني بأن جارتها تضايقُها. قالت بأن المرأة الأخرى تواصل رَمي أشياء كثيرة في حديقتها، فهي على وشك أن تفقد صوابها. فسألتُها عن سبب

مشاجرتها الدائمة مع جارتها ولكن العجوز أجابتْني بأنها لم تتكلم مرة مع جارتها الشريرة. فألححتُ عليها قائلاً بأنها تتشاجر معها يومياً وقلتُ لها: "أنتِ مقتنعة بأنها تقوم بتصرفات شريرة معك وتفكرين بها على الدوام. دعيها تُتابع ما تقوم به وأنتِ حَوِّلي أفكاركِ إلى الصلاة وسوف تجدين بأن الأمر لم يعد يُضايقك".

١٧- قال الرسول يعقوب: "أنتَ تقول بأنك تؤمنُ، فأَرِني إيمانَك بالأعمال" (راجع يع ٢: ١٨). الشيطان أيضاً يؤمن ويرتعد (راجع يع ٢: ١٩) ومع ذلك فهو يُعارض اللهَ وكلَّ أمرٍ صالح. كُثُر هم الذين، على هذه الأرض، يعتبرون أنفسَهم ملحدين. ولكننا إنْ فكَّرنا ملياً في هذا نُدرك بأنه ليس من كائنٍ عاقل على كوكب الأرض لا يتوقُ إلى الحياة الحقيقية والحبِّ المطلق. الحبُّ المطلق لا يتغير يوماً بل يدوم إلى الأبد. نحن نتوق إلى الخير المطلق والسلامِ المطلق من كل قلوبنا. والحقيقة أننا نتوق إلى الله. فالله هو الحياة، الله محبة، إنه سلامٌ وفرح. نحن نتوق بقلوبنا إلى الله ولكننا نعارِضُه بأفكارنا. وكما قلنا، الشيطانُ يؤمن ويرتعد ولكنه يعارض الله. وهكذا فإن الملحد ليس ملحداً في الحقيقة بل هو مقاومٌ لله.

وهكذا فإننا نتوق إلى الله بقلوبنا ولكننا نعارضُه بأفكارنا. ومعارضتنا لا يمكن أن تؤذي الله الكليَّ القدرة، ولكنها قادرة بالتأكيد على أن تؤذينا. إن أفكارنا وأمزجتنا ورغباتنا تُحدِّد درباً لحياتنا. أفكارنا تعكس حياتنا كلها. فإن كانت أفكارنا هادئة، سلامية، ومليئة بالحب واللطف والنقاوة، عندها نكون في سلام لأن الأفكار السلامية تسمح بوجود السلام الداخلي الذي يشعّ منا. وعلى العكس، فإن غذَّينا في داخلنا أفكاراً سلبية يتهشّم سلامُنا الداخلي.

إليكم ما يقول الآباءُ القديسون عن الأفكار: "إنْ هاجمتْنا الأفكارُ التي تنتزع منا السلام، فاعلموا بأنها [تأتي] من جهنم". علينا ألا نقبل مثلَ هذه الأفكار بل أن نطردَها على الفور. من مصلحتنا أن نحارب ونجاهدَ حتى يتجذَّر السلامُ في نفوسنا، السلامُ والفرح والمحبة الإلٰهية. يودُّ **أبونا** السماوي أن ينال كلُّ أبنائه ممتلكاتِه الإلٰهية. يود أن نمتلئ من الحب والسلام والفرح والصدق واللطف. يودُّ أن نتمكن من تعزية الآخرين. ونحن أيضاً نودّ أن نصبح ودعاء ومتواضعين لأن وحده الوديع والمتواضع يشعّ بالخير واللطف... مثل هذا الإنسان لا يشعر بالإهانة على

الإطلاق حتى ولو صرختَ في وجهه وأنَّبتَه. ويمكنك أيضاً أن تضربه فيكتفي بأن يشفق عليك لأنك تعذِّبُ نفسَك بهذا الشكل. مثل هؤلاء الأشخاص قلةٌ قليلة على هذه الأرض، ولكن إليهم يعودُ الفضلُ في أن الشمس ما زالت تُدفئ كوكب الأرض، وفي أن الله يمنحنا برَكته لنُتابعَ العيش وننعمَ بكل ما نحتاج إليه في هذه الحياة. هل فهمتم الآن لمَ يجب أن تتبدَّل أفكارُنا؟

١٨- إيماننا بالله ضعيف جداً، وثقتنا [به] ضعيفة جداً. فلو كنا نثق بالرب قَدْرَ ثقتِنا بصديق نطلب منه أن يقوم بعملٍ ما لأجلنا، لما عانينا، كأفرادٍ - ولا بلادنا - كلَّ هذا الألم. هذه الفوضى في أذهاننا وفي كل أنحاء بلادنا تأتي من أفكارنا. فنحن الذين نخلق تنافر الأفكار. ولو كان رجال السياسة عندنا ذوي فكرٍ واحد وذهنٍ واحد، لما كانت الأمور على هذا النحو. نحن لا نعي بأننا نحمل طاقة إلٰهية في ذواتنا، وحياةً إلٰهية. وبما أننا جميعاً نملك هذه الطاقة فإن اتحاد كلِّ فرد بالآخرين يخلق قدرةً هائلة يهرب منها العدوُّ لأن فيها الانسجام.

١٩- إن الأفكار مزروعةٌ في أذهاننا طوال الوقت، من كل ناحية ومن كل اتجاه. ولو أُعطي لنا أن نرى إشعاعاتِ الأفكار لأمكننا أن نرى شبكةً حقيقية منها. فكلٌّ منا يملك في ذهنه "مُتلقياً" (receiver) يفوق الراديو والتلفزيون بدقته وتطوّره. ما أروع ذهن الإنسان! ولكننا مع الأسف لا نقدِّر أهمية ذلك. ونجهل كيف نتَّحد **بينبوع** الحياة وكيف نشعر بالفرح. فالعدو يزرع بذوراً في أذهاننا بشكل متواصل. وقد أتيحت للقديس أنطونيوس رؤيةُ شبكاتِ الأفكار المحيطة به فهتف: "من سيَخلص يا رب؟" فسمع صوتاً يقول له: "وحده الوديعُ والمتواضع القلب". لأن الأرواح الشريرة تعجز عن التعرُّض للودعاء والمتواضعي القلوب لكونهم متحدين بالسلام والصمت وليست لهم أفكار سلبية.

٢٠- يحلو لي أن أخبركم عن ابنٍ روحي لي. إنه علماني، ولكنه يعيش بطريقة أقدس من العديد من الرهبان. وأنا أقول له على الدوام: "لا تقبلْ الإيحاءات. قلْ لنفسك: لن أفكر بهذا الأمر! وستجد بأنك ستصبح بارعاً جداً في هذا الأمر". وهذا ما فعل. فكان يرفض الإيحاءات التي تأتيه من أفكاره حتى

من دون أن يحاربها. وهو في سلام. إنه رجل قوي جسدياً يزيد وزنه على الـ١٠٠ كلغ، ولكنه في سلام!

بعدما أنهى خدمته العسكرية ودّ أبواه تزويجه ولكنه قال لي: "لا أعلم يا أبتِ. يبدو لي أنني قد أصبحت خصيّاً". فأجبته بأنه ليس مضطراً للزواج بطبيعة الحال، ولكني حذَّرته من جديد من قبول أية إيحاءات تأتيه من أفكاره لأن الأهواء الجسدية لا يمكن أن تشتعل من دون "الفيلم" الذي تُطلِقه أفكارُنا ومن دون أن نشاهد ذلك "الشريط". فالجسد يكون في سلام في غياب الأفكار التي من هذا النوع. وقلت له: "احذر لئلا تبدأ بقبول الاقتراحات التي تقدمها لكَ أفكارُك وإلا فستكتشف سريعاً بأنك لم تصبح خصياً". فأجابني: "إنهما يريداني أن أتزوج وهذا ما لا أودّه". لقد كان في سلام ولم تكن الفتيات تثير اهتمامه.

وفي أحد الأيام قرر أن يقبل اقتراحاً بمشاهدة "فيلم". وأتاني قائلاً: ماذا أفعل الآن يا أبتِ؟ لا أستطيع أن أنتزعه من رأسي!" فأجبته: "أرأيت خطورة ذلك؟ الآن عليك أن تكون شديد

اليقظة في صلواتك، وحتى ركبتاك يجب أن تؤلماك قليلاً[١٨]. وبعد ذلك سيكون كل شيء على ما يرام".

ثم عاد إليَّ بعد وقت قصير وأخبرني بأنه لن يلعب بالنار من جديد. أرأيتم؟ لقد اكتسبَ هذا الانضباط بالأفكار وأضحى في سلام. والآن هو يودّ أن يصبح أصدقاؤه أعفّاء مثله، هؤلاء الذين ينخرطون في كل أنواع السلوك غير اللائق. فينصحهم بأن يعيشوا في العفة أو يتزوجوا. إنه يحدّثهم عن الطهارة والحياة المسيحية لدرجة كبيرة حتى إني اضطررت أن أطلب منه تخفيف ذلك بعض الشيء إذ حين يحاول أحدُهم أن ينتزع آخرَ من أعمال الشر فإن الشياطين تهاجمه بلا هوادة. وقد هاجموه بالفعل. فخاض الكثير من المعارك الروحية. كما هاجمه الشياطينُ جسدياً، فكان يأتي إليَّ مُثخَناً بالجراح ومصاباً بالضرب، فكان [المشهد] لا يصدَّق.

هكذا ينبغي أن نعيش: ضابطين أفكارنا. ليس جيداً أن نُقيم في كل فكرة تأتينا وإلا فسوف نفقد سلامَنا. إن تعلَّمْنا أن

---

١٨ - أي أن يزيد عدد السجدات التي يؤديها يومياً (المترجمة).

نرفض مثل هذه الاقتراحات نصبح في سكون فلا نعود نتخيَّل ولا نخلق أية صوَر في أذهاننا.

٢١- عند الصلاة يجب ألا يفكر المرء على الإطلاق بل أن يصبح بالحري مُجرَّداً من ذاته. ورغم قول الآباء القديسين: "عندما تصلي كُنْ كأنه لا يوجد أحدٌ غيرك في الكون عداك أنتَ والله"، فحين نصلّي يجب ألا ننشغل بذواتنا لأن ذلك يجعلنا مُستغرِقين في حاجاتنا الذاتية فنُتلِفُ صلاتنا بأنفسنا. نُعرقِلُ صلاتنا بأنفسنا. نصبح حاجزاً لأنفسنا.

كثيراً ما نظن بأن الشر هو في مكانٍ ما في الخارج. ولكن لو لم يكن الشر موجوداً سَلفاً في ذواتنا لما كان الشرُّ الموجود "في الخارج" قادراً على التعرُّض لنا. فالشر موجودٌ في داخلنا. ومع ذلك لا يمكن إلقاء اللوم على هذا الشر بحدِّ ذاته بل على أنفسنا لأننا تركْناه يدخل إلى قلوبنا ولأننا نقضْنا سلامَنا. لنفترضْ بأن أحدهم يتهدَّدُنا أو يحاول إقناعنا بالقيام بعمل شرير. لندَعْه وشأنه. فلهذا الشخص إرادته الذاتية. ليَقُمْ بعمله ونحن سنقوم بعملنا الذي هو المُحافظة على سلامنا الداخلي.

الفصل الثاني
في الحياة العائلية

١- الطاعة تبني والمشيئةُ الذاتية تهدم. يجب أن يتعلم الولدُ أن يطيع والدَيه كما يُطيع اللهَ. عليه أن يتذكر كلمات والديه طوال حياته وأن يحترم دوماً من يكبرونه سناً، وليس فقط من يكبرونه سناً بل مَن هم أصغر منه أيضاً. عليه أن يكون ودوداً ومهذباً مع الجميع. ولكن المؤسف أن قلة قليلة هي العائلات التي تربّي أولادها بهذه الطريقة.

٢- تتدخل أرواحُ الشرِّ في أذهان الأولاد... وتحاول تشويشها. على الولد أن يتعلم الطاعةَ وخصوصاً قبل عامه الخامس لأن هذه هي الفترة التي يتطوَّر فيها طَبعُ الولد. وهكذا فإن خصائص الطَّبع التي تتكوّن عند الولد تلازمُه حتى نهاية حياته. في هذه الفترة على الأهل أن يُلقِّنوا أولادهم الطاعةَ المطلقة. فعندما يتكلم أحدُ الوالدَين يجب أن يكون الجواب:

"آمين". ولكن المؤسف أن أهل هذه الأيام يجهلون هذه الأمور ويعلِّمون أولادهم العكس تماماً، فيكبرون...

٣- إن قال أحدُ الوالدَين :أبقَ هنا"، فعلى الولد أن يبقى حيث طُلب منه ذلك. ولكن الولد بطبيعته لا يمكنه أن يجلس في مكان واحد دونما حراك. وما يحدث بالعادة هو أن الأهل يضربون الولد العاصي على قفاه. ولكنها ليست طريقة جيدة لتلقين الولد الطاعة. قد يكون الضرب على القفا مطلوباً في بعض الأحيان وأما هنا فيجب أن يتمّ بداعي المحبة، ويجب أن يشعر الولد بهذه المحبة. على الأهل ألا يضربوا الولد مطلقاً بدافع الغضب. لأنك إن حاولتَ أن تؤدِّب أحداً وأنت غاضبٌ فلن تُحقِّق شيئاً. لن تَجني سوى الأذية لنفسك وللشخص الآخر. فإن أردتَ أن تُعيد أحدَهم إلى الطريق الصحيح وأن تعلِّمَه وتنصحَه، فعليك أن تتواضع أولاً ثم تتوجَّه إليه بكثير من المحبة. ولسوف يقبل نصيحتك لأنه سيشعر بأنها أُسديت له بمحبة. ولكن متى أردتَ أن تفعل مشيئتك مهما كلَّف الأمر فلن تحقق شيئاً. هكذا تنشأ المُعاندة عند الولد. وعندما يعصى الولد لا يكون الحلُّ بالضرب.

٤- قرأتُ في المجلة الطبية (Elixir) بأن طبيباً نفسياً قال إن الدموع توازي أكثر من ثلاثين حبة من المهدّئ وإن مفعولها يفوق الدواءَ في تهدئة الأعصاب. الدموعُ مفيدةٌ جداً للبالغين وللأولاد على السواء. فالولد يهدأ بالعادة بعد نوبة بكاءٍ عارمة.

٥- سنة ١٩٣٦ قطنتُ في بلغراد مع عائلة أفرادُها من أصل ألماني. كان الزوج ألمانياً والزوجة ألمانية أو سلوفاكية، وكان لهما في ذلك الوقت ولدٌ في الثانية من عمره لم يتعلَّم السيرَ بعد. وكانت [الأمُّ] تضعه في السرير على بطنه فيجهش بالبكاء. فسألتُها: "لمَ لا تحملينه قليلاً، فسيشعرُ بالارتياح بين ذراعيكِ؟" فأجابت السيدة: "آه، لا. لا أريده أن يعتاد على أن يبقى محمولاً لأنه سيتطلب عندئذٍ أن أحمله طوال الوقت ولن أعود قادرة على القيام بأي عمل". وقالت أيضاً: "إن البكاء مُفيدٌ لرئتيه، فكلما بكى زادَتا قوةً. سوف يتوقف عن البكاء". وهذا ما حدث. فقد بكى لفترة ثم توقف. لعبَ لبعض الوقت ثم بكى من جديد لوقت قصير ثم توقف. بعض الأمهات يحملن أولادَهنَّ بين ذراعيهن ما أن يبدأوا بالأنين فيُفسِدْنهم.

وتذكرتُ كيف كنت في طفولتي عليلاً جداً، ناقصَ النمو، فكانوا يحملونَني باستمرار على الأذرع ويتمشَّون بي. ما كنتُ أستطيع أن آكل أيَّ طعام مَقليّ حتى بلغتُ الثانية عشرة. كنتُ أصوم طوال الوقت ولم يكونوا يعرفون ما العمل معي! كانت جدتي تؤنِّبني حين تغضب [مني] ورغم ذلك ما كنتُ أستطيع أن آكل. وبعدها تبتدئُ أمي تقدِّم لي أشياء أخرى، وكان هذا الأمر يزعجني كثيراً. إن كثرة الاهتمام تُغيظ الأولاد. إذ يجب أن يعرف الأولادُ أن والديهم يحبونهم ولكن على الأهل ألا يخنقوا أولادَهم بكثرة المحبة. يجب أن يلقَّن الولدُ كيفيةَ التهيّؤ للحياة ولملكوت السماوات على السواء. يجب أن يتعلَّم كيف يصبح ابناً للنور.

٦- منذ ثماني سنوات أتاني رجلٌ كان يبدو عليه الحزن وعيناه تطفحان بالدموع فسألته: "ما الأمر؟" كان له ابنان أحدُهما طالبٌ في كلية الطب قد توقف عن حضور المحاضرات في جامعته طوال السنتين الأخيرَتين. لم يعد فيه أيُّ بريقٍ من الفرح وقد اختفت كلُّ إرادةٍ له بالحياة. كان الشاب مرتبكاً تماماً. فنصحتُه بألا يقلق وبأن يصطحب ابنَه كل يوم في نزهة إلى

جبل Avala، الواقع بالقرب من بلغراد وخصوصاً في أيام الأسبوع، إذ يكون الروّاد قليلين. كل ما في الأمر أن الشاب كان مُنهكاً ومرهَقاً بسبب كل الضغط الذي تعرض له في الجامعة. فسألني الوالدُ إن كان عليه أن يحضر ابنَه إليَّ فأجبته بأن ذلك ليس ضرورياً. وأضفتُ بأننا سوف نتحدث حين آتي إلى بلغراد.

وفي أحد الأيام التقينا من جديد أمام كنيسة القديس جاورجيوس في (Banovo Brdo) وهي من ضواحي بلغراد. وكان الشاب بصحة جيدة جداً وقد زال كلُّ أثرٍ لخموله أو كسَله. كان جسده بحاجة للأوكسجين من أجل تغذية الدماغ.

٧- وفي هذا الصباح بالذات أنتني سيدةٌ مع ابنها وقد سبق لها أن جاءت إلى هنا وكانت على الدوام تشتكي من كَنَّتها. فقلتُ لها: "كَنَّتكِ شابة وهي لا تفهم بأن عليها أن تحب حماتَها تماماً كما تحب والدتها. أما أنتِ فتكبرينها سناً وينبغي أن تفكري بكل هذه الأمور".

من الشائع في هذا العالم ألا تحبّ النساءُ كَنّاتهنَّ رغم كونهن فتيات صالحات للغاية. إذ تكون الحماة بالعادة غير راضية عن كنتها رغم أنها لا تُظهر ذلك. ولا تعرف الكَنَّةُ أن عليها أن تصلّي لكي يرسل اللهُ إلى حماتها ملاكاً يقود خطواتها ويمنحَها هي القوة حتى تحب حماتَها. بل تجدها عوضَ ذلك تواجه أفكارَ حماتها بردةِ فعلٍ معاكسة وتبدأ الحربُ.

أرأيتم كيف أن كل حربٍ مادية تبدأ بالأفكار؟ في البداية لا يستطيع الناسُ أن يحتملوا بعضهم البعض ثم يبدأون بتدمير بعضهم البعض.

في جميع الأحوال لم تكن هذه المرأةُ بقادرة على فَهم ما أحاول قولَه لها. كنتُ أرى بأنها تتألم كثيراً وأنها حزينة، فوجب أن أمضي وقتاً طويلاً معها. قلتُ لها: "على الأقل حاولي أن تفعلي هذا: حين تعاملُكِ كَنَّتُك بطريقة سيئة أُطلبي إلى الرب أن يرسل لها ملاكاً يُرشدها، واطلبي إليه أيضاً ألا ينساكِ. صلّي إلى الله طالبةً أن ينزع عنك هذا العبء حتى لا تكون لك أفكارٌ سلبية تجاه كَنَّتك وليس تجاهها وحسب بل وتجاه أيِّ إنسان أذنبَ

إليك يوماً. صلّي إلى الله لكي يمنحك القوة لتُحبّي كل الناس. وحين تصبح أفكارُك هادئة وسلامية ستجدين كيف تتغير الأمورُ فيما حولك. وسوف تتغير كَنَّتك هي الأخرى. أتعلمين بأنك تؤذينها الآن جسدياً كما لو كنتِ تضربينها؟ هذا ما تفعلينه طوال الوقت. لستِ بحاجة للتسبُّب لها بالأذى الجسدي، يكفي بأنكِ لا تستطيعين احتمالَ التفكير بها. وفي هذه الحال لا يكون هناك سلامٌ في بيتك. ولن يكون ابنُك – زوجها – في سلام هو الآخر. حاولي أن تحبّيها. أعلمُ بأن هذا الأمر صعب..."

ثم سألتُها: "ولكن هل تعرفين لمَ لا تحبينها؟" فأجابت بالنفي. قلت لها: "لأنها انتزعتْ منك ابنكِ. لم يعد لكِ كما كان في طفولته. من الطبيعي أن يلتصق الرجلُ بزوجته. كلُّ أمٍّ تودّ أن يتزوج ابنُها وتفرح بزواجه ولكنها أكثر مَن يتألم بعد ذلك. يصبح اهتمامُ الابن مُنصبّاً على زوجته ولا يُحيط أمَّه بنفس القدْر من العناية كما في السابق. عندها تبدأ حربُ الأفكار. بإمكانكِ أن تخوضي هذه الحربَ إلى الأبد ولكنك ستنهزمين في النهاية. حاولي أن تفعلي ما قلتُه لك وسترين كيف ستتبدَّل الأمورُ بسرعة كبيرة!"

٨- لقد انتقلت العدوى إلى جيل الشباب عندنا أيضاً وخصوصاً أبناءِ المثقفَّين. إذ لا يملك المثقفون وقتاً كافياً يخصِّصونه لأولادهم والنتيجة أن الأولاد يصبحون متشبِّثين برأيهم بدرجة كبيرة.

لقد ولدتُ قبل الأوان. وكرضيع، كنتُ غير مكتمِل النمو. كنتُ عاجزاً عن الأكل، فأرضعتْني أمي حتى عمر الثلاث سنوات. وفيما بعد لم أكن أستطيع تناولَ أيِّ طعامٍ مقلي. وحتى اليوم ما زلتُ لا أميل إلى تناول الحليب أو البيض. ولكن والديَّ وجَدا صعوبة كبيرة في إبعادي عن الحلويات التي كنت أتناولها بإفراط. ولم أتوقف عن تناول الحلويات إلا عندما بلغتُ الثانية والعشرين تقريباً. بإمكاني اليوم أن أقضم طعاماً سُكَّرياً من وقت لآخر ولكنها لم تعد تستهويني كما في السابق.

إنها لمشكلة أن يطلب الطفلُ أموراً كثيرة فيُلَبّي الأهلُ كلَّ نزواته. وما يحدث عندها هو أن الأولاد يكبرون وينتظرون أن يُلبّي الجميعُ طلباتهم. أرأيتم يوماً شيئاً مشابهاً؟ فحتى الملوك والملكات لا يتلقَّون معاملة كهذه!

ينال أولادُ المثقفين تحقيقَ كلِّ أمنيةٍ لهم في صباهم فينتهي بهم المطاف بألا يعرفون ما يريدون بعد ذلك؛ ويتحوَّل العديدُ منهم إلى عابدي الشيطان. لقد جرَّبوا كل شيء والآن ها هم يخدمون إبليس علناً! كما أن العديد منهم يُقدِمون على الانتحار – ليحفظْنا اللهُ جميعاً من هذه الخطيئة المُروِّعة! إنهم عاجزون عن عيش حياتهم لذا فلا يمكنهم الاهتمامُ بالآخرين أو تكوين عائلاتٍ لهم. لا يمكننا أن نتوقع لهم مستقبلاً زاهراً.

٩- كيف يعرف أهلُنا بأننا أولاد صالحون وأننا نُحبهم؟ عندما نحترمهم ونطيع أقوالهم.

١٠- يؤنب الأهلُ أولادَهم لأتفه الأمور، فكأنهم لا يعرفون كيف يتحدثون إليهم بمودةٍ وهدوء. فعندما يبتغي أحدُ الوالدَين أن يؤدِّب ولده يجب أن يشعر الولدُ بالمحبة من وراء القسوة. إنه لخطأ فادح أن نُعاقب الأولادَ مباشرة بعد اقترافهم ذنباً لأننا لن نحقق شيئاً بهذه الطريقة. علينا أن نهدأ أولاً وبعد ذلك نقولُ للولد بكثير من المحبة بأنه اقترف خطأً وعليه أن يتلقى

نوعاً من العقاب. فإن تكرَّر الأمرُ نفسه مجدداً وجب أن يتلقى الولدُ عقاباً أشدَّ، وبهذه الطريقة سيتعلَّم.

١١- كان من عادة سيدةٍ عجوز وجدّة أن تزورني بانتظام في الثمانينيات. وقد أخبرتْني بأن ابنها وكَنَّتها قد عابا عليها ارتيادَها الكنيسة وسألتْني ما العمل. فقلتُ لها: "يجب أن تحافظي على السلام في منزلك وضمن عائلتك بأيِّ ثمن. لن يستطيع أحدٌ أن يُخرِجَ الربَّ من قلبك لأنه موجودٌ فيه على الدوام. والمرء يتكلم بأكثر فصاحة بأعماله وبطريقة حياته مما بكلماته".

١٢- تعمل إرادةُ الله الإلٰهيةُ فينا من خلال والدينا أو من خلال أساتذتنا أو رؤسائنا في العمل. إن اضطررْنا إلى تصحيح سلوك الولد فيجب أن نقوم بذلك بكثير من الحب واليقظة. فإنه يكفي أن نفكر بتغيير حياةِ الولد حتى نكون قد وجَّهْنا إليه ضربةً بأفكارنا. لقد لاحظتُ ذلك خلال السنوات الطويلة التي أمضيتُها كرئيس دير. وما أكثر المرات التي كنت أرى فيها أحدَ الإخوة

يقوم بتصرفٍ غير مناسب، وحالما كنتُ أفكر بتأديبه كنت أشعر بأنني أوجِّه إليه ضربة!

بإمكان أفكارِنا أن تكون نفّاذةً إلى حد بعيد وذات طاقة عظيمة. والأمر صحيحٌ بشكل خاص عن أفكار الأهل. على الوالدَين أن يحتملا الكثيرَ ويُسامِحا على كل شيء. بإمكاننا أن نساعد الآخرين بشرط أن تكون أفكارُنا صالحة وودّية. فإن راودتْنا أفكارٌ عن تصحيح أخطاءِ الآخرين فذلك يُماثل ضربَهم. ومهما كانت قرابةُ الشخص إلينا فلسوف يهرب مِنا لأننا وجَّهنا إليه ضربةً بأفكارنا. ونحن نظن بأن أفكارَنا هي من دون قيمة!

١٣- كثيراً ما يكون الاتحادُ والتماسك مفقودَين في عائلاتنا لأن الزوجات والأمهات يَعصين وصيةَ الطاعةِ لأزواجهن. ولكن الله يريد أن يكون المتزوجون ذا فكرٍ واحد. فهنَّ بعصيانهنَّ وصية الله يخلقن جوّاً جَحيمياً في بيوتهنّ.

١٤- من الأهمية بمكانٍ وجود فردٍ في العائلة يمارس الصلاةَ الحقيقية. فالصلاة تجتذب نعمةَ الله ويشعر بها جميعُ

أفراد العائلة وحتى ذوي القلوب القاسية [منهم]. فصلّوا على الدوام.

١٥- يمكنكم أن ترَوا بأنفسكم كيف يستطيع المرءُ أن يخلق إما الانسجامَ أو التنافر داخل العائلة، بحسب نوعية الأفكارِ والرغبات التي تكون له. إن كان ربُّ البيت مُثقَلاً بالهموم والأفكار حول مشكلة ما فسيضطرب السلامُ في تلك العائلة ويصبح جميعُ أفراد العائلة مُحبَطين، لا سلامَ لهم ولا راحة. على ربِّ البيت أن يشعّ بالصلاح لجميع أفراد عائلته. هكذا تعمل "آلة الأفكار" عندنا.

حين كنتُ صغيراً كنت أجهل بأن علينا ألا نفكر أفكاراً سلبية عن أبينا الجسديّ أو الروحي على الإطلاق. يجب ألا نؤلمَهما حتى في أفكارنا. لم أكنْ أعلم في ذلك الحين أن الإساءة إلى الآخرين لها مِثل هذه التَّبعات السلبيَّة علينا جميعاً. لقد عانيتُ كثيراً لأني آذيتُ والدِي في أفكاري ومهما تُبْتُ فلن يكون ذلك كافياً. كان والدي رجلاً هادئاً، متواضعاً، وودوداً مع الجميع بشكل لا يصدَّق. لم يمرضْ مرةً في حياته لأنه كان في

سلام على الدوام، وكانت أعضاؤه الداخلية تعمل من دون توتّر. كان ينظرُ إلى حياته بأكملها وكأنها تمرّ على شريط. حين كان يتعرَّض للإهانة لم يكن يحمل ذلك في قلبه قط، فقد كان رجلاً هادئاً ومتواضعاً. يا ليتني ورثتُ عنه طِباعَه.

١٦- في أحد الأيام جاءت فتاةٌ لتراني. كان والداها كلاهما طبيبَين. حضرتْ إلى فيتوفنيكا وسألتني عن أمور كثيرة. كانت تحب والدَها كثيراً دون والدتها. وحين سألتُها عن السبب أجابت بأن والدتها أرادتْ دوماً أن تُنجب صبيّاً... رجوتُها ألا تشنَّ حرباً على والدتها التي غذَّتها في رحمها وولدتْها وربَّتها... والآن أصبحت هذه الشابةُ تعزيةَ أمها الوحيدة في الحياة. لقد فرَّتْ مرتين من المنزل إلى أحد الأديار ولكن والدها أعادها. قلتُ لها بألا تُحزِنَ والديها وأن تتحلّى بالصبر، إذ بإمكان المرء أن يكون راهباً حتى من دون الثوب. فالله لا يطلب منا أن نرتدي ثوبَ الرهبنة بل يريدنا أن نكون صالحين ولطفاء.

١٧- نحن نعاقب أولادَنا ولكننا في الحقيقة لا نملك الحق بذلك لأننا قد فشلنا في توفير التربية الملائمة لهم. منذ مدة

راسلتني امرأةٌ طبيبة، وكتبت تقول: "زوجي أيضاً طبيب، ولنا ولدٌ وحيد. لقد حطّم ابنُنا حتى الآن ثلاثَ سيارات، وأشكر الله أنه ما زال حياً. وهو الآن يريدنا أن نبتاع له سيارة أخرى ولكننا لا نملك المال لذلك. حين نعود إلى البيت من العمل يحاول ابنُنا أن ينتزع منا المالَ بالقوة. ماذا أفعل لحلِّ هذه المشكلة؟"

قلتُ لها إن اللوم يقع عليهما وحدهما (هي وزوجها)، فقد رُزقا ولداً وحيداً حقَّقا له منذ طفولته الأولى كلَّ نزواته. عندما كان صغيراً كانت متطلباته صغيرة؛ أما الآن وقد كبُر فقد كبرت متطلباتُه أيضاً. الأمر الوحيد الذي يمكنهما القيام به الآن هو أن يعاملا ابنَهما بكثير من الحب والرعاية حتى يعود إلى رشده ويُدرك بأن والديه لا يفكران سوى بمصلحته. ليس هناك من سبيل إلا سبيل الحب. من هذا المَثل بإمكانكم أن تُدركوا كيف نستطيع أن نُحسِّن حياتَنا وحياةَ القريبين منا بأفكارنا. وهذه هي أمنيتي لكم أن تفلحوا في هذا.

١٨- هل ترون عِظَمَ قدرةِ الوالدَين الجسديَّين والأبِ الروحي؟ ما أكثر المرات التي رأيت فيها توقعاتِ الوالدَين الجسديين والأبِ الروحي تتحقق في حياة أبنائهم.

أذهلني مرة كيف قتل والدان تقيّان ابنَهما بأفكارهما. كان ابنهما الوحيد شاباً تقيّاً ترعرع في الإيمان منذ طفولته الأولى. كان كالملاك وذا طيبةٍ يَصعب تصديقُها. في أحد الأيام قدِمتْ إليه فتاةٌ من بلدته تطلب نجدته: فقد حَمَلتْ من شخص آخر وأرادت من ذلك الشاب أن يتزوجها لأن والديها وإخوتَها كانوا متشددين للغاية. وإذ بدأ حَمْلُها يظهر للعيان لم يعد أمامها من حلٍّ آخر سوى الانتحار.

وقد وافق الشابُ على توقيع عقد الزواج هذا واتفق مع الفتاة بأن يذهب كلٌ منهما في سبيله ما أن يولد الطفلُ ويصبح قادراً على المشي. ولكن هذا الأمر انتشر بسرعة وأصبح معلوماً عند الجميع لأن البلدة صغيرة جداً. ولم تستطع والدةُ الشاب أن تحتمل العار. فقال لها الوالدُ إن هذه هي حياة الشاب وليست حياتَها هي ولكنها لم تكن تقتنع بل راحت تقول: "لا أريد أن أراه

حيّاً!" وهذا ما حدث بالضبط. فقد قُتل الشابُّ بعد ذلك في اصطدامِ دراجةٍ نارية. وفيما بعد جاءت إليَّ الوالدةُ وهي مصابة بالذهول فقلت لها: "أنتِ قتلتِ ابنَكِ بنفسك. إن أفكار الإنسان قوية جداً. أنتِ قلتِ إنكِ لا تودّين رؤيتَه حياً، وهذا ما حدث".

أحياناً يكون أهلُنا مخطئين، ولكنهم على حقّ فيما يختصّ بنا، نحن أولادهم، وعلينا بطاعتهم. وعندها ستحلُّ علينا بركتُهم.

١٩- من الواضح أن كل الأبواب تُفتح لمن يُحبّون. وحتى في وسط الحروب حيث تُزهَق الأرواح باستمرار، يحفظ الربُّ بأعجوبة الذين يُحبون والديهم، الجسديين والروحيين على السواء. لو كان لنا هذا الحبُّ لوالدينا لما كان العالمُ على ما هو عليه الآن. لا يمكننا الآن سوى أن نصلّي والربُّ سيعيننا ويقوّينا.

٢٠- الرب يفتح لنا الطريق. إنه يكشف إرادتَه لنا. وكثيراً ما تُكشف لنا إرادتُه من خلال أبوينا. فإن أطعْناهُما يكون كلُّ شيء على ما يرام ونكون مبارَكين. أما إذا عارضْناهما فلن

تكون أمورُنا على ما يرام. ستستمرّ الحياة ولكن إلى الخلف في أغلب الأحيان. وعلى سبيل المثال أنتَ تقعُ في حبِّ إحدى الفتيات وتودُّ الاقتران بها ولكن والدَيك ينصحانك بخلاف ذلك قائلَين إنها لا تناسبك، ويُعلنان استعدادهما للبحث عن عروس أخرى لك. ولكنك ترفضُ ذلك، فقد استعبدك الشيطانُ، ولا تعود تستمع إلى نصيحة أحد. فتتزوج الفتاةَ وفي البداية يكون كلُّ شيء مثالياً. وبعد فترة تسأمان الواحدُ من الآخر وتموت العلاقة.

أفضل الزيجات هي التي دبَّرها الأهلُ لأولادهم، وحين لا يكون فارقُ العمر كبيراً جداً بين الشاب والفتاة. لا يكون للزوجَين أية مخططات للمستقبل، فيعقدان إكليلَهما بمباركة أهلِهما وكلُّ شيء يكون على ما يرام. ليس الزواج سريراً من الورد! إنه على العكس حياةٌ مريرة. حين تكون متزوجاً تكون مُسرَجاً للحراثة وعليك أن تجرّ وتتوالى عليك الضربات. الأولاد يحتاجون لرعايتك وعليك أن تلبّيهم. يجب أن تجرَّ المِحراث، أردتَ ذلك أم لم تُرِدْ. حين كنتَ عازباً كنتَ تفكر بطريقة أخرى. أما الآن فعليك ألا تفكر بنفسك فقط بل بالآخرين أيضاً.

٢١- كانت هنالك امرأةٌ طيبة ولطيفة ولها ولدان وكانت تعلِّمُهما دوماً أن يحترما والدَهما رغم أنه لم يكن أباً صالحاً لهما بكل معنى الكلمة. فقد كانت تقول إن هذه هي الطريقة لنَيلِ برَكةِ الله. وقد أصبحا الآن رجلَين بالغَين ولا يسمحان لأحد بأن يُسيء إلى والدهما بكلمة واحدة. لقد كانت طفولتُهما صعبة ولكن برَكَة الله حلَّتْ عليهما وهما ممتلئان من الحياة ويشكران الله كثيراً.

لقد منحَنا اللهُ عطيةَ الحياة من خلال أبوينا، ولسوف يُقدِّمان حساباً عن تصرّفهما معنا. وأما نحن فلن نقدِّم حساباً عنهما، بل سيكون علينا أن نُعطي حساباً عن أمر واحد: إن كنا أدَّينا لهما الاحترام أم لا. الوضع في عائلاتنا الآن سيءٌ جداً لأن كل طفل يعارض أبوَيه ويُجيبهما بقلَّةِ احترام. لهذا تسير الأمورُ على نحوٍ سيء بالنسبة إلينا. لم يعد الحديثو السنّ يحترمون والديهم وهذه هي الحالُ في جميع أنحاء العالم.

٢٢- روَتْ إحدى زائرات الأبِ تداوس هذه الحادثة: "سألتْ سيدةٌ عجوز الأبَ تداوس ما عليها أن تفعل لكي يصبح أحفادُها مؤمنين. فأجابها: 'لتكن جدَّتُهم وديعةً وطيبة على

الدوام. ولا تَغْضَبنَّ أبداً ولتكُنْ على الدوام سعيدة. لتُطِع الجميعَ بما أن لا أحد سيُطيعها. وقد لا يصبح الأحفادُ مؤمنين ولكنهم سيتذكَّرون جدَّتَهم في أحد الأيام ولسوف تجعلُهم ذكراها أشخاصاً أفضل"".

٢٣- بسبب سقطة الإنسان أصبح نظامُ الأمور الطبيعيُّ فوضوياً. في الطبيعة نظامٌ لكل شيء أما مع البشر فهنالك الفوضى. كل شيءٍ مشوَّه ومعكوس. وقد فقدْنا النظامَ الطبيعي بسبب عِصياننا لوصايا أبينا السماوي. ولكي نُعيد هذا النظام علينا بممارسة العِفَّة.

العفَّةُ للجميع لا للرهبان فقط. والرجال والنساء الذين ليس الزواجُ لهم سوى إشباع للملذات الجسدية لن يكونوا مُبرَّرين. سوف يعطون حساباً لله لعدم عِفّتهم. ولا شك بأنهم يجب ألا يمتنعوا أحدهم عن الآخر لوقت طويل لئلا يجرِّبهم إبليس - كما يقول الرسول - ولكن ينبغي أن يمارسوا الإمساك بالتراضي (راجع ١ كور ٧: ١-٦). على المتزوجين أن يمتنعوا عن العلاقات الجسدية خلال الأصوام وفي أيام الأعياد الكبيرة.

٢٤- من السَّهل أن يقلب المرءُ الجنَّةَ إلى جحيم. منذ سنوات قليلة حدثت حالةٌ مثيرة للاهتمام: فقد جاءني زوجان كان من الواضح أن الله أنعمَ عليهما بجمال باهر. لم أكن قد رأيتُ في حياتي زوجَين أكثر وسامةً منهما. كان الطقس بارداً وكنا قد أقمْنا القداسَ الإلٰهي في الكنيسة الصغيرة. وعند انتهاء القداس أبديا رغبتَهما بالتحدث إليّ قائلَين: "نحن نواجه بعض المشكلات". فأنصتُّ إليهما بإمعان، فإذا بهما قد اقترنا ببعضهما عن حبٍ وعاشا بعض السنوات في انسجام وسلام وكان الجو المخيّمُ على عائلتهما يماثل الجنة.

ومنذ عهد قريب بدأا يتشاجران لأتْفهِ الأسباب وفُقد السلامُ في عائلتهما. وأسوأ ما في الأمر أن لهما ولداً في السادسة من عمره، وهو السبب الرئيسيّ الذي جعلَهما يأتيان إليّ. قالا إن الصبي قد نَفَرَ منهما تماماً ويرفض التحدث إليهما. ولا يودّ سوى البقاء مع جدَّيه. قالا لي: "نحن نبتاعُ له كلَّ ما يريد، ولكنه يلازم الصمت على الدوام. نبتاع له الألعابَ والملابس والحلوى فينتزعُها منا ويمزِّقها أو يرفسها. ثم يتركُنا ويذهب إلى جدَّيه. لا نعلم ما العمل. وفي كل ما عدا ذلك تجدُه

ولداً عادياً وطبيعياً. إنه يرفض التعامل معنا كلياً، نحن والدَيه. لمَ يحدث كل هذا؟"

قلت لهما إن من الواضح أن الصبي لا يريد أبوَين مثلهما. إنه يبحث باستمرار عن أمه وأبيه ولكنه لا يجدُهما. وقلتُ لهما: "كنتما سعيدَين لأنكما حُزتما على بَرَكة أهلكما، فهم لم يعارضوا زواجكما؛ بل على العكس فقد دبَّروا زواجكما حتى من قبل أن تلتقيا. وهكذا نِلتُما برَكةَ أهلِكما وتزوَّجتما عن حب، وكان السلام يخيِّم على زواجكما، وكان منزلُكما كالفردوس. أما الآن فقد فسد كلُّ شيء – بسبب أفكاركما. لقد بقيتما حتى وقت قريب مُكتفيَين بما عندكما ولم تقعا بالهلوسات. أما الآن فأنتَ تنظر إلى نساءٍ أخريات بشهوة وتعطي قلبَك لتلك النساء. زوجتك تنظر إلى رجال آخرين وتعطيهم قلبَها. والآن تجتمعان بالجسد فقط وليس بالروح، فذهناكُما يَشردان في اتجاهَين مختلفَين. وأشكر الله أنكما لم تقوما بأيِّ خطوةٍ خارج حدود نذور زواجكما. ابنُكما يشعر بكل هذه الأمور وهو لا يريد أبوَين مثلكما لأنكما لم تنحرفا عن بعضكما البعض وحسب، بل قد ابتعدتُما عنه أيضاً. لقد خلقتما الجحيمَ في منزلكما بأفكاركما... من المؤلم جداً أن

يكون لنا أمٌّ وأبٌ ولا يكون لنا في الوقت نفسه". وأضفت: "عودا إلى بعضكما البعض وإلى الحالة التي كنتُما عليها في السابق وعندها يعود كلُّ شيء حسناً".

الفصل الثالث

في التواضع

١- كنتُ شديد الحماسة لمعرفة نوعية حياةِ الذين يخدمون اللهَ من كل قلوبهم. فحين كنتُ أصغر سناً كنت أحبّ أن أقلّب صفحات مؤلفات الآباء القديسين ورأيت حالتَهم الداخلية التي وصفوها بأنفسهم. نحن في الحقيقة نعيش الحياةَ من الخارج ونشاهد سيلَ الحياة يمرّ عابراً. ولكن الحياة الداخلية تختلف بين الشخص والآخر.

اعترتني رغبةٌ في اكتشاف المزيد عن الحياة الداخلية للذين عاشوا حياةً مثالية هنا على الأرض ومجَّدهم اللهُ هنا وفي الحياة الأبدية على السَّواء. وعندها أدركتُ ما شرحه الآباءُ القديسون أيضاً: أن كمال الحياة المسيحية هو في التواضع الأقصى.

٢- على المرء أن يبشِّر [الآخرين] ليس من عقله بل بالحري من قلبه. وحده ما يأتي من القلب يلمس قلبَ الآخَر.

على المرء ألا يهاجم أو يعارض أحداً على الإطلاق. فعلى الذي يبشِّر وينصح الناسَ بالابتعاد عن شرٍّ ما أن يقوم بذلك بوداعةٍ وتواضع وبخوف الله.

٣- ينبغي أن نتألم كثيراً في قلوبنا ريثما نكتسب التواضع. والرب واقفٌ على الدوام إلى جانبنا، يسمح بأن نشعر بالألم تحت ضُلْعِنا الأيسر لكي تخرج كلُّ النتانة. وأما نحن فلا نقول سوى: "فلانٌ جرحَني في القلب تماماً. وهذا لا يُغتفَر!" فكيف يمكننا ألا نغفر ونحن نُشابه ذلك الشخص؟ فكم من المرات آذينا إخوتَنا البشر؟ في الحقيقة علينا أن نتعلَّم أن نحافظ على سلامنا. ولكنكَ لن تتعلَّم التواضع إلا بعد أن تتألم كثيراً في قلبك.

يقول الآباء القديسون إننا إن لم نتَّضع فلن يتوقف الربُّ عن محاولاته لجعلنا نتواضع مستعملاً أحدَ الأشخاص لذلك. فسوف يُثير أحدُهم غضبَنا ويستمر في ذلك حتى نتعلَّم أن نبقى هادئين وسلاميّين عندما نتعرَّض للاستفزاز. وحين نتمكن من المحافظة على هدوئنا عندما يهاجمنا أحدُهم من كل الجهات،

وحين نتمكن من الاحتفاظ بسلامنا الداخلي رغم فظاظة ذلك الشخص، عندها تصبح روحُنا وديعة ومتواضعة، وعندها نعيش هذه الحياة ونحن نفهمها فهماً كاملاً. حينذاك سيقول لنا جيرانُنا: "لقد تغيَّرت. كنتَ ذا طبع ناريّ، أما الآن فكأنك أصبحتَ هادئاً وعديم الانفعال". ولكننا لم نصبح عديمي الانفعال بل، وعلى الأصحّ، إنَّ الغلبة على الشرّ تظهر بهذا الشكل.

٤- الإنسان سرٌّ عظيم. وكثيراً ما نندهش أمام هذا السرّ ونعجب كيف تعمل أجسادُنا من دون إرادتنا. فليس في هذا الكوكب كلِّه من مؤسسة أو منظمة يمكنها أن تعمل بإتقانٍ كامل مثل الجسم البشري.

والله سرٌّ لكلِّ الكائنات. والله فينا، ولذا فنحن أيضاً سرٌّ حتى لأنفسنا. الله لا يكشف ذاته سوى للودعاء والمتواضعين. هو حاضرٌ في كل مكان، وهو سرٌّ. قد نعرف القليل عنه أو نلملم بعض المعرفة من الطبيعة، ولكننا نبقى في معظم الأمور محوطين بالأسرار.

الإنسان الوديع والمتواضع يتقدَّم في المعرفة.

٥- لاحظوا تصرّفَنا نحن البشر: ما أن يتغّير مزاجُنا حتى نتوقف عن التحدث بمودَّة إلى إخوتنا، بل نُجيبهم بحِدَّة. ونحن بهذا نزيد الطين بلَّة. وحين نكون مُستائين يصبح الجوُّ بيننا مُكفهرّاً بالكليّة فنبدأ بالإساءة إلى بعضنا البعض. مهما قال لنا الناسُ ومهما فعلوا معنا علينا أن نكون ودعاء ونغفر كلَّ إساءة.

٦- نظن بأننا نعرف الكثير ولكننا لا نعرف سوى القليل جداً. وحتى الذين عملوا كلَّ حياتهم جاهدين لتحقيق تقدُّمِ الجنس البشري – أولئك العلماء الواسعو المعرفة والأشخاص الحائزون على العلوم العالية – كلُّهم يدركون في النهاية أن كل معرفتهم ليست سوى حبَّةِ رملٍ على الشاطئ. كل إنجازاتنا هزيلة.

٧- التواضع ميزة إلٰهية، وهو كمالُ الحياة المسيحية. نبلغُه بالطاعة. من لا يطيع لا يستطيع أن يبلغ التواضع. في العالم اليوم قلةٌ قليلة من المطيعين. تواضعنا هو في نسبة طاعتِنا.

إن بلوغ التواضع الجسدي، الخارجيّ والظاهري، لأسهلُ من التواضع الداخليّ، تواضعِ الذهن الذي هو عطيةٌ استثنائية. قال أبونا القديس سمعان [اللاهوتي الجديد] إن الإنسان الذي بلغ تواضعَ الذهن لا يمكن أن يؤذيه شيءٌ على الإطلاق[١٩]. إنه يبقى في سلام على الدوام وفي كل الظروف. إنها بالفعل ميزة إلٰهية.

وللكبرياء أيضاً درجات، كما للتواضع. فالكبرياء الخارجيةُ والظاهرية هي أسهل للشفاء أما كبرياء الذهن فاستئصالُها شِبهُ مستحيل. إذ لا أحد يستطيع أن يبرهن لشخصٍ من هذا النوع بأنه على الطريق الخطأ. أما الكبرياء الخارجية والظاهرية فهي قابلة للشفاء لأن المرء يمكن أن ينتقل من الملابس الفاخرة إلى الأسمال في غمضة عينٍ، ولسوف يتواضع شاءَ ذلك أم أبى.

---

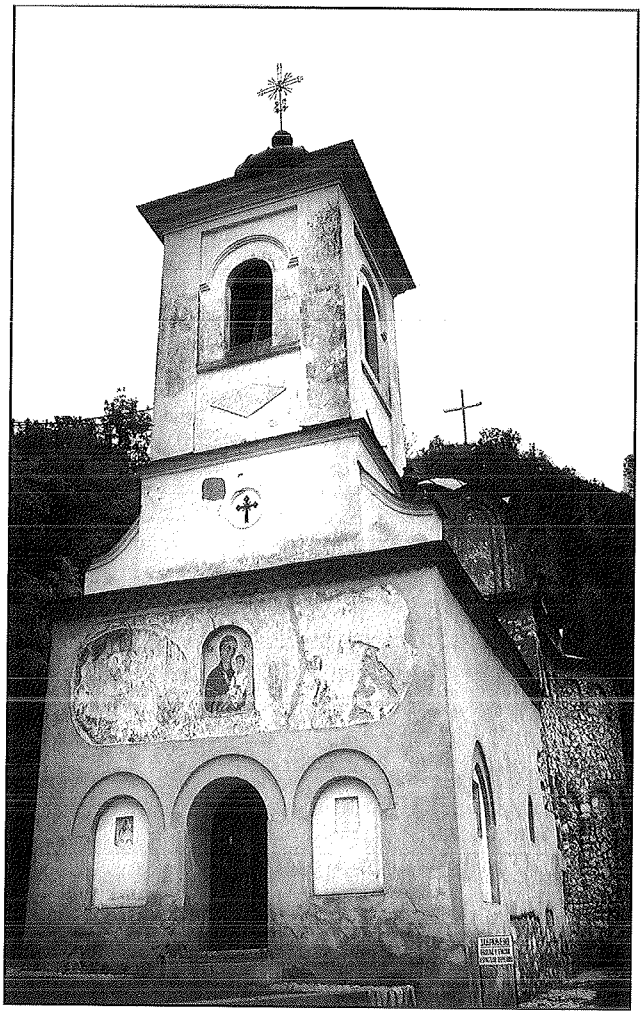
[19] - St. Symeon the New Theologian, *Catechetical Discourses 31,* in *Symeon the New Theologian: The Discourses* (New York: Paulist Press, 1980), p. 330.

٨- الوداعة تعني القلب المتواضع والسلاميّ. الأطفالُ ودعاء. لهذا يقول الرب: "إن لم تعودوا كالأطفال لن ترثوا ملكوتَ السماوات" (راجع متى ١٨: ٣). المتكبِّر مُستاءٌ على الدوام، لا يُرضيه شي، فكلُّ شيء يُضايقه. وهو يتبع مشيئته الذاتية. علينا أن نطيع مشيئةَ الله لكي نتعلَّم التواضع والوداعة ما دمنا في هذه الحياة، ما دام لنا الوقت. القلب المليء بالحب لا يفكر بنفسه بل بالآخرين. إنه يصلّي من أجل كلِّ الكائنات الحيَّة ومن أجل العالم أجمع.

٩- يقول الآباء القديسون إن مَن يملك الوداعةَ منذ ولادته قد حصل على مكافأته، ولكن مكافأته لن تكون بعِظَم مكافأة مَن وُلِدَ حادَّ الطبع وتعلَّم الوداعةَ بتواضعه. مثل هذا الشخص سينال حقاً مكافأةً جليلة.

١٠- **سؤال:** كيف يمكننا أن نعتبر أن المادة المخلوقة أفضل مِنا في حين أن الله قد أسبغ علينا ذهناً عاقلاً ودعانا أبناء له؟

جواب: إن وضعتَ يدك على قلبك وأنت صادقٌ بالكلية مع نفسك فسوف تُدرك أنك بالحقيقة أقل شأناً من الكثير من الأشياء المخلوقة. أنظر إلى النحلة كم هي نشيطة في عملها! وهي تعطي من نفسها بدون تحفظ وبدون شحّ. فالنحلة تعيش بمعدل شهرٍ ونصف بالأكثر. وكثيراً ما تموت وهي تعمل، ومن دون أن تعود إلى بيتها، القفير. وأما نحن فكم نُشفق على أنفسنا ونضنّ بجهودنا! أو فانظر إلى النملة التي لا تتعب مطلقاً من جرِّ أحمال ثقيلة. وحتى حين يسقط حِملُها فإنها تلتقطه بصبر وتتابع عملها. أما نحن فإننا نستسلم في الحال إنْ لم تسر الأمورُ كما نريد!



كنيسة رقاد السيدة العذراء والدة الإله في دير فيتوفنيكا الذي أمضى فيه الشيخ تدّاوس السنوات الأخيرة من حياته.

الفصل الرابع

في خدمة الله والقريب

١- كنت دائماً أرغب بشدة بخدمة الله، وحتى في طفولتي. وعرفتُ حتى في ذلك الحين أنَّ كل شيء هنا على الأرض هو نوع من الخدمة. فالأهل يَعتنون بأولادهم والأولادُ يعتنون بأهلهم. كلُّ إنسانٍ يخدم شخصاً آخر. عندها قررتُ بأني أريد أن أخدم الله. وبما أنه أبُ البشرية جمعاء وكلِّ الكون فعلى الإنسان أن يخدمه هو، الأعظمَ من الجميع. وقد رغبتُ كثيراً في القيام بذلك في طفولتي. وحين كبرتُ أدركت بأني لن أستطيع أن أخبر والديَّ - لأنهما لن يمنحاني برَكَتَهما قط - ومع ذلك فقد دخلتُ إلى الدير حين أصبحت راشداً.

كانت والدتي قد رقدتْ بالربِّ منذ وقت طويل وأما والدي فكان ما يزال على قيد الحياة، وقد عارضَ الأمر. ومع ذلك فقد أخبرته برغبتي في اعتناق الرهبنة وطلبت برَكَتَه. وأشكر الله أنه منحني هذه البَركة.

٢- علينا أن نُحامي عن بعضنا البعض، فنحن إخوةٌ، وخصوصاً نحن الذين على إيمانٍ واحد. والتاريخ يعطينا مثلاً على ذلك. فقد أُرسلتْ يوماً بعثةٌ رسمية من وُجهاء القسطنطينية للتفاوض مع المُسلمين حول السِّلْم. فاحتجَّ المسلمون بأن المسيحيين قد خالفوا وصية الله وقالوا: "لمَ تخالفون أيها المسيحيون وصيةَ المسيح بأن تُحبوا أعداءكم، فتضطهدوننا وتقتلوننا؟"

وكان في تلك البعثة رجلٌ يدعى كيرللس، فأجاب المسلمين بالقول: "إنْ كانت هناك في شريعة ما وصيتان يجب تطبيقُهما فأيهما يكون بارّاً أكثر: الذي يطبّق الوصيَّتين أم الذي يُطبِّق واحدةً منهما فقط؟" فأجاب المسلمون: "هو بالطبع مَن يطبِّق الوصيَّتين معاً". وعندها قال كيرللس: "نحن كأفرادٍ نسامح أعداءنا، ولكننا كجماعة نبذل نفوسَنا عن بعضنا البعض، فقد قال الربُّ: ليس هناك من حبٍ أعظم من أن يبذل أحدُهم نفسَه عن قريبه. نحن كجماعة نَحمي بعضنا البعض ونبذل نفوسَنا عن بعضنا البعض. فأنتم لا تهدفون إلى استعبادنا جسدياً

وحسب بل تسعَون إلى استعبادنا روحياً أيضاً، ولهذا السبب نحن ندافع عن أنفسنا. فهذا إذن أمرٌ مُبرَّر".

ولدينا أيضاً مَثَلُ القديس إيوانيكيوس الكبير الذي كان جندياً طوال عشرين سنة. وكان مذهلاً إذ ما خاض معركةً من دون أن يربحَها. لم يُهزَم مرةً في حياته. لم يفكر يوماً بحياته بل كان يبذل نفسَه من أجل الآخرين. وقد حفظَه الربُّ. ثم حين أصبح راهباً باتَ قديساً عظيماً وصانعاً للعجائب. والجنودُ القديسون كُثُر. ويقول القديسُ الملك داود: "طوبى للذين غُفِرتْ ذنوبُهم وسُترت خطاياهم" (مز ٣١: ١). إن البِرَّ لا يعمل أبداً لمصلحته الخاصة بل لمصلحة الآخرين.

٣- كلُّ عملٍ نقوم به هنا على الأرض هو عملُ الله. ولكننا نعمل دائماً بتحفظ ومن دون صدق. لا يعجزُ الله عن احتمال ذلك وحسب بل ولا بشرٌ يمكنه احتماله أيضاً. نحن نعلم بأن الكون مِلْكٌ لله وأن الأرض كوكبُ الله وأن كل شيء مِلكٌ لله، مهما كان نوعُ العمل الذي نقوم به.

كلُّ إنسان سيعطي حساباً، سواء كان صالحاً أم لا، مؤمناً أم غير مؤمنٍ، متفانياً في عمله أم لا. علينا ألا نفكر كثيراً في مَن هم رؤساؤنا [في العمل] أو من هو مُستخدِمُنا. بل يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كل عملٍ على هذه الأرض وفي الكون كله من أي نوع كان هو عملُ الله، ويجب أن نقوم به على هذا الأساس من كل قلبنا ومن دون أي تحفظ. عندها نتحرَّر من معاندتنا الداخلية، وكلُّ عمل نقوم به سوف يعود بالنَّفع على قريبنا، بِدأً بعائلتنا أينما كُنّا. لذا علينا أن نتحلّى بالصدق في كل حين. وعندها سنشعّ بالسلام والهدوء والمحبة وسنصبح بالمقابل مَحبوبين. بأفكارنا يمكننا أن نجتذب أعداءنا وأصدقاءنا وعائلتنا وجيراننا، أو نَصُدَّهم. ولكن الناس يستخفّون بهذا الأمر بالعادة، ويتألمون كثيراً بنتيجة ذلك.

٤- إن اعتماد الصرامة في معاملة القريب لأمرٌ خطير. والمرء الصارم لن يتقدَّم سوى إلى نقطة معينة فقط ولسوف يبقى على مستوى الإمساك الجسدي فقط. على المرء أن يكون لطيفاً ووديعاً ورحيماً في علاقاته مع الآخرين.

٥- لو وُجد في كل عائلة شخصٌ واحد فقط يخدم الله بحَميَّة فأيُّ انسجام وتناغم كان ليسود في هذا العالم! كثيراً ما تعود إلى ذاكرتي قصةُ الأخت ج. التي كثيراً ما كانت تأتي وتتحدث إليَّ حين كنتُ ما أزال في دير (Tumane). وقد حضرت مرة برفقة مجموعةٍ منظَّمة من الحُجّاج واشتكتْ قائلة: "لم أعد أحتمل هذا! فالناس قساةُ القلوب تجاه بعضهم البعض!" وتابعتْ بأنها سوف تبحث عن عمل جديد. فنصحتُها بألا تفعل ذلك لأن فرص العمل قليلة ونسبةَ البطالة عالية. وقلتَ لها بأن توقِفَ الحرب التي تخوضها ضد زملائها في العمل، فأجابت: "ولكني لا أقاتل أحداً!" فقلتُ لها بأنها، وإن كانت لا تقاتل جسدياً، إلا أنها تخوض حرباً ضد زملائها في أفكارها لكونها غير مرتاحة لوظيفتها. فحاججتني بالقول إن الأمر يتخطى حدودَ احتمالِ أيِّ بشريٍّ، فأجبتُ: "بالطبع. ولكنكِ لا تستطيعين القيام بذلك لوحدك. أنتِ بحاجة لمعونة الله. لن يعلم أحدٌ ما إذا كنت تُصلّين وأنتِ في العمل. فحين يبدأون بالإساءة إليكِ، لا تردّي إساءاتهم لا بالكلام ولا بأفكار سلبية. حاولي ألا تؤذيهم ولا حتى بأفكارك. صلّي إلى الله لكي يرسل إليهم ملاكَ سلامٍ، واطلبي

إليه أيضاً ألا ينساكِ. لن تكوني قادرة على القيام بذلك حالاً، ولكن إن صلَّيتِ على الدوام بهذا الشكل فسترَين كيف ستتغيَّر الأمورُ مع الوقت ويتغيَّر الناسُ أيضاً. في الواقع، أنتِ أيضاً ستتغيَّرين". ولم أكن أعلم في ذلك الحين إن كانت ستكترث لنصيحتي.

حدث ذلك في دير (Tumane) في العام ١٩٨٠. ثم أُرسِلتُ إلى دير فيتوفنيكا سنة ١٩٨١. وإذ كنتُ جالساً تحت شجرة السفرجل لاحظتُ وصول مجموعة من الحُجّاج، وكانت في المجموعة. فاقتربتْ مني لأخذ البركة وهذا ما قالته لي: "آه يا أبتِ، لم تكن لديّ أيةُ فكرة كم أن الناس طيّبون!" فسألتُها إن كانت تقصد بالكلام زملاءها في العمل فأجابت بالإيجاب وقالت: "لقد تغيَّروا كثيراً يا أبتِ. الأمر لا يُصدَّق! لم يعد أحد يؤذيني، ويمكنني أن أرى التغييرَ في نفسي أيضاً". فسألتُها إن كانت في سلام مع الجميع، فأجابت بأن هناك شخصاً واحداً بقيتْ وقتاً طويلاً من دون أن تتسالم معه. وفيما بعد إذ كانت تقرأ الإنجيل وصلتْ إلى المكان الذي يوصينا فيه الرب بأن نحب أعداءنا، وحينذاك قالت في نفسها: "سوف تحبّين هذا الشخص شئتِ أم

أبيتِ لأنه هكذا يوصينا الربُّ". وها هما الآن من أفضل الأصدقاء!

لو وُجد مثلُ هذا الشخص في كل شركة وكلِّ مصنع وكل مكتب! لكان هذا السبيلَ إلى السلام. المطلوب شخصٌ واحد فقط مرتبط بالله بالصلاة، ولسوف يحلُّ السلامُ في كل مكان: في العائلة، وفي العمل، وفي الحكومة، وفي كل مكان. وسوف نتحرَّر من الأفكار المُكفهرَّة والثقيلة حين نكون برفقة مثل هذا الشخص.

٦- عندما نتحدث إلى إخوتنا البشر يقصّون علينا مشكلاتهم فإننا نصغي إليهم بإمعان إن كنا نكنُّ لهم المحبة. ولسوف نشعر بالتعاطف تجاه معاناتهم وألمِهم لكوننا مخلوقات الله. نحن تعبيرٌ عن محبة الله. ولكننا كثيراً ما نعتبر ذلك حِملاً ثقيلاً علينا لأننا نحن أيضاً نَنوء تحت همومنا الذاتية وضيقاتِنا وضعفاتنا. نحن بحاجة لنرتاح من كل هذه الهموم، ولكن وحده الله يمنحنا الراحة. إنه رافِعُ كلِّ إعاقاتنا وضعفاتنا. فيجب أن نتوجه إليه بالصلاة على الدوام. هذا هو مصدر تعزيتنا الوحيد.

وعندها سنرتاح من أثقالنا ومن أثقال إخوتنا على السواء لأننا سنكون قد حملناها كلَّها إلى الرب.

كلما زِدْنا اهتماماً بهموم قريبنا ومشكلاته تصبح همومَنا ومشكلاتنا. وللحال تصبح أفكارُنا منشغلة بها.

إن أصغَينا إلى قريبنا مولين إيّاه نصفَ اهتمامنا فقط فلا شكّ بأننا سنعجز عن إعطائه جواباً أو تعزية... قد نستمع إليه من دون تركيز وندعُه يتكلم ولا نشارك في الحوار لأننا غارقون في أفكارنا. ولكن إن كنا نوليه كاملَ اهتمامِنا فسنأخذ على عاتقنا حِملَه وحِمْلَنا على السواء.

٧- إن كان حِملنا يفوق مقدرتنا على الاحتمال فلنتوجَّهْ إلى الرب مباشرة قائلين: "يا رب، إني أعجز حتى عن حَمل إعاقاتي الذاتية، والآن عليَّ أن أحمل عبءِ فلان أيضاً. لا أستطيع أن أقوم بكل هذه المسؤولية. إني أعجز عن القيام بهذا بمفردي، وبما أني لا أشعر بالرغبة بذلك فإن كل ذلك يُثقل ضميري أكثر فأكثر. إني أودّ أن أساعد قريبي ولكني لا أملك

الوسيلة لذلك. ويظن أقربائي بأن لا رغبة لي بالمساعدة، وهذا حِملٌ إضافي على كاهلي".

حين نصلّي إلى الرب من كل قلبنا ونحمل إليه كلَّ همومنا ومشكلاتنا – وأيضاً همومَ إخوتنا البشر ومشكلاتهم – فإنه يأخذ منا هذا العبء ونشعر على الفور بأننا أكثر خفَّة. وبعد أن كنا نتخبَّط في شِباك أفكارنا نجد أنفسَنا في استرخاء وسلام لأننا قد وضعنا كلَّ شيء بين يدي الرب.

إن لم نتعلَّم أن نفعل ذلك فسوف نرزح تحت العبء أكثر فأكثر كل يوم وستأتي ساعةٌ نجد فيها أننا أصبحنا عاجزين حتى عن التحدث إلى إخوتنا البشر. لماذا؟ لأننا مُرهَقون بإفراط. وسنفكِّر في ذواتنا: "اذهبْ من هنا! فأنا بالكاد أقدر على النهوض بأعبائي الخاصة ولستُ أستطيع النهوض بأعبائك أيضاً". لهذا علينا أن نتعلَّم أن نكون في سلام في أفكارنا. إذ حالما تبدأ أفكارُنا بمضايقتنا يجب أن نتوجَّه إلى الله ونسلِّمه همومَنا وهمومَ قريبنا. من عادتي أن أسلِّم على الدوام مشكلاتي ومشكلات الذين يأتون إليَّ للاسترشاد، إلى الرب وإلى أمهِ الكلية

القداسة لكي يحلاّها. وهذا ما يفعلانه. أنا عاجز حتى عن مساعدة نفسي فكيف لي بمساعدة أيٍّ كان؟

٨- حين يأتي إلينا قريبُنا حاملاً مشكلاته فإننا نشارك بها. فإن لم نعرف كيف نتحرَّر من التوتر وكيف نسلِّم كلَّ إعاقاتنا وإعاقاتِ قريبِنا للرب فسنحمل هذا العبء الثقيل في أذهاننا وقلوبنا. ومع الوقت سنصاب بالإجهاد وبالاضطراب بما لا يُحتمل. سوف نصبح سريعي الغضب ولا نعود نحتملُ أنفسَنا فكيف بالآخرين المُحيطين بنا: أفرادِ عائلتنا وبالطبع زملائنا بالعمل؟ ستصبح حياتُنا بائسة ومتوترة وأعصابُنا مشدودة. وكل ذلك لأننا لم نتعلَّم كيف نتحرَّر من أفكارنا. حين تكون أفكارُنا في سلام ترتاح أجسادُنا أيضاً.

٩- كثيراً ما تؤثِّر مُخططاتُنا ومَصالحُنا في حياتنا. نحن نضع كلَّ هذه المخططات عالمين بأننا لن ننجح في أيٍّ منها يوماً ما لم نُدبِّر كل شيءٍ بدقة. بالحقيقة يجب أن تكون كل أعمالنا موافقة لما يُمليه علينا ضميرُنا، ولكن من دون عجلة. إذ حين نكون في عجلة من أمرنا يصطادنا العدو. حين نكون

مستعجلين لا نعي إن قُلنا شيئاً يؤذي أخانا أو تجاهلْناه لأن لا وقت لنا للتفكير به لشدَّة انشغالِنا بالمخططات التي في رأسنا. وفي هذه الحال يَسهل علينا ارتكابُ الإثم تجاه قريبنا. وحين نأثم تجاه قريبنا نأثم بالحقيقة تجاه الله لأن الله هو في كل مكان. إنه يقيم في نفسِ كلٍّ مِنا. وعلاقتنا بإخوتنا البشر تُحدِّد علاقتنا بالله.

يبدو أن هناك أمراً لا نفهمُه: لا يصلحُ أن نبادل بالحب الذين يحبونَنا وبالكراهية الذين يكرهوننا. وإنْ كنا كذلك فلسنا على الطريق الصحيح. نحن أبناءُ النور والمحبة، أبناءُ الله، أولادُه. وعلى هذا يجب أن نمتلك ميزاته وخصائلَه من المحبة والسلام واللطف تجاه الجميع.

١٠- كل عملٍ، من أي نوع كان، هو عمل الله. وكلُّ عمل يجب أن نقوم به من القلب لأننا لا نتعب من أجل البشر بل من أجل الله. الله حاضرٌ في كل مكان. الكوكب كله مِلكٌ له؛ الكون كله له. لا يَهمُّ من هو ربُّ عملك، أكان رجلاً طيباً يُحسن إدارةَ شركته أم لا، فعلينا أن نقوم بعملنا من أجل الله. لأننا حين نعمل من أجل الله تكون قلوبُنا وأذهاننا مفتوحة، وإلا فسنقول

أموراً كهذه: "لن أعمل من أجل هذا الرجل. إنه مجرد كسولٍ لا يصلح لشيء، يُمضي النهارَ جالساً ومع ذلك فراتبه أعلى من راتبي". هذا دليل على أننا لا نؤدّي عملنا من القلب. ولكن الرب يقول: "سأتقيؤك من فمي لأنك فاتر، لا حارٌ ولا بارد" (رؤ ٣: ١٦). يجب أن نكون إمّا حارّين أو باردين.

١١- لقد خلق الربُّ كلَّ فردٍ منا وفي ذهنه هدفٌ ومخطَّط معيَّنان له. كل وريقةِ عشبٍ صغيرة على هذه الأرض لها نوعٌ من المهمَّة هنا على الأرض، فكم بالحري البشر! ولكننا كثيراً ما نُعيق تدبيرَ الله ونعارضُه. لنا الحرية لقبول مشيئةِ الله أو رفضِها. والله، الذي هو محبة، لا يودّ أن ينتزع منا هذه الحرية. لقد أُعطيت لنا الحريةُ الكاملة ولكننا لحُمْقِنا كثيراً ما تتكوَّن عندنا شهواتٌ عديمة الفائدة.

١٢- يودُّ الأهلُ على الدوام أن يكون أبناؤهم سعداء راضين وشاكرين لهم على كل ما فعلوه وعلى التضحيات التي قدَّموها من أجلهم. فتَراهم يحزنون إذا وجدوا أبناءهم مُستائين وغيرَ شاكرين لهم. والأمر نفسُه مع **أبينا** السماوي. لقد أعطانا

كل شيء ولكننا غيرُ راضين وكئيبين على الدوام. وبدلاً من أن نشكر الله ونمجِّده على كل شيء، فإننا نعبِّر له عن شكرنا بالشفاه فقط وتبقى قلوبُنا باردة. فالفرح هو شُكران. وفرحنا أفضل تعبيرٍ عن الشكر يمكن أن نقدِّمه للرب الذي يُخلِّصُنا من الغَمّ والخطيئة.

١٣- يختلف خوفُ الله عن الخوف الغَريزيّ الذي من هذا العالم. وخوفنا يشابه هذا، ويجب أن نجاهد للتغلُّب عليه. مثل هذا الخوف مصدرُه جهنّم. حياتنا مفعمة بالخوف. نخاف مما سيحمله إلينا الغد ومما يخبئه لنا المستقبل... هذا خوفٌ غريزيّ. أما خوف الله فهو عندما تحبه، عندما تحبه بصدق ومن كل قلبكَ وتسعى جاهداً لئلا تتسبَّب له بالأذى أو بالحزن يوماً: وليس فقط بأفعالك وتصرفاتك وأقوالك بل أيضاً بأفكارك. وتحاول أن ترضيه في كل ما تفعل وتقول. هذا هو خوفُ الله: الخوف من أن نقوم بأي عمل يمكن أن يُحزن أو يؤذي **أبانا**.

١٤- حين نكون في وسط عددٍ كبير من الناس، مثلاً في مكان العمل، نجد أنه كثيراً ما يتناقش الناسُ وخصوصاً في

الاجتماعات الكبيرة. في جميع الأحوال الأفضل أن نحافظ على الصمت في المجموعات الكبيرة ولنترك الآخرين يَعرضون اقتراحاتهم. لنبقَ صامتين. وإن اضطررتُم اضطراراً كليّاً للكلام فتكلَّموا من دون أن تُهينوا كرامةَ أحد. والأفضل عدم المشاركة. اهتموا بأموركم الخاصة وحاولوا أن تحافظوا على سلامكم.

كثيراً ما أرغبُ بالدفاع عن العدالة ولكن ينتهي بي المطاف على الدوام بأن يلحق بي الظلم... بإمكاننا أن ندافع عن العدالة ولكن هل ستتحقق العدالة؟ الربُّ يعلم لمَ سمح بوجود الظلم. لن نمنع وقوعَ الظلم بكلامنا. لا يمكننا بالكلام سوى أن نؤذي شخصاً ونجعله يجرح الشخصَ الآخر بدرجة أكبر أيضاً. نظن بأننا ندافع عن أحدهم ولكننا بالواقع نزيد الأمور سوءاً. لأن الشخص الواقع في قبضة أرواح الشرّ يولِّد الشر. فهل سنمنع حدوث ذلك بكلامنا؟ على العكس تماماً. حتى ولو دافعنا بالكلام عن شخص واقعٍ في الظلم فإننا لا نقدِّم له بذلك خدمة. والأفضل أن نتوجَّه إلى **الذي** وحده يمنحُ العدالة.

حدث مرة في تجمّع لمسيحيين ضمّ مُمثلين عن ديانات عدة أن شارك رجلٌ صيني في أحد اللقاءات. فكان كل مُمثّل [لديانةٍ ما] يعرض حججَه ومعتقداته، أما الرجل الصيني فبقي جالساً ولم ينطق بكلمة. وعند انتهاء الاجتماع سألوه: "لمَ لم تقدِّم أيَّ اقتراح أو تناقش مع أو ضد بعض الاقتراحات الأخرى؟ لمَ لم تقل كلمة واحدة على الأقل؟" فأجاب: "كنتُ طوال الوقت أصلّي إلى الله وأسأله أن يحلّ **هو** بنفسه المشكلة بأفضل طريقة ممكنة. كنت أصلّي لكي نصل إلى قرارٍ واحد يمكن أن يكون لمصلحة الجميع". هكذا يجب أن يدافع المرءُ عن العدالة. ليس بالكلام – فالكلام سوف يغيظ أحدَهم ويجعله يؤذي الآخرين بدرجة أكبر. علينا أن نتوجَّه إلى الكلي القدرة، **سيّد** كل العقول والقلوب، وكلُّ شيء سيكون على ما يرام.

الفصل الخامس

في الرهبنة

١- خدمتنا الرهبانية مثالٌ حيّ عن القداسة والنُّبل. ولنا في هذه الحياة أمثلةٌ قليلة وثمينة عنها. وما أكثر الأقوال التي نسمعها اليوم وموضوعها كيف ينبغي للمرء أن يعيش، ولكن الأمثلة على ذلك قليلة جداً. ويبقى من غير المؤكد إن كنا قادرين على أن نُطبِّق كل ذلك في حياتنا. أما حين نرى إنساناً سلامياً وهادئاً، وديعاً ومتواضعاً، لا يعرف الغضبَ ويصفح عن كلِّ إساءة، ساتراً كل شيء بالمحبة، فمثل هذا الإنسان هو مثالٌ حيّ وعلينا أن نجاهد لنحذو حذوه. لا يمكن للمرء أن يتغلَّب على الشرّ بالشرّ. لا يمكن للمرء أن يتغلب على الشر سوى بالخير.

٢- لقد أتينا إلى هذا الدير من كل الأنحاء. ترعرعنا في كنف عائلات متنوعة وفي ظل ظروف متنوّعة. مِنّا مَن هم مُرهفو الشعور وغيرهم عديمو الشعور لا يبالون بالتسبب بالأذية للآخرين. ورغم ذلك فعلينا جميعاً أن نحتمل بعضنا البعض في

الشّركة من أجل أن نصبح تدريجياً ذوي ذهنٍ واحد وفكر واحد. وعلى الرئيس أن يكون مثالاً لبقية الإخوة على هذا الصعيد. إن كان مُمتعضاً فستكون الأخوية كلها ممتعِضة.

٣- إني لا أرجو سوى الخير لأبناء بلدي ولكل الناس في هذا العالم. هذا هو دور الرهبان. سُئلتُ مرة عن معنى الراهب اللابس الإسكيم الكبير. والجواب على هذا السؤال يأتي من والدة الإلٰه الكلية القداسة نفسها. فالراهب هو الذي يُصلّي من أجل خلاص العالم بأسره. واجبُنا أن نصلّي بإخلاص من أجل كل البشر لكي يمنح اللهُ للجميع السلامَ والفرح.

٤- والأمر أسهل في الدير. فنحن هنا متحرِّرون من كل أمور هذا العالم الفظيعة. ولا تربطنا بالعالم الخارجي سوى علاقات قليلة، وهذا جيد. لا شك بأن هذا يعتمد كثيراً على الشخص.

والمطلوب من الرهبان والراهبات مطلوبٌ أيضاً من العلمانيين. فالآباء القديسون يقولون أيضاً إن الفرق الوحيد بين الرهبان والعلمانيين هو أن العلمانيين متزوجون. وهذا يسهّل

الأمورَ على الرهبان لأنهم لا يحملون أعباء الحياة الزوجية وليس عليهم أن يسعَوا جاهدين في تربية الأولاد ليكونوا مسيحيين صالحين وليقودوهم على الطريق الصحيح. فالراهب يجاهد من أجل نفسه فقط. لا شك أن عليه أن يُصلّي من أجل العالم بأسره ولكن ذلك أسهل بكثير عليه. وأما العلماني فبإمكانه – بالوداعة والتواضع – أن يبلغ إلى مستوى من الروحانية يفوق المستوى الذي يحققه ذلك الراهبُ الذي أمضى حياته عائشاً بالبتولية ولكنه لم يجاهد للوصول إلى الكمال. ومن لا يُصلّي لا حاجة به إلى مكان مقدس أو أغراض مقدسة.

٥- يتزوج الناس فيظنون بأن كل الأمور سوف تسير بسلاسة. ولكن هذا لا يحصل دائماً لأن الحياة ساحةُ معركة. والأمر نفسُه في الأديار. أنت تدخل إلى دير وتظن بأن كل شيء هناك سلاميٌ وهادئ، ولكن الأمر ليس كذلك. فالدير ساحةُ معركة أيضاً.

الفصل السادس

في التوبة

١- نحن بحاجة إلى التوبة. والتوبة ليست مجرد زيارة الكاهن والاعتراف له. بل يجب أن نتحرَّر من تسلّط الأفكار علينا. نحن نتعرّض للسقوط مراتٍ عديدة في حياتنا ومن الضرورة القصوى أن نكشف كلَّ شيء في الاعتراف أمام الكاهن الذي هو شاهدٌ على توبتنا.

التوبة تجديدٌ الحياة. وهي تعني أن نتحرَّر من كل السِّمات السَّلبية ونتحوَّل إلى الخير المطلق. ليس من خطيئة لا تُغتفَر سوى خطيئة عدم التوبة.

٢- الدموع على أنواع كثيرة. فقد يبكي المرء من الحَنَق، وغيرُه نكايةً بشخص آخر، وقد يبكي غيرُهما لتعرُّضه للإساءة، ويبكي آخرون لأنهم فقدوا شخصاً مَحبوباً. الدموع على أنواع كثيرة. وهناك أيضاً دموعُ التوبة إذ يبكي المرء حين ينبئُه ضميرُه لارتكابه خطايا كثيرة، فيُدرك إثمَه ويذرف الدموع. هذا

عملُ نعمةِ الله: تتوب النفسُ وتُغسَلُ الخطيئةُ بالدموع. هذه هي دموع التوبة وهي عطيةٌ من الله. حين يُدرك المرء إثمَه يتحررُ تدريجياً من هموم هذا العالم ومن أنانيتِه ويودِعُ الربَّ كلَّ همومِه. فتتواضع نفسُه وفي هذه الحال تكون النفسُ في حالة النعمة. فالصلاة تتطلب حياةً متحرِّرة تماماً من الهَمّ، إذ يقول الآباء القديسون إن أتفهَ قلقٍ يُشوِّش صلاتَنا. كما أن أصغر قذاةٍ من الغُبار يمكن أن تغشي بصرَنا هكذا فإن أصغر هَمٍّ يُعيق تركيزَنا في الصلاة.

حين نكون مُتَّحدين بالرب تكون روحُنا في سلام وتحلُّ علينا النعمة. ومَن هو مقيم في حالة من النعمة يستطيع أن يبكي من أجل أيٍّ كان. إنه يبكي لمشاهدته معاناةَ حيوان أو نبتةٍ أو إنسان... مثل هذا الشخص قادرٌ في كلِّ وقت على ذَرفِ الدموع من أجل العالم كله، ما يعني أن نعمة الله موجودةٌ فيه وأن دموعه هي عطيةٌ من الله. هذه هي الدموع التي تُخلِّص. إنها تقود النفسَ إلى الكمال. لا يمكن بلوغ الكمال بالقلق حول أمور هذا العالم. وقد أوصانا الربُّ بألا نُرهق أنفسَنا بأعباء الطعام والشراب وبهموم هذا العالم.

٣- كثيراً ما نجد أن الذين لم يسبقْ لهم أن عرَفوا اللهَ يوماً يملكون إيماناً أقوى مِن الذي يدَّعون أنهم أمضَوا حياتَهم كلَّها على الإيمان. فالذي لم يعرف الله، إذا اتفق له أن عاد إلى رشده يوماً وشرعَ بالصلاة، فسيُدرك ما كانت عليه حياتُه السابقة وسيعرف مَن الذي أعانه للعثور على النور في نهاية النفق.

٤- كلُّنا نخطئ بشكل متواصِل. نزلُّ ونسقط. بالحقيقة نحن نسقط في فخاخ نصبَها الشياطين. لا ينفكُّ آباءُ الكنيسة والقديسون عن تنبيهنا من إنه "ينبغي النهوضُ مباشرة بعد السقطة ومتابعةُ السير نحو الله". لا يهمّ ولو سقطنا مئات المرات في اليوم، علينا أن ننهض ونتابع السير نحو الله من دون أن ننظر إلى الوراء. فما حدث قد حدث: هذا من الماضي. تابعوا السير من دون أن تكفّوا عن طلب المعونة من الله.

٥- لا يعني تذكُّرنا لخطيئة قد ارتكبناها بأن هذه الخطيئة لم تُغتفَر. فإن ذكرى خطايانا هذه ليست سوى تحذيرٍ لنا لئلا نتكبَّر ونخطئ من جديد. والواقع أننا نحن الذين نعجزُ عن الصَّفح لأنفسنا وليس الله. نعجز عن الصفح لأنفسنا بسبب

كبريائنا. والعلامة الحقيقة على أن خطيئة ما قد غُفرتْ هي أنها لم تتكرَّر وأننا في سلام. والمهم أيضاً هو كيفية عيشِنا السنوات الأخيرة من حياتنا. فإن الحياةَ المَرْضية لله في الشيخوخة تمحو خطايا مرحلة الشباب.

٦- نحن البشر نحصدُ على الدوام ثمارَ أفكارنا وشهواتنا. إن كانت أفكارُنا وشهواتنا خبيثة فلن نستطيع أن نجمع ثماراً صالحة. كلُّ الجنس البشري يحصد ثمارَ أفكاره وشهواته. قال الربُّ عن مجيئه الثاني: "هل سأجدُ الإيمان؟" (راجع لوقا ١٨: ٨). لهذا علينا أن نجاهد لتحسين طباعِنا ما دمنا في هذه الحياة لأننا سندخل الحياةَ الأبدية بهذه الطِّباع نفسِها. وبمقدورنا أن نتحوَّل إلى الأفضل إن تُبنا عن كل أساليبنا الشريرة. ولكن الروح التي تنتقل إلى الحياة الأبدية تصبح عاجزة عن الصلاة من أجل نفسها. لم أكن أعلم ذلك ولكن أتيحت لي الفرصةُ يوماً بأن أشعر وكأن روحي على وشك أن تغادر جسدي. وشعرتُ بأني لم أعد قادراً على رفع الصلاة من أجل نفسي. وكان هناك راهبٌ يصلّي من أجلي أما أنا فعجزت عن ذلك: كان وقتُ توبتي قد انتهى.

٧- يحصد الناسُ في بلدنا، وفي العالم أجمع، ثمارَ أفكارهم ورغباتهم. فإن رغباتنا ليست بصالحة ولا أفكارنا. فكيف تكون صالحةً ثمرةُ مثل هذه الأفكار وهذه الرغبات؟

نحتاج إلى التوبة وإلى تغيير طريقة حياتنا. والتوبة ليست مجرد زيارة كاهن والاعتراف له؛ على الروح أن تتحرَّر من كل هذه الأفكار ومن الكآبة التي سيطرتْ علينا بسبب دروبنا الملتوية. التوبة تغييرُ الحياة، وتغييرُ وجهة السير، والاتجاه نحو **الصلاح المطلق**، وأن نتركَ وراءنا كلَّ ما هو سلبيّ. التوبة الحقيقية نادرة جداً وحتى عند الأتقياء، ولهذا السبب نحن نتألم بشدة. فلو كان أفراد شعبنا يتوبون لما كانوا يعانون من العذابات التي يُقاسونها الآن. نحن نعقِّد حياتنا بشكل رهيب بسبب أفكارنا وشهواتنا. لم أكن أعلم ذلك من قبل ولكني الآن أعلم بأني ملوم على كل شيء، على كل شيء! الآن أعلم لمَ كان الآباء القديسون يعتبرون أنفسهم أسوأ من جميع البشر.

٨- حين نصلّي من أجل أمر ما من أعماق قلبنا فلسوف يمنحنا الربُّ إياه لأنه إلٰهُنا وأبونا (راجع متى ٧: ٧-

١١). يجب أن نُقوّي أنفسَنا في الصلاة ونكون ذا فكرٍ واحد ونيةٍ واحدة في بلادنا، فإن نجحنا في هذه لن يكون لنا أعداء. حين نتفحص تاريخَ إسرائيل نجد بأن أعداءهم كانوا يتغلبون عليهم كلما كانوا يبتعدون عن الرب ولكن الربَّ كان يُعينهم كلَّما كانوا يتوبون توبة صادقة. الربُّ معنا على الدوام.

الفصل السابع

في الصلاة

١- الرب حاضرٌ في كل مكان. إنه يحيا في قلوبنا. لهذا أوصانا أن نحبَّ مِن كل قلبنا وأن نفعل كل شيء طوعاً (راجع متى ٢٢: ٣٧). حين نطلب الربَّ من كل قلبنا نجده هناك! إنه **أبونا**. والدانا بالجسد يطلبان أن نهتمَّ بهما. يريدان أن نبادلهما الحبَّ نفسه الذي أغدقاه علينا. ولكن ماذا يحدث؟ نحن كثيراً ما نتسبَّب لهما بالحزن. لذا حين نطلب الله يجب أن نطلبه من كلِّ قلبنا. حين نسعى لأن نفعل كل شيء من القلب تكون صلاتُنا صادقة وحارّة ونحبُّ والدينا وأقرباءنا ويكون الربُّ معنا.

كل عمل نقوم به هو في الوقت نفسه صلاة؛ إذ تكون أفكارُنا مرتكزة على العمل، وحين نؤديه من القلب هذا يعني بأننا نقوم به من أجل الله. وإن ظننّا بأننا نؤديه من أجل شخصٍ آخر نكون مخطئين.

الصلاة من القلب هي صلاةٌ صادقة. صَلّوا دائماً مِن كلِّ قلبكم. الربُّ لا يتطلَّب منا فلسفة. بل علينا أن نُصلّي من القلب كما لو كنا نتوجَّه إلى أبينا: "أيها الربُّ، أَعِنْ كلَّ نفسٍ ولا تنسَني أنا أيضاً. أَعِنْ كل إنسانٍ ليجدَ السلام ويُحبَّكَ كما تُحبُّكَ الملائكة. وأعطِنا أيضاً القوةَ لنُحبَّك كما تُحبُّكَ أمُّك الكليةُ القداسة وملائكتُك القدّيسون. وأعطِني أيضاً القوّةَ لكي أحبَّك بلا حدود!"

٢- والحقيقة أننا عندما نُصلّي نقرأ قانونَ صلاتِنا من دون مشاركة كيانِنا بكامله [في هذه الصلاة]. نحن لا نصلّي قانونَ صلاتِنا إلا بشفاهنا. نتشتَّتُ، وهذا يعني بالطبع أننا لا نُصلّي بالروح والحق (راجع يوحنا ٤: ٢٣-٢٤). نحن نُصلّي بأجسادنا فقط وننطق بكلمات الصلاةِ بشفاهنا في حين أن كياننا هو بالحقيقة في مكان آخر. يتركز انتباهُنا في مكان آخر وليس على كلمات الصلاة. لهذا يوصي الآباءُ القديسون بأن على اليقظة والانتباه أن يسبقا الصلاة على الدوام. حين نُصلي من دون انتباه هذا يعني أننا لا نصلّي بالروح والحق، أو بأفكارنا.

حين نكون متيقظين إلى ما نطلبه في الصلاة نكون مركزين انتباهَنا على الكلمات التي نقولها وعلى ما نطلبه.

حين نطلب المعونةَ من أحدٍ عالمين أنَّ باستطاعته مساعدتَنا فإننا نتوجَّه إليه بحرارةٍ ونتوسَّلُ إليه بكل كياننا قائلين: "أرجوكَ أن تفعل لي ذلك. أعرف أن بإمكانك أنْ تقومَ به". هذا يعني بأننا نسأله المساعدة لكوننا واثقين من قدرته على مُساعدتِنا. ولكن ما أكثر ما نصلّي إلى الله دونما انتباه وبطريقةٍ آلية ونعتبر ذلك صلاةً في حين أن أذهاننا وقلوبنا تكون في الحقيقة غائبة. فتارة تكون أذهانُنا غائبة وتارة أخرى نصمِّم على القيام بعملٍ ما فتنشغل به أفكارُنا، أو تكون أذهانُنا متوقفة ومقيمة عند إهانةٍ [تلقيناها]... تتركز أذهانُنا على أمورٍ كثيرة ما عدا الصلاة. لهذا قال الربُّ إن الله روحٌ وإننا حين نُصلّي يجب أن نُصلّي بالروح والحق. أي أن روحَنا يجب أن تكون حاضرةً حين نُصلّي.

٣- وحده الربُّ هو الذي يحمل أثقالَنا وهمومنا وكلَّ إعاقاتِنا ومشكلاتنا الجسدية منها والتي في الروح. هو قادرٌ على

حَمْلِ كلِّ شيء لأنه **قدير**. يجب أن نودعه كلَّ إعاقاتنا وإعاقات إخوتنا من خلال الصلاة. هذا هو هدف الصلاة. يجب أن نتَّحد بالرب ولا نقلق بسبب الغد لأنه قال: "يكفي اليومَ شرُّه" (متى ٦: ٣٤). هذا يعلِّمنا عدمَ القلق بشأن الغد. ولكننا نقلق: لا نقلق فقط بشأن الغد بل أبعد من ذلك أيضاً، وهذا يُجهِدُنا. نحن كائناتٌ عَقلانية، مخلوقون لتوتُّرِ يومٍ واحدٍ في كل مرة. ومع ذلك نعذِّبُ أنفسَنا أكثر بكثير من ذلك، ولهذا نتألم. نَعصى الربَّ الذي أوصانا بألا نُرهق قلوبَنا بأمور الطعام والشراب وهمومِ هذا العالم. نحن نُرهق أجسادَنا وأرواحنا. فالطعام والشراب يُرهقان الجسدَ حين نأكل ونشرب أكثر من حاجتنا. فتضطر أجسادُنا للقيام بجهدٍ جبّار من أجل هَضمِ كل ذلك الطعام، وتصابُ بالإرهاق. وإذا أرهقْنا أنفسَنا أيضاً بالأفكار يتضاعفُ إجهادُنا وكذلك ألمُنا. لهذا يجب أن نصلّي على الدوام.

لا يحتاج اللهُ إلى صلاتنا، بل نحن نحتاج إليها. حين نصلّي إلى الله نكون في الواقع في وضع التحدث إليه، تماماً كما نتحدث إلى بعضنا البعض. الله هو أبونا. ليس لنا على هذه الأرض قريبٌ أو صديق يفهمُنا ويحبُّنا كما يفهمنا ويحبنا اللهُ. لا

يمكن وصفُ حبِّه بالكلمات، أو فهمُه، أو تخيّلُه. نحن أصغر من أن نفهم عمقَ حبِّ الله، ورحماتُه لا توصف. إنه يعطينا من نفسه دون تحفظ، ونحن نعجزُ حتى أن نبدأ بفهم ذلك!

٤- تفيض دموعُنا حين تكون أفكارُنا مركَّزة على الصلاة أو حين تلامس قلوبَنا بعضُ الكلمات التي نقرأها أو نسمعها، كما في القداس الإلٰهي. نبكي حين نسمع كلماتٍ خلال القداس الإلٰهي أو صلاةِ الغروب أو السحرية وتكون هذه الكلمات مرتبطة بأفكارنا بطريقة ما. وقد يحدث لنا هذا أيضاً حين نصلي بمفردنا. ويقول الآباء القديسون إن كلَّ شخصٍ يمكن أن يجد في أثناء الصلاة كلمةً قادرة على أن تلامس قلبَه، إنْ في المزامير أو في كتاب مفيدٍ لبُنيان الروح أيضاً.

حين تكون كلُّ قوانا الذهنية متركزة فينا يمكننا أن نعاين ضعفاتنا بوضوح فنُدرك بأننا قد خطئنا تجاه العدل والحقِّ والحبِّ إلى أبعد الحدود. إذ ذاك يرسل اللهُ علينا مطراً مُطهِّراً يغسلنا، أي الدموع. لهذا يوصي الآباءُ القديسون بأن نتمسك لأطول وقت

ممكن بالكلمة التي تلمس قلبنا بهذه الطريقة، ولا ندع انتباهَنا يتشتَّت في أي مكان آخر.

لا يكثِّف الجميعُ انتباهَهم بقوَّة في أثناء القداس الإلٰهي إلى حدِّ ذرف الدموع. أما الحُرُّ من هموم هذا العالم، والذي يُقيم في النِّعمة، فباستطاعته أن يَبكي في أيِّ زمان ومكان. ولا عجب من ذلك لأن أفكاره وكل قواه الذهنية متركزة. مثل هذا الشخص وديعٌ ومتواضع وعلى استعدادٍ دائم لذرف الدموع. أما أنا الغريب عن كل هذه الأمور فأحتاجُ إلى ضربة قوية على الرأس لكي أذرف قطراتٍ قليلة من الدموع، إمّا بسبب الألم أو الإهانة: لأني أُهنتُ بتلقّي هذه الصفعة. بهذا يمكن دَفْعي إلى البكاء، ولكنه غير نافع لي كما ترون. في حين أن الدموع التي تأتي من قلب متواضع هي دموعٌ خلاصيَّة؛ أما دموع الغضب أو العناد أو تلك الناتجة عن الإهانة فلا تعود [علينا] بأية فائدة بل تؤذينا.

٥- ليس من سبيل آخر به نُحقِّق خلاصنا سوى بتبديل ذهننا وجعلِه مختلفاً عما كان، فتصبح أذهانُنا متألِّهة بفِعلٍ استثنائيّ تؤدّيه نعمةُ الله. تصبح أذهاننا خاليةً من الأهواء

ومقدسة. الذهن المُتألِّه يعيش في ذِكرٍ دائم لله. وبما أن الله فينا ونحن فيه، فالذهن المُتألِّه يشعر بأنه في بيته تماماً وهو مع الله. الله حاضرٌ في كل مكان ونحن نُماثل السمكَ في الماء حين نكون في الله. فإذا انفصلتْ أفكارُنا عنه نموتُ روحيّاً للحال.

٦- علينا أن نتحضَّر للمناولة الإلٰهية لكي نتَّحد بالروح والجسد مع ربِّنا؛ فنحن أولاده ليس فقط بالروح بل وبالجسد أيضاً. لقد اتخذ الربُّ جسداً وصار إنساناً وحملَ كلَّ هموم البشر ومعاناتِهم وألمِهم. وحده **هو** القادرُ على حَمل هذا العبء. ويريدنا أن نقترب منه بكل قلبنا وأحاسيسِنا وكياننِا.

٧- في اللحظة التي نخرق شريعةَ الله يبدأ ضميرُنا بإزعاجنا ولا يدعُنا نرتاح. فلنتضرَّع إلى الرب لكي يُلقِّننا كيف نلتصق به بكل قلبنا وبكل روحنا. ما أكثر ما ننسى بأننا زوارٌ مؤقَّتون في هذه الحياة وعلينا أن نعتصِمَ بالصلاة في كل حين لأن الصلاة هي تنفُّسُ روحِنا. الصلاة تستقي النشاطَ من الرب، **ينبوعِ** الحياة الذي يحمي ويصون ويُغذّي كل الكائنات.

٨- لا يعلم إلا الله مستوى الصلاة الذي بلغه الشخصُ لأنه لو كان بالإمكان رؤية مقدار النعمةِ التي يملكها أحدُهم لجاز أن يشعر البعضُ بالحزن بسبب ذلك (لكونهم لم يبلغوا ذلك المستوى بعد).

يَضير أولئك العائشين في العزلة والهدوء أن يتأملوا في وجوه الناس ويشتركوا في الحديث معهم، فإن هذا كتساقُطِ حباتِ البرَد على ثمار الأشجار الطرية الذي يجعلها تذوي وتتساقط. وهكذا اللقاءات مع الناس التي مهما كانت قصيرة وذات غاية سامية تمنع نضوج ثمارِ الفضيلة التي أزهرتْ في الهدوء والسكينة. وكما يُحرق الصقيعُ نبتات الزهورِ التي برزتْ من التراب في أوائل الربيع، تُحرق اللقاءاتُ مع الناس ثمرةَ العقل الذي بدأ يُنبِتُ الفضيلة.

٩- قلةٌ قليلة جداً من الناس يعودون إلى رُشدِهم وقلةٌ قليلة جداً يفهمون الحياة. نحن نصلّي بشفاهنا فقط ونتعجّل في الصلوات لكي "نفرغ منها" بأسرع ما يمكن، ثم نفقدُ السَّلام. الصوم والصلاة وَسيلتان لتجميل روحِنا وإعادتها إلى حالتها

الأصلية. يجب أن نجاهد بمعونة الله لاكتساب صفاتِ المسيحِ مخلِّصِنا. نحن نعلم بأنه كان وديعاً، متواضعاً وصالحاً، ويجب أن نحاول الاقتداء به. ولكن لا قوة لنا للقيام بذلك من تلقاء أنفسنا فعلينا أن نطلب المعونةَ من الرب. يستحيل أن يعطينا المصباحُ ضوءاً من دون طاقةٍ كهربائية ويستحيل علينا أن نعيش من دون الله كما قال **هو** نفسه: "من دوني لا تستطيعون شيئاً" (يو ١٥: ٥).

١٠- لقَّنوني في دير ميلجكوفو (Miljkovo) صلاةَ يسوع فكنتُ أُصلّي في كل وقت. وكثيراً ما اتفق لي أن أكون مُشترِكاً في محادثة مع أحدهم فيما أسمعُ كلماتِ صلاةِ يسوع تأتي من قلبي من تلقاء نفسها. كنت أشعر بفرح لا يوصف ولم يكن هناك مِن أمر يمكن أن يجعلني أغضب. لم تكن الأفكارُ عن أمور هذا العالم لتجدَ لها مكاناً في قلبي لأني كنت في حالة النعمة. لنتذكَّر الحالة التي كانت فيها الكليةُ القداسة والدة الإله. فقد عاشتْ طوال حياتها في نعمةِ الروح القدس.

لقد أحببت الموسيقى على الدوام وحتى منذ طفولتي الأولى. ومع ذلك فما كنت أستطيع أن أستحضر أي لحن إلى ذهني حين كنت في حالة النعمة تلك. بل كانت الصلاة تتدفق [فيَّ] بهدوء وبهجة وما كان باستطاعتي أن أتذكر أية نغمة. ولكن ما أن يتحوَّل انتباهُ المرء إلى أمور هذا العالم حتى تتراجع حماستُه مُتقهقِرة.

١١- حين نرى غرضاً ما غالباً جداً ما نرغب بامتلاكِه ولكن حالما نمتلكُه نفقد اهتمامَنا به في غضون وقتٍ قصير. وما أن نرى شيئاً آخر حتى نتوق إليه، وهكذا تتواصل الأمورُ إلى ما لا نهاية. نحن متقلِّبون إلى أبعد الحدود. لهذا أتى الربُّ وسكنَ بيننا نحن البشر لكي يجمعنا ويوحِّدنا فنكون قطيعاً واحداً تحت راعٍ واحد. فهو حين يضمُّنا يصبح كلُّ شيء سهلاً. أما الآن فأفكارُنا متشتِّتة ولا تتركَّز على ما نقوم به، والدواء الوحيد لذلك هو الصلاة. كل عمل يتطلب تجمُّعَ الذهن وعلى الأخص الصلاة.

يتكلم الآباءُ القديسون عن الصلاة الذهنيَّة، صلاةِ يسوع. وتتناول مجموعةٌ من القواعد ممارسةَ هذه الصلاة وكيفيةَ جعلِ ذهنِ المرء ينزل إلى قلبه. ولكنَّ وجود مرشِدٍ روحي مُختبَر أمرٌ ضروري لكي يتعلَّم المرءُ ممارسةَ صلاة يسوع بالطريقة السليمة.

١٢- ينبغي ممارسة الصلاة على الدوام. كل حركة من حركات القلب يجب أن تكون صلاتيَّة. ويقول الآباءُ القديسون: كما أنَّ أصغر حبَّةٍ من الغبار تمنعُنا من الرؤية كذلك يمنعُنا أَتْفَهُ هَمٍّ من الصلاة. لذا يجب أن تكون حياتُنا خالية من الهموم لتكون صلاتُنا نقيَّة.

١٣- لقد ظهرتْ والدةُ الإلٰه الكليةُ القداسة في الأزمنة الأخيرة وتحدَّثت إلى كثيرٍ من الناس. وقالت إنها تصلّي إلى ابنِها من أجلنا، ولكنَّ التوبة غائبة فيما بيننا. وقد دعتْنا إلى التوبة في مناسباتٍ عديدة لأن الوقت يمرُّ بسرعة وأياماً عصيبة تنتظر المسيحيين. وأوصتْنا بأن نتوب حتى لا ننال نصيبَ مَن سقطوا بعيداً عن الله.

قال الآباء القديسون إن الأرض قدَّمت المغارةَ التي وُلدَ فيها المخلِّصُ وإنَّ الجنس البشريَّ قدَّم والدةَ الإلٰه الكليةَ القداسة[٢٠]، وقد حدث ذلك لكي يستطيع الربُّ أن ينزل إلينا ويصبحَ إنساناً فيخلِّصنا. لقد اتخذ طبيعتَنا لكي يُحَوِّلها ويُجدِّدها. وكلُّ الذين هم في الرب يسوع المسيح هم خليقةٌ جديدة وبشرٌ جدد.

الحياة على الأرض قصيرةٌ جداً، قصيرة إلى درجة لا يمكن لنا حتى أن نتصوَّرَها. ولكننا أُعطينا الكثيرَ في خلال هذه الفترة الوجيزة التي نقضيها في هذه الحياة. وقد أُعطي لنا ذلك لكي نطلب اللهَ دوماً من أعماق قلوبنا. هو الذي يستطيع أن يحوِّل نفوسَنا ويُقيمَها من موتها. يا لبَرَكة المسيحيين العظيمة جداً بالحقيقة لكونهم يملكون والدةَ الإلٰه الكلية القداسة شفيعةً مِن أجلهم أمام عرشِ الله.

بإمكانكم أن تلاحظوا أيضاً أننا حين نطلب شيئاً من أهلنا هنا على هذه الأرض فإنهم يمنحوننا إياه، إن كنا بالطبع

٢٠- راجع غروب خدمة ميلاد المسيح، الاستيشيرة الرابعة (من كتاب الميناون).

نُؤدي لهم الطاعة. إن والدة الإلٰه الكلية القداسة تصلّي إلى ابنها من أجلنا دون انقطاع.

١٤- لا يتعب الربُّ من سَماع شكوانا إليه طوال الوقت بل يتعبُ من خطايانا ومن عدم التماسنا معونته. فهو يريدُنا أن ندعوه في كلِّ حين وأن نسكب قلوبَنا أمامه. يجب ألا تكون الصلاة أمراً نقوله ثم ننساه. فإن وقفتَ أمام أيقونة وقرأتَ صلواتك ثم ذهبتَ لتقوم بأعمالك فهذه ليست صلاة.

١٥- الإيمان القوي في قلب الإنسان يتطلَّب الصلاةَ ويُنتِجها في آن. وحياةُ الصلاة الممتدةُ طوال سنوات كثيرة تُنتج المحبة. ليس هدفُ حياتنا سوى تطهير قلبنا إلى درجة يصبح معها قادراً على الترتيل بفرح. وهكذا فإن صلاة القلب تقودُ إلى فرح القلب. وليس من أمرٍ صعب على الإنسان السعيد لأنه يملك المحبة.

١٦- للآباء القديسين كتاباتٌ وفيرة عن الصلاة الذهنية وكيفيةِ ضبطِ الذهن والقلب. وقد أوصَونا أن نحاول تأدية كلِّ عملٍ من أي نوع كان من القلب لأن الأحاسيس تنبعُ من القلب

وليس من الرأس. نحن نفكر بواسطة الرأس، ولكن حين يصدر كل شيء من القلب يكون ذلك تكثُّفاً لكل قوى الذهن في القلب. حين نُصلّي يجب أن نُصلّي من القلب لأن الله هو سيِّدُ القلب. إنه مركز حياةِ كلِّ كائنٍ حيّ. وهو قوةُ الحياة المتحركةُ، فلا نبحثنَّ عنه في أي مكان آخر. إنه هنا، ينتظرنا أن نَقبَلَه ونضع ثقتنا فيه.

١٧- كان من عادة شابٍ من البوسنة أن يأتي إلى هنا لرؤيتي. كان يعيش في العالم ويمارس صلاة يسوع. وكان لهذا الشاب صديقٌ متزوج وله أولاد وعمل. ولم يكن هذا الصديق مؤمناً جداً في ذلك الحين، ولكنه كان رجلاً طيباً. وفي أحد الأيام حدَّثَ ذلك الشابُّ صديقَه عن صلاة يسوع بالقول: "لمَ لا تحاول أن تصلّي صلاة يسوع؟ بإمكاني أنْ أُلقِّنك ذلك". فلقَّنه هذه الصلاة وأعطاه مسبحة. وفي غضون وقتٍ قصير جداً نال صديقُه عطيةَ النعمة وتبدَّلَ هو وعائلته. ورغم أن الشاب الأول كان يمارس صلاةَ يسوع منذ وقت طويل إلا أنه لم ينَلْ عطية النعمة.

وبعد حين زارني الشابُّ الآخر وقال لي: "فكأنني، يا أبتِ، قد استَترتُ بنوع مميز من الفرح وبسلامٍ لا أستطيع وصفَه. فأنا أسمع هذه الكلمات في قلبي بشكل متواصل: "ربي يسوعَ المسيح يا ابن الله ارحمْني أنا الخاطئ". أنا أُدرك ما كنتُ عليه بالسابق ونوعَ الأفكار التي كانت تراودني، أما اليوم فلم يعد لها وجود في ذهني. كانت تخطر في بالي أفكارٌ شهوانية عن الجنس الآخر، وكان من عادتي أن أغضب لأتفه سَبب. أما الآن – ولا يمكنني أن أشرح كيف – فإني أعجز عن الغضب بالكلية. لا أعلم ما حدث لي. الآن لم تعد تراودي أفكارٌ سيئة حتى ولو رغبتُ بها... والإحساس الوحيد المتبقي فيَّ الآن هو الفرح: لقد استولى على كاملِ كياني فرحٌ لا يُنطق به".

فأجبتُه بأنه قد مُنح عطيةَ النعمة، وسيحتفظُ بها طالما أنه يُبعِد أفكارَه عن هموم هذا العالم؛ أما إذا أعاد فكرَه إلى هموم هذا العالم فسوف يتوقف عن سماع كلماتِ صلاة يسوع في قلبه، وعندها سيختفي من قلبه الفرحُ والسلامُ تدريجياً. وسوف يعود مُثقَلاً بالأفكار المتعِبة التي يولِّدها أميرُ هذا العالم. وأعلمتُه بأنه إن رغب بالاحتفاظ بعطيَّة النعمة التي مُنحتْ له فعليه بالصلاة

دون انقطاع لكي يقطع الطريقَ أمام الأفكار التي تأتي من عالم الشياطين وهكذا يصونُ الفرحَ والسلام اللذَين يشعر بهما.

١٨- على المرء أن يُصلّي كما كان يفعل القديسُ يوحنا كرونشتادت: كان يقرأ الصلواتِ بانتباه وحين يشعر قلبُه بالدفء أمام كلمةٍ ما كانت روحُه تمتلئ بالفرح والسلام فيتابع صلاتَه بإحساس.

علينا أن نقول كلماتِ الصلوات عالمين أنَّ الربَّ يرانا ويُصغي إلينا. فإذا "تحرّك" شيءٌ في القلب خلال الصلاة يجب أن نتمسَّك به مُحاولين الاحتفاظ بهذا الإحساس.

١٩- لقد دُعينا لكي نُصلّي ونصنع السهرانات ونقومَ بالأعمال الصالحة. ولكن إن لم نجاهد لكي نُماثِل المسيح فقد ضاع كلُّ شيء عبثاً.

٢٠- تحتاج الحياةُ الروحية إلى قلبٍ يَقِظ. والقلب اليَقِظ يشتعل بالحبِّ على الدوام. في زمن الحرب تسيطر علينا أفكارٌ وهموم مِن كل الأنواع. وعندها ينبغي أن نلتجئ إلى الله في

قلوبنا مُلازمين الصمت. إنْ عجزنا عن طَرد الفكرة التي تُقلقنا على الفور، فعلينا أن نلازم الصمت ولا نفكر بشيء. ليس لنا أن نفكّر. يعرف الربُّ ما يمكننا أن نحتمل وما نعجز عن احتمالِه. وعندها إذ نكون في صمت ويكون ذهنُنا هادئاً، علينا أن نشغله حتى لا يَهيم شارِداً: يجب أن نُصلّي. ليُصلِّ الذهنُ من القلب. وهكذا سنصبح تدريجياً معتادين على الصلاة وستصبح لنا الصلاةُ عادةً مثل أي عمل آخر نتعلّم القيام به. صلّوا بهذه الطريقة، من دون كلمات. وحين يرى الربُّ مساعينا، حين يرى بأننا نطلبه ونرغب بأن نكون معه طوال الأبدية عندها سوف يمنحُنا القوة وسيسكن القلبُ في الصلاة الدائمة. وعندها سنقوم بعملنا ونحن نصغي إلى الصلاة التي في داخلنا.

٢١- نعرف بأن الرب قد تأنَّس، ونعرفه كإنسان. لقد اقترب منا إلى هذا الحدّ. اقترب منا ليس فقط بالروح بل بالبشرة أيضاً، لأننا نحن أهله وعشيرته. ولهذا يجب أن نجاهد للاقتراب منه في قلبنا. حين نفكر كثيراً بإنسان ما يتولَّد فينا حبٌ تجاهه. هل تفهمون ذلك؟ يستحيل علينا أن نحبَّ شخصاً إن لم نُعِرْهُ أيَّ اهتمام لوقتٍ طويل ولم نفكِّرْ به.

لنفكّرْ بالرب بالطريقة نفسها وطوال الوقت. نحن نعرف بأن كل القوة تأتي منه فلمَ نسأل المعونة مِن أحد غيرِه على الإطلاق؟ مَن أقوى منه؟ علينا أن نطلبه في قلوبنا لأنه فيها. ليس الله بعيداً البتة. إنه مركز الحياة وقوَّتُها المُحرِّكة.

حين نطلب الربَّ يبدأ قلبُنا بالاشتعال. يسخن القلبُ. وإن تركَّزت أفكارُنا في نقطة واحدة وكان تركيزنا شديداً عندها يقوى لهيبُ القلبِ أكثر فأكثر ونفعل كلَّ شيءٍ من القلب. بعد ذلك نرى الأمور تتغير من حولنا كما تبدأ أفكارُ الآخرين تتغير، وكل ذلك بسبب السلام الذي يشعّ منا. ونجد بأن أفكار الناس المحيطين بنا تتغير فعلاً! والناس يتغيرون! ويشعرون بالراحة في حضورنا. ربما كانوا يخوضون حرباً ضدنا في الماضي أما الآن فهم يشعرون بأننا نشعّ بالسلام. وأما نحن فلم نعد نردّ "العين بالعين" بل بالحري أفكاراً صالحة وعطوفة. لم نعد في حربٍ معهم. لقد أوقفْنا القتال. إننا نريد السلام. حين تتحارب جهتان على إحداهما أن تَتراجع من أجل أن يحلَّ السلامُ. هذه الجهة هي نحن. ومهما يكن فقد أوصانا الربُّ أن نحبَّ أعداءنا.

٢٢- حين تصلي أَوْلِ الكلماتِ التي تقرأها اهتماماً بالغاً. فهناك يجب أن يكون انتباهُك في كل الأوقات. بإمكان الذهن أن يُنتج كل أنواع الصوَر. بإمكاننا أن نتخيَّل أي شيء في أفكارنا. وفي مثل هذه الحال قد نظن بأننا نشاهد رؤيا فنقتنع كلَّ الاقتناع بحقيقة ما نراه. علينا أن نمتنع عن ذلك. فأذهانُنا مُشوَّشة جداً. يسمح الآباء القديسون بالتفكير في أربعة أمورٍ فقط في أثناء الصلاة؛ وليس لنا أن نُفكر بها بل أن نُبقيها في اعتبارنا، وهي: الموت، والدينونة، والجنَّة، والجحيم.

على كل امرئ أن يتذكَّر موتَه وألا تغيب عن ذهنه نهايةُ حياته، أو أن يعي على الأقل بأن هذه الحياة قصيرةٌ جداً جداً. الحياة تمرُّ بسرعة خاطفة وفجأة تحلُّ الشيخوخة. فكأن الحرب العالمية الثانية قد اندلعت البارحة والحقيقة أن أربعين سنةً قد انقضت عليها. أربعون سنة، ما يوازي عمرَ إنسانٍ تقريباً! فلنعلمْ بهذا أنَّ إدراكنا لقِصَرِ الحياة هو إدراكُنا للموت. هذا ما يجب أن نفكر به.

سوف نُسأَل عن نوعية الحياة التي عشناها ولسوف نُقدِّم حساباً عن كيفية استعمالنا للطاقة التي أُعطيناها. إنها طاقة إلٰهية ومقدرة إلٰهية... سوف نُسأل عن كيفية تقديمنا المساعدة في هذه الحياة. فهل ساعدْنا في نَشر السلام والتناغم في الكون، أم اشتركْنا في الفوضى القائمة؟ لهذا السبب علينا أن نجاهد دائماً من أجل تحسين أفكارنا وجعلِها مثالية.

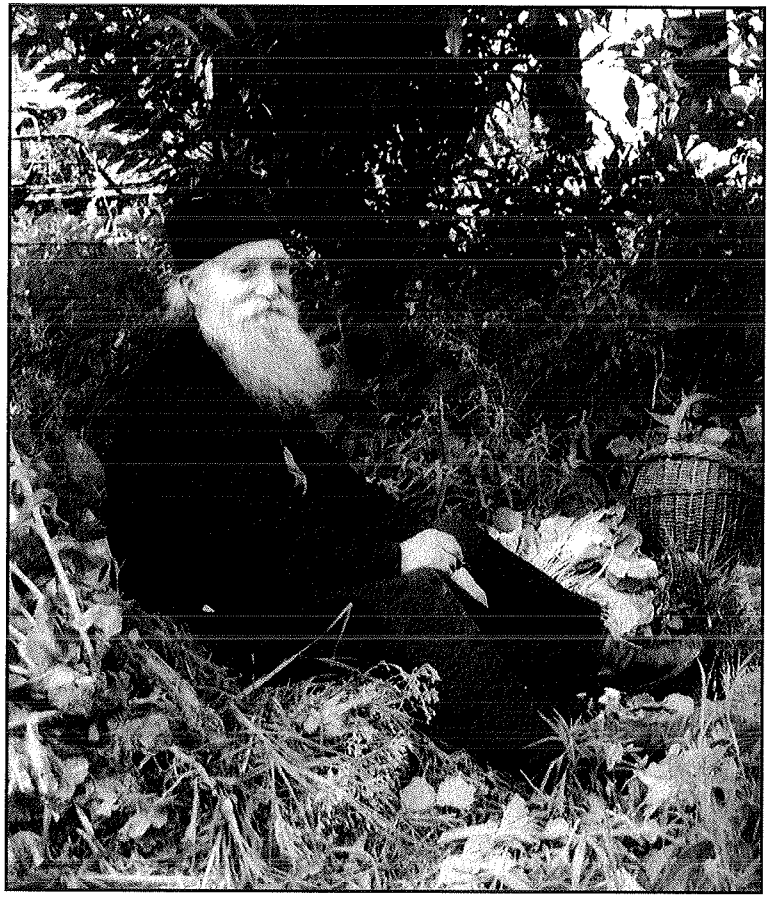
الموت، والدينونة، والجنة، والجحيم: علينا أن نتذكر هذه الأمور طوال الوقت. أما انتباهنا فيجب أن يتركَّز على كلمات الصلاة.

لا يَظهر لنا الربُّ إلا عند الحاجة ماسَّة. نحن على درجة كبيرة من الضعف بحيث نعجز عن التعرَّف إلى رؤيا من العالم الآخر، كما أننا لا نملك أيَّ تَمييز. وهذا خطيرٌ جداً على النفس. ما أكثر ما صلّى الآباءُ القديسون حتى لا يعاينوا أيةَ رؤيا على الإطلاق. حين تعجز النفسُ عن إيجاد التعزية في أي مكان من العالم عندها يأتي الربُّ بنفسه لتعزيتها. وهذا لا يحدث إلا في حالات الضرورة القصوى.

٢٣- **سؤال:** أحاول يا أبتِ أن أجعل عقلي يَنزل إلى قلبي عن طريق التحكُّم بتنفُّسي، كما يُعلِّم الآباءُ القديسون، إلا أني أشعر وكأن لا مكانَ في قلبي، وأشعر بما يشبه الضَّغطَ البسيط وبانزعاجٍ طفيف. فماذا أفعل؟

جواب: يعود السببُ إلى أن عقلَك لم ينزل البتَّة إلى قلبك بل إنه قد أنتج أفكاراً من تلقاء نفسه. وهذا أمرٌ خطر ويمكن أن يؤدي إلى فقدان المرءِ عقله. وهو يحدث أيضاً للطلاب حين تتعرض شرايينُ دماغِهم للضغط المُفرط. يجب أن تمتنع عن هذه الممارسة في غياب مُرشدٍ روحيٍّ مُتمرِّس يشرح لك كيفية إنزال عقلِك إلى داخل قلبك. ويصعب إيجاد مثل هذا المُرشد الروحي اليوم. ويبقى أن تفهم بأن كل عمل تقوم به هو من أجل الله. حين تُدرك وتَقبل ذلك لن تعود بحاجة للتفكير في كيفية إنزالِ عقلك إلى داخل قلبك.

تظن بأن عقلَكَ هو في قلبك، ولكنَّ عقلك ما زال في مكانه، في رأسك. كثيرون مارسوا صلاة يسوع بمفردهم ولكنهم فَقدوا عقلَهم.



الشيخ تدّاوس

الفصل الثامن

في المحبة

١- الله محبة. وقد علَّمنا الآباء القديسون أننا إن التمسْنا اللهَ في حياتنا نكون نلتمس المحبة. إن علِمْنا وآمَنّا بأن الله حاضرٌ في كل مكان وزمان وكنا مُتَّحدين به في قلوبنا فسيُعلِّمنا كيف نحبُّ قريبَنا. لأننا لا نعرف كيف نحب الربَّ أو قريبنا. وكثيراً ما تتدخل الأرواحُ الشريرة بالمحبة الإلٰهية المَمنوحةِ لنا من الله وحتى إنها كثيراً ما تُضلِّلنا مُبعِدةً إيانا عن درب المحبةِ الحقيقيَّةِ والصادقة. فتكون إيحاءاتُهم مليئةً بمظاهر هذا العالم الجسدية والعاطفية: المتعةِ والشهوة، وهما عبودية بَحتة.

وكثيراً ما يقع أحدهم شاباً كان أم عجوزاً بحبِّ شخص أو شيءٍ ما. ويقع بعض الناس في حبِّ الذهب ولا يحتملون الابتعاد عنه أو عن ثروتهم أو منزلهم أو ممتلكاتهم، ويصبحون عبيداً لها. فإن نُزعتْ مِنهم هذه الأمور يُصابون باليأس. وما

أكثر ما تجذب قوى الشرّ مثلَ هؤلاء الأشخاص إلى حافة التدمير الذاتي.

فهل هذه هي المحبة؟ كثيراً ما تتدخل أرواحُ الشر في المحبة الإلٰهية التي زرعها اللهُ فينا. ذلك النوع من المحبة (التي شوّهتها الأرواحُ الشريرة) هي خالية من التمييز. أما محبة الله فلا حدود لها... يقول الرسول إن المحبة كمالٌ (رو ١٣: ١٠). الله كاملٌ وليس فيه خطيئة. وهكذا حين تصبح المحبة الإلٰهية ظاهرة فينا في اكتمال النعمة فإننا نشعّ بهذه المحبة ليس فقط على الأرض بل في كل أنحاء الكون أيضاً. فالله إذن فينا وهو حاضرٌ في كل مكان. فتكون محبةُ الله التي تحتضن كلَّ شيء هي التي تظهر فينا. وحينذاك لا نعود نميِّز بين الناس: فالجميع صالحون وكلُّ إنسانٍ أخونا ونعتبر أنفسَنا أسوأ من كل البشر وعبيدَ كل ما هو مخلوق.

في هذا النوع من المحبة نحن نتواضع. وتكون نفسُنا في سلام واتضاع. والاتضاع هو كمال الحياة المسيحية. إذ ليس كمالُ الحياة المسيحية في إقامة الأموات ولا في صنع العجائب

بل في الاتضاع الأقصى. حين تنيرنا نعمةُ الروح القدس في امتلاء المحبة الإلٰهية عندها نرغب في خدمة كل الناس وفي مساعدة كل الناس. فإن رأينا نملةً صغيرة تقاوم نرغب بمساعدتها.

فالمحبة إذن تضحية. المحبة تضحّي بنفسها من أجل قريبها.

٢- ينتظرنا الرب على الدوام أن نتَّحد به في المحبة ولكننا عوض ذاك ننحرف بعيداً عنه أكثر فأكثر. نحن نعرف أنه لا يمكن أن تكون هناك حياةٌ من دون محبة وهذا يعني أن لا حياة من دون الله لأن الله محبة. ولكن محبته لا يفهمُها هذا العالم. المحبة التي يمنحنا إياها العالمُ قائمة على المعاناة والعبودية لأن أرواح الشر تتدخل فيها. فيها قدْرٌ يَسير من المحبة ولكنها في الغالب عبودية. تحاول أرواحُ الشر أن تستعبدنا فتجعلنا مُقيَّدين ببعض الأشخاص أو الأشياء لتَحولَ دون انطلاقِ قلوبِنا نحو الله، ينبوعِ الحياة والمحبة. فهي تعرف أنها ستعجز عن الاقتراب منا إن اتحدتْ قلوبُنا بالله لأن الإنسان

الذي وُهِب النعمة، والمتَّحِد بمحبة الله، هو أيضاً تحت حماية هذه المحبة الإلٰهية وتعجز أرواحُ الشر عن الاقتراب منه.

٣- المحبة أقوى وسيلة للدفاع على الإطلاق. لا توجد أسلحة ولا قوة يمكن أن تقاس بالمحبة. فكل شيءٍ ينهزم أمام المحبة.

٤- كل ما في الطبيعة سرٌّ عظيم، من النباتات والطيور حتى الإنسان، لأن الله حاضرٌ في كل مكان. وهو يكشف جزءاً صغيراً من ذلك السرِّ العظيم للذين يحبونه حقاً، للأنقياءِ القلوب. الله طاقةٌ لا يُسبَر غورُها. وللإنسان أيضاً طاقة لا يُسبَر غورُها. وحين تكون هاتان الطاقتان في انسجام يكون لنا الفردوس على الأرض والفرحُ والمحبة التي تحتضن كل شيء.

٥- بإمكاننا جميعاً أن نكون صالحين إن اتحدْنا من كلِّ قلوبنا باللهِ ينبوعِ الحياة. فإنه سيمنحنا القوة لنُحبَّ أنفسَنا والقريبَ في آن. من دون الله يستحيل أن نحبَّ حتى أنفسنا. كثيرون هم الذين يصابون باليأس وفقدان الرجاء ويحاولون الانتحار لأننا من دون الله نعجز عن أن نُحبَّ أنفسَنا، فكيف بالحري نحب

أصدقاءنا وعائلتنا وأقاربنا، أو أعداءنا. كلُّ شيء ممكن مع الله لأنه قوَّتنا وحياتُنا. يجب أن نقدِّم قلبنا لأحد؛ فإن قدَّمْناه إلى إنسان ما على هذا الكوكب يمكن لهذا الإنسان أن يؤذينا. كلنا نبحث عن المحبة التي لا حدودَ لها ولا تتبدَّل، وعن السلام الذي لا نهاية له، ولكن من يمنحُنا ذلك؟ ولا حتى أهلنا ولا إخوتنا أو أخواتنا لأن كلاً من هؤلاء يمكن أن يتخلّى عنا [يوماً] أو يكرهنا أو يؤذينا. لماذا؟ لأننا جميعاً محدودون في الزمان والمكان وجميعَنا نحارب القوى النجسة التي تدنِّسُ أفكارَنا باستمرار.

٦- الإنسان الذي نقدِّم له قلبنا - أيّاً كان - قادرٌ على أن يؤذينا أو يتخلّى عنا. إذ لا تنفك أرواحُ الخباثة لحظة واحدة عن وَضعِ الأفكار الشريرة في مشاعر الحب التي تراودنا، والهجوم علينا. ولكن المحبة الإلٰهية لا حدود لها وهي تحتضن كل شيء. أما نحن فمتعلِّقون بالبشر وبأمور هذا العالم الميتة. لقد أصبحت قلوبُنا سجينة أشياء هذا العالم، وإن حُرِمْنا منها فستحزن قلوبُنا وتتألم.

على المرء أن يحب الله قبل كل شيء، وبعد ذلك يمكنه أن يحب المُقرَّبين إليه من الأصدقاء والأقرباء. لا تكونوا معبوداتٍ بعضكم لبعض فهذه ليست مشيئة الله.

الفصل التاسع

عن العالم الساقط

١- نحن الذين سَقطنا، على مِثال الأرواح الساقطة، نتركُ أنفسنا تُستعبَد للأشياء أو الأشخاص. على عكس الطغمات الملائكية. أما الذين يتَّحِدون بالرب في قلوبهم وعقولهم فلا يُستعبَدون لشيءٍ مخلوق. إنهم مع الرب ومعه يُحبّون كلَّ ما في الخليقة. والأمر الذي لا يصدَّق بالفعل هو أن المرء يشعر في مثل هذه الحال بأن كل الناس، الأخيارَ منهم والسَّيئين، هم أقرباء له. والأمر الوحيد الذي يحزننا هو أن أفكارهم تتعارض مع المحبة والصلاح.

٢- لقد خلق اللهُ كلَّ شيء على منوال بديع وكامل بما في ذلك الأرواح التي سقطتْ فيما بعد وابتعدتْ عن الله، فقد خُلقت ككائنات كاملة. لقد سقطتْ من الكمال العقلي، وبما أنها ابتعدتْ عن **ينبوع** الحياة فهي تنشد التعزيةَ في حياةٍ مزيفة. ليست لها حياةٌ حقيقية بل تنشدها وسط أشياء مخلوقة، وسط

أشياء محدودة. وهذا أكثر ما يفرحها. ولكنها لابتعادها عن المحبة – ومع ذلك فهي تتذكر الحالةَ التي كانت عليها حين كانت تحت جناح الروح القدس، في اكتمال النعمة – تحاول أن تحاكي تلك المحبة، فتغوي الناسَ مانحةً إياهم تعزيةً مزيَّفة لكي تسيطرَ عليهم.

وهكذا ينخرط الناسُ في نشاطاتٍ متعددة: كالفلسفة والتفكير العَقلاني والبحث العلميّ. ولكن كل ذلك قصيرُ الأمد إذ لا تدوم الراحةُ سوى لفترة قصيرة ثم يحلُّ الانهيارُ العصبيّ ثم اليأس. وبشكل عام يشعر الناس على هذه الأرض بالوَحدة الشديدة وحتى في وسطِ أقرب أفراد عائلتهم. وهذا ناتجٌ عن طبيعتنا الساقطة. الأولاد يصرخون، وصرخاتهم هي أيضاً صرخاتُ والديهم.

وتشعر الأرواح الساقطةُ هي الأخرى بالوَحدة فتترافق مع بعضها البعض مُرتكبةً كلَّ أنواع الشرور مِثلها مِثل البشر هنا على هذه الأرض. الأرواح الساقطة هي ذات فِكرٍ واحد وتعمل سوية في محاولة منها لإيجاد التعزية ولكنها لا تجدها على

الإطلاق. وكذلك الناس: يرتادون الحانات الليليَّة والمطاعم مع بعضهم البعض ويثملون ويحطِّمون الكؤوسَ والقناني ثم يعودون إلى منازلهم حاملين جروحاً وكدمات ولكنهم لا يجدون التعزية. يبحثون عن التعزية في كل مكان ولكنها مفقودة. أما الذين هم في اتحاد مع الرب، مثل الملائكة، فهم في سلام دائم ويحملون الفرح في قلوبهم. وسلامُهم وفرحهم لا يتبدَّلان.

٣- هذا بالضبط ما قاله الآباءُ القديسون: إن الأرواح التي سقطتْ من أَعالي الكمال هي الآن على الأرض وهي تعلم بأن زمانها آخذٌ في النَّفاذ. ويقترب انقضاءُ الفترة الممتدة ما بين خَلق العالم والدينونة الرهيبة. الأرواح الساقطة تتألمُ بشدة لأنها تُدرك بأن الدينونة آتية وأنها ستكون عادلة. وتعلم أيضاً بأنها ستُصبح معزولةً بعد الدينونة. أما الآن فهي تتمتع بنوع من الحرية. إنها تتنقل بين البشر مُبتدعةً الضلالات ومُكتسِبةً الكثير من الناس إلى جانبها. وهي تظن بأن النصر سيكون حليفَها، ولكن العدالة الالٰهية ستسود في النهاية.

٤- نحن البشر كائناتٌ كثيرة الغرابة: لقد منحنا الربُّ أموراً مدهشة ولكن يبدو بأننا لا نُدرك ذلك. لقد سقطْنا، وبسبب سقطةِ الإنسان تتألم الخليقةُ بأسرها لأن الإنسان قد خُلق ليكون سيدَّ العالم المادي.

عند الخَلق كان العالمُ المادي بديعاً لا رديئاً ومشوَّشاً كما هو اليوم. أصبح كل شيء رديئاً بعد معصية آدم لوصيةِ الرب. لهذا يقول الرسولُ بولس: إن الخليقة بأسرها تئِنُّ وتنتظر اعتلانَ أبناء الله (رو ٨: ١٩-٢٢). الخليقة تنتظرُنا أن نتحرَّر حتى تتحرَّر هي الأخرى من الفساد لأنها الآن فاسِدة ومتقلِّبة. وفينا نحن، في أجسادنا، توجد كلُّ العناصر والمعادن المَوجودة في الكون. لقد كنا فيما مضى أسيادَ كل الأشياء المادية وأما الآن فكل شيء يتمرَّدُ علينا لأننا تسبَّبنا بسقوط كل الأشياء. علينا أن نُصلِحَ أنفسَنا لكي يتجدَّد كلُّ شيء.

٥- ما زالت الأجيال الأكبر سِناً تَذكر كيف كنا نحن الصّربيين قبل اندلاع الحربِ العالمية الثانية بالمقارنة مع ما أصبحنا عليه اليوم. فقبل الحرب كانت تُقام أيضاً رقصاتٌ في

كل المدن والقرى وكان الشبان والشابات يتحلَّقون للرقص والغناء. ولكن هذه الرقصات كانت تبدأُ في فترة ما بعد الظهر، بعد الغداء. وما أن تبدأ الشمسُ بالمغيب حتى يذهب كلٌّ واحد إلى بيته. أما اليوم فيخرج شبانُنا وشاباتنا عند العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً وقد حوَّلوا النهارَ إلى ليل. فأي خيرٍ يمكن أن نتوقَّع؟

٦- كما يموت الجسدُ حين تغادِرُه النفس كذلك تموت النفسُ حين يهجرها الروحُ القدس[٢١]. الموت هو نتيجة الخطيئة لأن الموت والفساد هما معاً ثمرة الخطيئة في الروح، ومن خلال الخطيئة تموت النفس للحياة الأبدية وتصبح منفصلة عن الروح القدس وملكوتِ الله. وأما النفس التي أصبحت مُتَّحِدة بالله، فهي وديعة ومتواضعة، مستغرِقةٌ في الصلاة على الدوام ومُنتصبة في حَضرةِ الله على الدوام. مثل هذه النفس لا تسمح لذاتها بالتشتت.

٢١- يشرح القديس غريغوريوس بالاماس معنى موت النفس فيقول: "يحدث الموت الجسدي حين تغادر الروحُ الجسد وتنفصل عنه. أما موت النفس فهو حين يغادر الله النفسَ وينفصل عنها، رغم أن النفس بمعنى آخر تبقى خالدة. وما أن تنفصل الروح عن الله حتى تصبح أقبح وأقل جدوى من جسد ميت. ولكنها لا تتحلل بعد الموت، بخلاف هكذا جسد لأنها غير مركَّبة"

(St. Gregory Palamas, *Homilies,* vol. 1 [South Canaan, Pa.: St. Tikhon's Seminary Press, 2002], p. 184).

٧- كان الجنس البشري موحَّداً إلا أن الخطيئة أنتجت شرخاً بيننا والآن لم يعد بيننا اتِّحاد. ولهذا السبب أتى الربُّ: ليَجمع ما فرَّقتْه الخطيئة. الملائكة في ملكوت الله هي ذات رأي واحد وفِكرٍ واحد، وهي تعيش في انسجام، أما نحن البشر فمنقسمون.

نعيش في عائلات مع والدينا وإخوتنا وأخواتنا ومع ذلك فنحن تُعساء: نشعر بالوَحدة وكلٌّ منا مُثقَلٌ بهمومه الخاصة. نرغب بتَركِ عائلاتنا والبقاء مع شخص آخر. نتوق إلى الالتصاق بذلك الشخص الآخر وقضاء حياتِنا معه أو معها. قال اللهُ عندما خلق آدمَ إنه ليس حسناً أن يبقى الرجلُ وحده، ولذا فقد خلق له رفيقاً. وكان آدم وحواء واحداً في عينَي الله.

ولكن كلَّ شيء فسد بعد السقطة. قال الرب: "أَثمِروا وتكاثروا واملأوا الأرض" (تك: ١: ٢٨). نحن لا نعرف كيف كان سيحصل التناسلُ لو لم يسقط الإنسان. كانت الأرض ستمتلئ بالناس[٢٢].

٢٢- يرى القديسون أثناسيوس الكبير ("تعليق على المزامير" [المزمور ٥٠: ٥]، وغريغوريوسُ النيصصي ("في خلق الإنسان" ١٧)، ويوحنا الذهبيُّ الفم ("في البتولية"

في ذلك الزمان لم يكن لجدَّينا جسدانِ مائتان على غرار أجسادنا. بعد السقطة اضطر اللهُ للنزول بنفسه إلى العالم الساقط لكي يُجلّيه ويُقيمه ويعيدَه إلى حالته الأولى. في يوم الدينونة الأخيرة سوف نحصل من جديد على أجساد غير قابلة للفساد، وستكون أيضاً أجساداً روحانية.

بعد السقطة تغيَّر كلُّ شيء عما كان قبلها، وحتى المادة. أراد الربُ بمجيئه أن يُجلّي لا الجنس البشري وحسب بل والعالم الماديّ بأَسره أيضاً. ويقول بولس الإلٰهي إن كل ما في الوجود سوف يُعاد إلى حالته الأولى غيرِ الفاسدة (راجع رومية ٨: ٢٠-٢١). في يوم الدينونة سوف يُزيل الربُّ كلَّ العناصر من العالم المادي؛ سوف يُزيلها بأسرع من البرق. سوف يقول الكلمة فيتمّ ذلك. وسيزول كل ما هو موجود وستظهر سماءٌ جديدة وأرضٌ جديدة مكان الأوليَين (راجع ٢ بط ٣: ١٣؛ ورؤ

---

١٤ – ١٥)، ومكسيموسُ المعترف (Ambiguum ٤١)، ويوحنا الدمشقي ("عرضٌ دقيق للإيمان الأرثوذكسي" ٤. ٢٤)، وسمعانُ التسالونيكي ("في الأسرار" ٣٨)، أنه لو لم يسقط الإنسانُ لكان الله قد استعمل وسائلَ أخرى لنمو الجنس البشري غير التناسل الجنسي.

٢١: ١). ولن يعود للزمن وجود، وبدل الشمسِ سوف يُضيء الربُّ (رؤ ١٠: ٦، ٢١: ٢٣).

فيا له من فرحٍ عند ذلك ويا له من اعتلان، حتى للملائكة! إذ يقول الرسول إنه حتى الملائكة تتمنى أن تعاين سرَّ الكنيسة المقدَّسة في الأعماق (راجع ١ بط ١: ١٢).

آه كم نحن جاحِدون وكم التصقْنا بأمور هذا العالم الفاسدة!

٨- لقد انغمسْنا كثيراً في أمور هذا العالم حتى افتقرنا روحياً إذ يستحيل أن نجلس على كرسيَّين [في آن]. لا يمكن للمرء أن يشرب من **كأسِ** المُخلِّص ومن كأسِ العدو. علينا أن نقرِّر مَن سنخدم: الله أو أمور هذا العالم. لا يمكن للمرء أن يخدم اللهَ والمالَ في آن.

يريد الرب أن ينقّينا ويسبغَ علينا من قدرته الإلٰهية وقوته. ولكننا لسنا أنقياء أو أطهاراً من الشر. فلو منحَنا قواه في حالتنا النجسة لتحوَّلتْ إلى الشعوذة.

١٠- الله حاضرٌ في كل مكان فلا تستطيع الأرواحُ الساقطة أن تعمل ما يَطيبُ لها. ولكنها تستطيع أن تؤذينا من خلال الآخرين بالدرجة الأولى. بإمكاننا أن نصون أنفسَنا منها بقوة الله وحدها. لقد مُنح الإنسان قوةً عظيمة ولو استطعنا فقط أن نركِّز أفكارَنا في الصلاة لما تمكَّنت الأرواحُ الساقطة من أذيتنا أو من القيام بأيِّ عملٍ مُخالف لإرادة الله. حيث تكون الصلاةُ لا قدرةَ للأرواح الساقطة.

١١- نحن نجعل من الصعب جداً على الله أن يَظهر لنا ونحن مثل المرآة المحطَّمة التي تنعكس عليها حتى المواضيع الروحية وتتكسَّر في الشظايا بمئات الطرق المتنوعة. جميعُنا نتلقى فقط بمقدار ما نستطيع أن نأخذ، ودائماً بنسبة "المرآة المحطَّمة" التي بها نأتي إلى العالم. لقد أتى المسيح إلى العالم لكي يجعل مرآتنا كاملةً من جديد، فنستطيع أن نتلقّى عليها صورةَ الله. وبالطبع كثيرون لا يستطيعون تصوّر فكرة الله أو قبوله داخل قلوبهم.

لا تستطيع أجسادُنا في حالتها الحاضرة أن تحتمل حِدَّةَ نورِ الله. وقد يكون هذا هو السبب الذي لأجله قديسون كُثُر ممن استناروا بنور الله على أثر جهادٍ طويل وظافِر ضد كلِّ أنواع التجارب، قد انتقلوا إلى الأبدية بعد فترة وجيزة من تلقّيهم هذا النور. عظيمٌ هو فرحُهم في ملكوت الله لأنهم متَّحِدون بالله وبأرواح أخرى قديسة تُمجِّده.

تكون الإرادةُ والعقل والقلب منقسمةً ومنفصلة في الشخص العادي بشكل عام. إنه السبب الأول لمشكلاتنا ومتاعبنا. أما عند الذين استناروا بالله فالإرادةُ والعقل والقلب متَّحدة، والنور الذي مُنح لهم ليس فقط النورَ المَنظور والماديّ، النورَ الذي يشعّون به، بل هو نورٌ أعمق بكثير، نورٌ داخليّ دائم مسكنُه في قلب الإنسان. هذا النور هو المحبة؛ وبالمحبة فقط يقترب المرءُ من الله الذي هو **محبةٌ** خالصة. نموّنا ورحلتنا نحو الله أَبديّان لأن الله لا يوصف، لا يوسَع ولا يُنطَق به. ومع ذلك فبالمحبة نكون أقرب ما يمكن إليه.

١٢- لن تكون رغباتُنا وأهدافنا في هذه الحياة من دون أهمية. فالإنسان الروحانيّ يُجاهد لبلوغ ملكوتِ السماوات وإنسانُ هذا العالم يكافح من أجل أمورِ هذا العالم. للوهلة الأولى قد يبدو الفرق ضئيلاً بين شخص آمَنَ بفكرة العدالة الأرضية، وربما قدَّمَ حياتَه من أجل تحقيق هذه الفكرة، وشخصٍ [آخر] آمَنَ بفكرة العدالة السماوية التي لا تتحقق مطلقاً في هذا العالم. ولكنَّ الفرق هائل. وهكذا فبالرغم مما يظهر من إيمانِ شخصٍ يجاهد للعدالة في العالم، وشرفِهِ وتضحيتِه، ولكن رغباته تتابع نموّها في الاتجاه المغلوط وحتى بعد الموت. هذا الشخص سوف يجد نفسه مع الأشخاص غير المناسبين! الأرواح المتشابهة تبحث عن بعضها البعض هنا وهناك أيضاً.

١٣- نحن ننتقد رجالَ السياسة عندنا الذين هم حالياً في السلطة، ولكنهم أيضاً أبناؤنا. الأَولى أن نُلام نحن، الجيل الأكبر سناً، لأننا لم نقدِّم لهم المثالَ الصالح. نحن صورةٌ عن آبائنا، الجيلِ الأسبَق والأكبر سناً ولم نتعلَّم منهم الكثير. والآن يجب أن نُلام لأننا فشلنا في إرشاد أولادِنا على الطريق الصحيح. يجب أن نبدأ بأنفسنا وألا نحاول تغيير الآخرين. يقول

الآباء القديسون إن علينا أن نُصلح أنفسنا: أن نعمل من أجل خلاصِنا، وكثيرون مِن حولنا سوف يَخلُصون. يجب أن نجاهِد لنكون على الدوام لطفاء، طيِّبين، هادئين، وبسلام، لكي يشعر الناسُ في حضرتنا بالسلام والطمأنينة على الدوام. نحن نعلم أن باستطاعتنا إمّا أن نجتذب الناسَ بأفكارنا أو أن ندفعَهم بعيداً عنهم. علينا أن نتغيَّر لكي يَقوى إيماننا.

١٤- يقول الآباءُ القديسون إنَّ الرب قد سمح أن يولد الجنسُ البشري من امرأة ويتكاثرَ على الأرض بهذه الطريقة بسبب سقطةِ جدَّينا الأولَين. لقد رتَّب اللهُ كل شيء على نحو كامل وهو أبو كلِّ شيء. ولكن هذا التناغم قد تعكَّر بعد السقطة. لقد فسدت طبيعتُنا نفسها بعد أن خُلِقَ جدّانا خالدَين. حين سقط الإنسانُ جاء الموت وتعكَّر نظامُ الكون لأن آدم خُلِقَ تتويجاً للكون وسيِّداً على كل المخلوقات. في كل إنسان يوجد كاملُ العالمِ المادي للكون وكلُّ القوى العقلية. لهذا قيل إن الإنسان عالمٌ صغير. يجب أن نعود إلى حضن **أبينا** السماوي وأن يقوى إيمانُنا لكي نستمدّ من **أبينا** القوةَ، ولسوف نعاين ملكوته.

١٥- بعد السقطة انهار كلُّ شيء. وقد علِمَ اللهُ، وهو محبة، أن الكائنات المخلوقة سوف تعجز عن البقاء في الحالة التي خُلقتْ عليها، فأعطاها كلَّ الزمن المُمتدّ من الخَلق إلى الدينونة الرهيبة لكي تعود إلى رشدِها وترجع إلى حضن **أَبيها** السماوي لكي تتَّحِدَ بالصلاح المطلق والمحبة المطلقة.

ولكن الجنس البشري يفضِّلُ الشرَّ على الخير. هذه ثمرة طبيعتِنا الساقطة! إنه لأسهل علينا أن نفكر بالشرِّ مما بالخير. ولكن حين نفكر بالشر لا يكون لنا سلامٌ ولا راحة مِن مثلِ هذه الأفكار. ما أعظم سقطتنا! وهي بالطبع أمرٌ غامض... ويبدو أننا غير قادرين على العودة إلى رُشدنا ولا على فِعل الخير من تلقاء أنفسنا. ليست لدينا أية فكرة عن مقدار تسُّلطِ الأرواح الساقطة على أفكارنا. ونظن بأن هذه هي أفكارنا. ونتعذب تحت وطأة الحقد والحسد والخبث. هذا تسلّط ما بعده تسلُّط! ترفضه نفسُنا ولكنها لا تستطيع التحرر منه. تعتاد عليه منذ الطفولة الأولى فيتجذَّر فيها بصلابة. على المرء أن يجاهد للتغلُّب على تسلُّط الأفكار هذا! يجب أن نتحوَّل إلى محبة ونَقتني السلام. وليس هذا بالأمر السهل لأن سقطتنا عظيمة جداً!

لا يمكن للإنسان أن يفعل ذلك من دون مَعونة الله. الإنسان معتدٌّ جداً بنفسه. ولكنَّ كل ما يُكشف له يأتي من الأبدية. نحن محاطون بأَسرار الله. ونحن بحدِّ ذاتِنا السرُّ الأعظم. وحتى إننا لا نعرف من نحن ولا من أين أتينا ولا إلى أين نذهب. أيُّ نوع من الكائنات هو الذي يفكر ويتحرَّك ويتكلم من دون أن يعرف كيف ولماذا؟ يا لهذا السر العظيم! كيف يمكن أن تعمل أَعضاؤنا الداخلية من دون إرادتنا، وهي تعمل بطريقة مثالية؟ وكيف يمكننا أن نُعكِّر هذا التناغم المثاليّ بأفكارنا؟

١٦- ما هي الحياة؟ لا شيء! يصعب أن نُدرك مقدار قصر الحياة. اليافعون لا يفهمون ذلك.

ما أكثر ما خطر لي أننا بالحقيقة، نحن الذين نعيش على الأرض، مخلوقاتٌ شقيَّة حقيرة: لا يمكننا حتى أن نعيش بمقدار أربعة مليارات ثانية، أي ١٢٠ سنة. لأن مئة سنة تساوي ثلاثة مليارات ثانية. وما هي مئة سنة؟ لا شيء! لحظة واحدة... حياتنا هي في الأبدية.

١٧- والبشر لا يُرضيهم شيءٌ على الإطلاق. لا شيء يَكفيهم. وقد بدأ هذا الأمر مباشرة بعد سقطة جدَّينا، حين قتلَ قاينُ هابيلَ بسبب الحسد لأن تقدمة هابيل أرضَتِ الله بعكس تقدمة قاين. عندها بدأ كلُّ شيء. واليوم لا يوجد سلام. كل واحد يتصرف وكأنه سيعيش إلى الأبد. ويبدو بالواقع وكأنَّ النهاية قريبة جداً. فالمصانع تُلوِّثُ البيئة لدرجة أن الحياة لن تعود ممكنة بعد وقت قصير جداً.

الحيوانات تشعر بالفرح لأنها على قيد الحياة ولكننا سَلبْناها هذا الفرح. عندها الفرح، وأما نحن فعندنا إلى جانب الفرح أمورٌ كثيرة ومع ذلك فلسنا راضين على الإطلاق. الحيوانات لا تقلق بسبب المستقبل، لا تكدِّس الطعام في المخازن والأهراءات، ولكن الرب يقوتها على الدوام. إنها تقضم غُصَيناً هنا وتلتقط بذرة هناك وتَحتمي في ثُقب أو حفرةٍ ما، وتشكر الله. بعكسنا نحن البشر. الطيور لا تنفك عن إنشاد تسابيح للرب. تبدأ أغنيتها باكراً، عند الثالثة صباحاً ولا تتوقف حتى التاسعة. عند التاسعة تهدأ قليلاً وعندها فقط تذهب للبحث عن طعام لتُطعِم صغارها. ثم تعود للإنشاد من جديد. لا أحد يطلب مِنها

أن تُغنّي، إنها تغني وحسب. وماذا عنا نحن البشر؟ نحن مُقطّبو الجَبين على الدوام، مُتجهّمون على الدوام. لا رغبة لنا بالغناء أو بأيِّ شيء آخر. علينا أن نحذو حذو الطيور، فهي فرحة على الدوام في حين أننا مُنزَعجون على الدوام لسبب أو لآخر. ما الذي يزعجنا؟ لا شيء بالحقيقة... أليس كذلك؟

١٨- ليست الحياة على الأرض سهلة، مهما كانت الظروف مؤاتية. شخصٌ واحد عاش بحسب مُشتهى قلبه هو المَلك سليمان ابنُ الملك داود. حَكم مدة أربعين سنة ولم يذهب مرة إلى الحرب. فكافأه الربُّ بحِكمةٍ عظيمة وبَنى هيكل أورشليم العظيم. وكان الناس يأتون إليه من كلِّ أَنحاء المسكونة ليسمعوا مَشورته. قال: "لقد حقَّقتُ كل ما اشتهاهُ قلبي. رغِبتُ بكرومٍ فزرعتُها. رغِبتُ بقصورٍ فشيَّدتُها. كان لي في أورشليم جيشٌ يتمتع بأفضل تدريبٍ ومع ذلك فلم أحارب أحداً يوماً. رغبتُ بالفضة والذهب والرب أَعطانيها. عملتُ في أمور مُختلفة لأرى إنْ كان مِن تعزيةٍ دائمة على الأرض. فأدركتُ بأنَّ كل ما في هذه الحياة غرورٌ وكبرياءٌ واعتلالُ الروح. لا وجود للتعزية الدائمة..." هذا ما قاله سليمان الحكيم. قال أيضاً إن كل ما

يمكن أن تمتلكَه سيكون لك لوقتٍ قصير فقط وبعد ذلك سيبدو وكأنك لم توجد يوماً. يظن الإنسان بأنه يمتلك كلَّ حكمة هذا العالم ولكن لو استطاع أن يرى نفسَه كما يراه الآخرون لوجد بأنه يتبختَر كالديك الرومي. لكان رأى غرورَه وفراغَ رأسه...

هل مِن إنسان على هذه الأرض يعرف كل شيء؟ كلا. فكلٌ منا متمرِّس في مجال ما من المعرفة، وهكذا نحن نُكَوِّن كُلاً متكاملاً. الناس يَكنّون احتراماً جمّاً للفلاسفة والعلماء ويُرددون كلامهم على الدوام. يبدو أن أحداً لا يتذكَّر بأن الله قد وعد أجدادَنا بأنه سوف يرسل مُخلِّصَ الجنس البشري الذي سيُعيدنا إلى حالتنا الأولى. لم يعلموا بأن الله نفسه سوف يتجسَّد على الأرض. لأن مَن خلقَنا هو وحده قادر على إعادتنا إلى حالتنا الأولى. وقد أتى ولم يقبلْه الناس.

الفصل العاشر

في الجهاد الروحي

١- كل الأشياء في تغيُّر متواصل ولا شيء يبقى على حاله. نحن نكمِّل أنفسَنا إما في الخير أو في الشرّ.

٢- يجب أن نتعلَّم كيف نحيا حياةً سماوية. وليس هذا بالأمر السهل لأننا نعيش حتى الآن حياةَ مقاوَمةٍ ومُعارَضة. إليكم مثال رجلٍ صاحبِ منزل وعائلة ويعلم تماماً كيف يؤدي عمله بشكل جيد ولكنه يقوم به رغم إرادته. هكذا تنشأ المقاوَمة الداخلية. إنْ لم نتعلَّم التخلُّصَ من هذه المقاومة الداخلية فلن نتمكن من دخول ملكوت السماوات والسُّكنى مع الملائكة والقديسين. لأننا قد اكتسبنا عادة معارضةِ أمرٍ ما بشكل متواصل إذ هناك دائماً ما هو ضدّ إرادتنا. لم نتعلّم الطاعة لإرادة الله، بل نريد أن نحقِّق مشيئتنا في كل حين. في هذه الحال لن يكون لنا مكان في الفردوس.

فلنكن إذن شاكرين لله على كل شيء. فهو يعلم لمَ وضَعَنا في الحالة التي نحن فيها ولسوف نحصل على أقصى الاستفادة منها حين نتواضع.

تذكَّروا دوماً بأن كلَّ عمل نؤديه هنا في هذه الحياة هو لله. **هو** يعطينا إياه. علينا أن نطبِّق مُخططَ الله سواء كنا مؤمنين أم لا، أتقياء أم لا.

٣- تبتغي أرواحُ الشرّ على الدوام أن تعرقل كلَّ ما نفعلُه لخلاصِنا. ونحن الفاترين، وأسفاه، نقول بالعادة في أنفسنا: "تمهَّلْ، فإني لم أفعلْ هذا بعد، لم أجرِّبْ ذلك بعد... سأتوب لاحقاً. سوف أتوبُ يا الله بعد أن أقوم بكل تلك الأمور ولسوف أسلكُ الطريق القويم من دون أن أحيد يميناً ولا شمالاً". هذا هو بالضبط ما تريدنا أرواحُ الشرّ أن نفعله. إنها تريدنا أن نؤجِّل خلاصَنا إلى الغد أو ما بعده وهكذا دواليك حتى نهاية حياتنا. أما الآباء القديسين فيقولون: "سِرْ مع الرب اليوم واتبعْه"!

٤- ليُعطِنا الربُّ نحن الصربيين والعالمَ أجمع القوةَ الروحية حتى نُحوِّل أنفسَنا. نحن نعرف بأن الوقت آخذٌ في الانقضاء، وأرواحُ الشرِّ تعرف ذلك أيضاً وهي تودّ ألا يتحرَّرَ إنسانٌ واحد من الأفكار الشريرة. ولكي تحقِّق هدفها هذا فهي تُلقِّن حتى الأولاد الصغار كيفية معارَضة والديهم حتى يصبحوا فرائسَ سهلة لها عندما يَشبّون. وباستطاعة المرء أن يرى ما تفعل أرواحُ الشرِّ بشُبانِنا وشاباتنا: إنهم يُهينون والديهم وغيرَهم من الناس البالغين، ولا سلامَ لهم.

ولكنَّ كل ذلك قابلٌ لأن يتحوَّل بالكامل نحو الخير إن ابتدأ كلُّ واحد منا بنفسه وابتدأ التحوُّلُ بنا. يجب أن نحاول اقتناء أفكار صالحة لتشعّ منا. فالناس يسرّون على الدوام برفقةِ الشخص الوديع والمتواضع لأنه ينشر حوله السلامَ والدفء. وقد لا يقول هذا الشخص كلمةً واحدة ومع ذلك نفرح لكونه حاضِراً معنا. وهكذا فإن بدأ كلُّ واحدٍ منا بنفسه فسيحدث التحوُّل. سوف يتجدَّد الصلاح ويستقرُّ فيما حولنا، في بلادنا وخارجها أيضاً.

كثيراً ما استمعتُ لأشخاص كبارٍ في السنِّ يُخبرون عمّا كنا عليه نحن الصربيين قبل حروب التحرير في العام ١٩١٢. كان جميعُ الكبار في السنّ يحملون مسابحَ صلاة ويُصلّون. بعد العام ١٩١٢ راحت الأمورُ تتدهور، وبعد الحرب العالمية الأولى أخذت كلُّ الأمور مَنحىً نحو الأسوأ. والذين يبلغون من العمر ما يكفي ليتذكَّروا ما كانت عليه الحياةُ بين الحربَين العالميَّتين الأولى والثانية يعلمون بأنَّ الفرق هائلٌ ما بين الأمس واليوم. أما أنا فيبدو لي بأن هذا العالم وكأنه قد خرج للتوّ من الجحيم!

٥- نحن كائنات شديدةُ الغرابة وكثيراً ما نتساءل بخصوصِ الأسرار التي تحوطنا. نعرف القليلَ عن العالم والحقيقة أن ما نعرفه قليلٌ جداً.

في البداية نحن سِرٌّ لأنفسنا. فمَن نحن؟ وما نحن؟ لمْ يطلب منا أحدٌ أن نولد ولن يطلب منا أحد أن نغادر هذه الحياة. مدة حياتِنا قصيرةٌ جداً ولكننا أُعطينا حتى خلال هذه الفترة القصيرة فُرَصاً كثيرة حتى نَكْمُل في الخير ونتوجَّه نحو **الخير المطلق**. وعندها فقط تتوسع آفاقُنا وتصبح بعضُ الأجوبة أكثر

وضوحاً لنا ومنها مثلاً: لمَ يوجد الكونُ؟ ولمَ هو على هذا الشكل؟ سوف نفهم أننا نحن السبب وأننا نحن المسؤولون عن حالة العالم اليوم. سوف نُدرك بأننا نُخرِّب السلامَ والمحبة والفرح بشكل متواصل. ورغم ذلك فعندما نتَّحد **بينبوع الحياة** سيصبح كلُّ شيء واضحاً. لقد دُعينا نحن المسيحيين لكي ننشر السلامَ الإلٰهي وجوَّ الفردوس. والقليلون جداً هم الذين يُدركون أننا هكذا يجب أن نكون: مصدرَ صَلاحٍ وسلامٍ وفرح.

٦- خَتمُ الروح القدس هو في قلبنا وهو يحمل ثمار حياتنا. الوداعة والسلام والقلب الرَّحيم والصلاحُ واللطف والإيمان والعفاف هي بعضُ ثمارِ الدموع التي نقدِّمها من القلب إلى المسيح. ونتائج هذه الدموع هي محبةُ الأعداء والصلاةُ المرفوعة إلى الرب من أجلهم. فالدموع تزوِّدنا بالقوة لنكون مبتهجين حتى في أزمنة المُعاناة الأليمة وفي التجارب، ولكي ننظرَ إلى خطايا الآخرين على أنها خطايانا ونتوبَ عنهم. كما تجعلنا الدموع قادرين على تقديم حياتنا من أجل أخينا.

٧- علَّمنا الآباءُ القديسون كيف نصوم. أما الذين يعانون من الضعف الجسدي والمرض فلا حاجة بهم لأن يصوموا بل يمكنهم تناولُ الأسرار المقدسة من دون صوم. أما نحن الأصحّاءَ جسدياً فيجب أن نتحضَّر للمناولة بالصوم. هذا يعني أن نأكل كميةً أقلّ وأن نتناول بعضَ أنواع الطعام لأننا بهذا نُهذِّب أجسادنا وأفكارنا. حين يتواضع الجسدُ تصبح أفكارنا أكثر سلاميةً هي الأخرى. هذا هو هدف الصوم. الله حاضرٌ بطريقة غامضة في كل كائنٍ وبشكل أخصّ في القلب الذي هو مركزُ الحياة. يستحيل أن نتَّحد بالله حين تكون المعدةُ ممتلئة لأن المعدة الممتلئة تولِّد قلقاً وهموماً كثيرة. يجب أن تكون كلُّ أفكارنا وكل مشاعرنا وكل إرادتنا متمركزة وإلاّ فسنكون مضطربين ونفقد سلامَنا.

٨- لقد أنعم الربُّ علينا جميعاً بالإرادة الحرَّة. وهو يَعلم كل شيء لأن الوقت عنده أمرٌ عَرضيّ. عند الله كلُّ الأبدية هي اليوم، اللحظةُ الحاضرة. ويستحيل علينا أن نفهم هذا الأمر لأننا محدودون. كل إنسان يأتي إلى هذا العالم هو فريدٌ من نوعه، وقد أُعطيتْ للجميع فرصةُ معرفةِ الله. ولكوننا نملك عطيةَ

الإرادة الحرَّة فإننا كثيراً ما نُسيء استعمالَها. إذ يتناول البعض الطعامَ باعتدالٍ بينما يأكل غيرُهم أكثر مما تحتاج إليه أجسادُهم. فيعيش المُعتدلون حياةً أطول ويتمتعون بصحة أفضل من الآخرين. والأمر نفسُه في الحياة الروحية: فللبعض أفكارٌ هادئة وسلامية، بينما لا يكتفي غيرُهم بذلك فيُسرِفون ويحتاجون أحياناً للارتطام بجدار حتى يعودوا أدراجهم إلى الطريق القويم!

٩- الرب يعرفُ كل شيء وقد عرَفَنا حتى قبل الحَبَل بنا. لهذا أعطانا وصيةَ الطاعة على يد موسى على جبل سيناء. وكانت هذه الوصيةُ بسببنا نحن الذين نحتاج إلى تقويم وليس بسبب الودعاء والمتواضعين الذين لا يحتاجون إليها. فوصية الطاعة ضروريةٌ لتقويم إرادتِنا ولوَضع إرادتنا الحرَّة على درب التواضع والاستقامةِ والمحبة. الطاعة ضرورية من أجل الحفاظ على التناغم.

الملائكة مُطيعون بالكلية وتناغُمُهم ومحبتُهم كامِلان. فجدير بنا نحن أيضاً أن نتبع مِثالَهم في الطاعة لأهلنا إذ يقول الآباءُ القديسون إنَّ الطاعة أعظمُ من الصوم والصلاة. هذا ما

عجزتُ عن فهمه تماماً في حداثتي. إن لم تكن لنا الطاعةُ فصَومنا باطِل.

نحن نعرف بأنَّ كلَّ عَطيةٍ صالحة تأتي من الروح القدس. وقد جعل الآباء القديسون أنفسَهم أهلاً لنَيل هذه العطايا عن طريق الصلاةِ والصوم. ولكنهم كانوا قبل أيّ شيء آخر مُطيعين.

١٠- يجب أن نتعلَّم الانحناءَ أمام إرادة الله وألا نتشبَّثَ بإرادتنا. وما الطاعةُ لإرادة الله سوى طاعتنا لشيوخِنا، ووالدينا ومُعلِّمينا ورؤسائنا في العمل... إن كانت لنا الطاعةُ فسنفهم ما المطلوبُ منا.

١١- تجعلنا حياتُنا على هذه الأرض مُستعبَدين على الدوام لأمورٍ مادية على عكس الملائكة تماماً. لقد أُعطيتْ لنا هذه الحياةُ لكي نتفقَّه عن الحياة الأبدية ونتعلَّمَ كيف نكون أحراراً، كيف نسير بحرية، بضميرٍ نقيّ وأفكارٍ طاهرة. حين نكون أحراراً تختفي المعاركُ الروحية أو الحروب ويكون النصرُ لنا لأننا أودَعْنا أنفسَنا بين يدَي الله، لأننا نَعبدُ الله في قلوبنا وقد

اتَّحدنا به ولم نعد نفكر في هذا العالم. هو الذي يُحدِّد حياتنا ونحن نقتبلُ كلَّ ما يأتينا وكأنه يأتينا من يده.

١٢- من لا يُضحِّ بذاته كحَمَلٍ مَسوق إلى الذبح من أجل [اقتناء] حتى أصغر الفضائل، ومَن لا يُعطِ دمَه لنيل الفضيلة، مثلُ هذا المرء لن يَقتني الفضيلة يوماً. لقد جعل اللهُ بعنايته الإلٰهية هذا الأمر: أننا نبلغُ الحياةَ الأبدية بموتنا الطوعيّ. فإنك إنْ لم تمُتْ مَوتاً طوعياً لن تتمكن من بلوغ الحياةِ الأبدية، وستموت. فمَن لم يَمُتْ مَوتاً كامِلاً بقطْع مشيئته الذاتية لن يدخل ملكوتَ السماوات.

إن استحققتَ أن تكون حاملَ الإلهِ فاحذرْ لئلا تقومَ بعملٍ غير لائق بإرادتِه القدوسة وإلا فسيرحلُ منك وستفقد الكنزَ الذي في داخلك. وَقِّرِ [اللهَ] في كل الأمور باذلاً كل جهودك في ذلك ولا تقبَلْ مُطلقاً، في داخل مَسكنه، أيَّ أمر يتعارض مع إرادته لئلا تُغضِبه ويرحلَ منك. لا تتكلمْ أو تُصَلِّ يوماً إن لم تكن أفكارُكَ مُركَّزة بوَرَعٍ تَمام التركيز. ولا تفكِّرْ يوماً: "لأُظهِرْ له الحرارةَ والمحبة الغَيورة لكي يعرف مِقدارَ ما أُحبه وأجلّه"، لأنه

يعرف أفكارَك حتى قبل أن تفكِّرَ بها. وليس من أمر يَخفى عليه.

إن تجاسرْتَ على استبقائِهِ بالقوة فستشعرُ للحال بالفراغ في داخلك لأنه غير مَوسوع. سوف يبتعد، وحتى لو شعرتَ بالندم وثُبتَ ذارِفاً الدموع فلن تُجديك دموعُك نفعاً. وهذا حقيقيُ لأنه **فرَحٌ** ولن يدخل مَسكناً مليئاً بالغمِّ والحزن، تماماً كما تمتنع النحلةُ المجتهدة عن الدخول إلى مكان مليءٍ بالدخان. ولكن إنْ تخلَّيتَ عن كل همومك وسَلَّمتَ ذاتك له بالكلية فسيأتي ويَسكنُ فيك من جديد.

لا تقلْ في نفسك يوماً: "إن لم أُصَلِّ بدموع فسوف يرحلُ مني كما مِن شَخص مُتراخٍ. إذ لو أرادَكَ اللهُ أن تبلغ الكمالَ بالنَّوح لكان راقبَكَ من بعيدٍ وأَخفى ذاتَه عنك بالكلية. ولكان حَثَّكَ على البكاء من أجل تطهير مَسكنِ قلبك. وأما الآن فبعد توبتِك والتطهير الذي حصلتَ عليه منه فقد أتى إليك لكي يمنحَكَ الراحة ويملأك فرحاً وسلاماً عوض الحزن.

فانتصبْ، ليس بجسدك، بل بحركاتِ روحِكَ وانعطافِها. رسِّخِ السكينةَ والصلاةَ الدائمة وهيّئْ بيت روحِك ليَدخل **مَلِكُ** الملوك. وأْمُر جميعَ عبيدك (أي أحاسيسك ومشاعرك) قائلاً: "**المَلِك** آتٍ، فانتصِبوا عند الأبواب، انتصِبوا بسلام ورِعدة". احذر لئلا يطرق اللصوصُ الأبواب. لا تسمح لأي صوت أكان من الداخل أو من الخارج بدخول حجرةِ **المَلِك**. احذرْ لئلا يخدعك أحدٌ ويَنسلَّ إلى الداخل إذ عندها سيغادر الملكُ مسكنك.

كن مُبتهجاً، عامِراً بالتهليل، ورغم ذلك حَذِراً ومُصغياً لما سيرتضي [**المَلِك**] بقولِه لك. هو لا يحتاج لأيٍّ من الخدمات التي يؤديها الخاضِعون له على غرار ملوكِ الأرض لأنه كاملٌ ولا عيبَ فيه.

١٣- نحن لا حياة لنا من أنفسنا بل أُعطيت لنا حياتُنا هِبةً... ومع ذلك فقد مُنحت لنا، كأفرادٍ، إرادةٌ حرة للاختيار. لو لم نكن نتمتع بإرادة حُرَّة لشابَهْنا الحيوانات ولما كنا مَسؤولين عن أعمالنا. يجب أن نعيش بالطريقة التي أعدَّنا اللهُ لها بما أنه وهبَنا عطيَّةَ الإرادة الحرة. نحن نستعمل عقولَنا المفكِّرة لتمييز الصواب

من الخطأ، فنحن نملك حُكْم اللهِ فينا الذي هو ضميرُنا. كل قضاةِ الأرض يمكن أن يرتشوا وأما حُكم الله، أي ضميرنا، فلا يمكن أن يُرتَشى. يمكن فقط أن يتجدد بالتوبة.

١٤- يصلّي الأولاد بالعادة إلى الله من أجل والديهم حين يكونون صغاراً. ونظراً لحداثة سنهم فإنهم يحصلون على النعمة. ثم حين يكبرون، وإذا شاء الله، فسيشعرون بالبهجة وبحالة من الغبطة اللتين هما ذَوقٌ مُسبَق لملكوت السماوات حيث سكنى الملائكة والقديسين. ويسمح الله بهذا الاستيقاظ الروحي الأول الذي ينالونه من دون جهاد حتى تشتاق نفوسُهم فيما بعد إلى البهجة والغبطة اللتين شعروا بهما. حين تكون النفس في هذه الحالة من الغبطة فإنها لا تعود تحتاج إلى أي شيء من هذا العالم.

تكون هذه الروح هادئةً ووديعة ولا تعرف الغضب إذ يكون الشخص في حالة النعمة. ولا يتمكَّن أحدٌ من استدراجه إلى الغضب. وفي وقت لاحق يُفترض بهذا الشخص أن يرفض الشرَّ إرادياً. يجب أن يهزم كل أعداء روحه وهو بعد في هذه الحياة.

أعداؤنا ليسوا من لحم ودم وإلاّ لأمكننا أن نختبئ منهم أو أن نهرب منهم، ولكن أعداءنا الروحيين هم في كل مكان. إنهم يوحون إلينا بأفكار غير متجذِّرة في المحبة ولا العفة ولا الصلاح ولا اللطف. هذه القوى العقلية أو الشياطين – التي تملك خصائصَ متنوعة تماماً كما نملك نحن البشر خصائص متنوعة – تزرع أفكاراً نجسة في رؤوسِنا بشكل متواصل، فتقول لنا بأن نستسلم إلى أهواءٍ جسدية، وإلى السرقة والحقد والحسد. وإن أصغينا إلى إيحاءاتها ومارسْناها فلسوف تصبح هذه الأهواء طبيعة ثانية لنا.

قال الرسول الإلٰهي: "الخيرُ الذي أريدُه لا أعمَلُه، والشرُّ الذي لا أريدُه أعمَلُه. فإذا كنتُ أعمَلُ ما لا أريدُه فما أنا الذي يعمَلُه بل الخطيئةُ التي تسكنُ فيَّ" (رو ٧: ١٩–٢٠). إنها القوَّةُ العقلية الشريرة التي تجذَّرت في قلوبنا وتعيش فينا، في أجسادنا. يحتاج المرء إلى حياة كاملة من الخبرة لكي يرفض الشرّ ويتحوَّل نحو **الصلاح** حتى لا يعود شيءٌ في هذا العالم يُضلُّنا عن الدرب الصحيح.

عاش القديسُ اسحق السوري في القرن السابع وعَمَّر طويلاً لأن حياته كانت فاضلة. ومما قاله: "احفَظْ سلامك الداخليّ بأي ثمن ولا تستبدلْه بأيِّ شيء في هذا العالم".

١٥- يجب أن نكون مُستعدّين لقبول مشيئَةِ الله. فالرب يسمح بأن نصادف كلَّ ما يتعارض مع مشيئتِنا، لأنه لو جَرتْ الأمور كما نريدها فلن نكون مُستعدّين لملكوت السماوات. فلا السماءُ ولا الأرض ستقتبلان أولئك الذين يتشبَّثون بفعل مشيئتهم. للهِ مخططٌ إلٰهي لكل واحدٍ منا ويجب أن نخضع لمخططه. يجب أن نقبل الحياة كما تُعطى لنا ومن دون أن نسأل: "لمَ يحدث هذا الأمر لي أنا بالذات؟" فلنعرفْ بأن لا شيء يحدث على الأرض أو في السماء من دون إرادة الله أو بسماح منه. فلا نستغرقنَّ كثيراً في ضيقاتنا، بل لنركِّزْ على المحافظة على سلامنا الداخلي. حين نصلّي [للحصول على] أمرٍ ما فإننا بهذا نحاول أن نفرض إرادتنا بدل أن ننصاع لإرادة الله. كل الضيقات والأحزان التي يرسلها لنا[٢٣] اللهُ هي ضرورية لنا ولكننا لا نفهم

٢٣- يعني الشيخ في الواقع أن الله "يسمح بأن تنزل بنا كل هذه الضيقات والأحزان" وخصوصاً لأنه تكلَّم قبل كلمات قليلة عن "سماح" الله. الرجاء مراجعة الفقرة ٢٢ لاحقاً في هذا الفصل وكذلك الفقرتين ٤ و١١ من الفصل التالي "في الإيمان"... (المترجمة).

ذلك في شبابنا. حين نتقدَّم في السنّ عندها نُدرك بأن الله يعتمد هذه الطريقة ليُظهر لنا محبتَه.

١٦- لقد تعرَّضتُ في حياتي لسقطاتٍ وأحزان ومشقات عديدة، ولكن كان يجب أن تكون الأمور على هذا النحو. يقول الآباء القديسون: "كيف نعرف بأن الله يحبنا حقاً إن كان لا يسمح بأن نجوز عبر مُعاناة وأحزان كثيرة؟"

يصاب الناسُ أحياناً باليأس والقنوط وهذا، بطريقة ما، نوعٌ من الكبرياء. فالشخص الذي يحب أمور هذا العالم لا بد أن يقوده ذلك إلى القنوط لأنه لن يجد اللهَ فيها. كل إنسان يشعر بالوحدة من حين إلى آخر حتى ولو كان في وسْط الناس، إلى أن تأتي اللحظة التي فيها يتحرَّر من أمور هذا العالم. عندها يأتي الله لتعزيته.

تشعر النفسُ بالوحدة لأن قوَّة النعمة تتضاءلُ فيها بسبب اهتمامها بأمور هذا العالم. لا يمكن أن يسير المرء في هذين الطريقَين معاً! إن لم تكن النفسُ متواضعة فلن تحصل على ملءِ نعمة الله لأنها إن حصلت على النعمة وهي في حالتها المُتكبِّرة

فلا بد أن ينتج عن ذلك شرٌّ عظيم كما حدث مع الأرواح الساقطة.

١٧- تشبه حياتُنا على الأرض عقاباً تأديبياً. لا تتفاجأوا من حدوث أمور سيئة على الدوام.

١٨- يراودني حنينٌ دائم للعودة إلى حالة النِّعمة التي كنتُ فيها وأنا راهب مبتدئ ولكني أعجز عن ذلك. رغم أني أحاول بصدق. عندما أحاول تظهر فجأة مشكلةٌ ما أو تنقض عليّ فكرة فينتهي بي المطاف وأنا مُكتئف بالهموم. ولكن الرب لا يحتقرنا حين يعاين الجهود التي نبذلها. ولسوف يمنحنا يوماً القوةَ لنتحرَّر من همومنا. يجب أن نلقي كل همومنا على الرب وأن نودعه حياتنا وحياة أحبائنا وسيكون كل شيء على ما يرام.

١٩- يجب أن يتعلَّم الناس. على الإنسان أن يحصِّل من العلم ما استطاع. ولكن المدرسة لا تثقِّف إلا عقولنا ولا تُلقِّننا الروحانية. معظم اللاهوتيين الذي يُدرِّسون في معاهدنا ومدارسنا اللاهوتية لا يعيشون كما يُدرِّسون بالرغم من ضرورة

كونهم قدوة لشبابنا، ولكن الأمر عكس ذلك. ولذا فالوضع في مدارسنا غير جيد.

تقدِّم المدرسة للمرء ثقافة عقلانية من دون روحانية. ولكن الشاب يجب أن يحظى بنموذج حيّ يتعلَّم منه لأن مثل هذه النماذج تعلِّم أكثر من الكلمات. فقد يسمع المرءُ الكثير من الأمور المفيدة للبنيان في الحياة وفي الروحانية، ولكن من غير المؤكد أنه سيكون قادراً على تطبيقها في حياته الشخصية. وأما حين يجد شخصاً وديعاً، ودوداً، لطيفاً، لا يستاء على الإطلاق، فإنه يودّ أن يشابهه... المثال الحيّ يُعلِّم أكثر من الكلمات.

المثال الحيّ لحياةٍ مَرضية لله يعزِّز المعرفة اللاهوتية ويُبرهنها عملياً. وليست هذه حال اللاهوت وحسب بل جميع أنواع المعرفة أيضاً. كل صنف من المعرفة نكتشفه في دراستنا هو عطية من الله لشعبه، وهو يُعلن حضورَ [الله] في هذا العالم. أما التطبيق العملي لما أُعطي للإنسان أن يعرفه فأمر مختلف تماماً. والأمر رهنٌ، كما أسلفتُ، بما إن كنا نحيا بحسب الله أو ضده. فتُستخدم معرفتنا إما لمنفعة الجنس البشري أو ضده. كل

معرفة أعطاها الله للجنس البشري هي لخيره ولم يُعطَ لنا شيءٌ من أجل تدميرنا. وأما إرادتنا الحرة التي فسدتْ وفقدت خوفها لله فهي التي حوَّلت المعرفة – الممنوحة للجنس البشري لخيره – إلى أمر شرير. ولهذا نحن نتألم كثيراً في هذا العالم.

٢٠- **سؤال:** ما هو الأمر الأكثر أهمية في حياة المرء الروحية؟

جواب: المحافظة على السلام في قلوبنا. امنعوا تعكُّر صفوِ هذا السلام بأي ثمن. يجب أن يملك السلامُ في قلوبنا، السلام والصمت.

الأفكار المشوّشة هي حالة الأرواح الساقطة (الشياطين والأرواح التي سقطت بعيداً عن الله). أما ذهننا فيجب أن يبقى مركَّزاً، كاملاً، ويقظاً. لا يقدر اللهُ أن يدخل سوى إلى ذهن كامل...

وإلى جانب المحافظة على السلام في قلوبكم تدرَّبوا على الوقوف أمام الرب. وهذا يعني أن نكون واعين في كل لحظة

بأننا واقفون في حضرَةِ الرب وأنه يراقبنا طوال الوقت. لنتعلَّمْ أن نستيقظ مع الرب وأن ننام معه وأن نأكل ونعمل ونسير معه. الرب حاضر في كل مكان وفي كل شيء.

نستطيع أن نجد ملكوت الله في داخلنا. يقول القديس اسحق السوري: "انزِلْ إلى داخل قلبك وهناك ستجد السلَّمَ التي تقودك إلى ملكوت الله".

يعلِّمنا الكتاب المقدس أن ملكوت الله هو ... حقٌ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس... (رو ١٤: ١٧). أول خطوة نحو الاتحاد بالله هي أن نقدِّم له ذاتنا بالكامل. بعد ذلك سوف تعمل فينا قوَّةُ (energy) الله.

الاتحاد بالله يعني أن الله قد جعل مقامه فينا، وأن قوته (energy) تعمل فينا. نفسُنا تلبس الله وهو يسود على كل أحاسيسنا وإرادتنا وذهننا. عندها نكون كالأداة في يدَيه. إنه يحرِّك أفكارنا ورغباتنا ومشاعرنا، ويُسدِّد كلامنا وعمل أيدينا.

٢١- الاتحاد بالله هو الحالة الطبيعية للروح. وهو السبب الذي لأجله خُلق الإنسان. وقد أبعد الإنسان نفسه، بالخطيئة، عن هذا النوع من الحياة، ولذا فعليه أن يجاهد ليبلغه من جديد. كل ما نفعله هو محاولة للعودة إلى حالتنا الأولى السليمة.

حين يجعل ملكوتُ الله مقامه في قلب أحدِهم عندها يكشف له اللهُ أسراراً كثيرة. وبمعونة [الله] سيصبح هذا الشخص قادراً على رؤية جوهر الأشياء وفَهمِ أسرارها.

كل المعرفة كامنة في الله. وحين يسمح، بمقتضى رحمته، فإنه يكشف هذه الأسرار لذهنِ أحدهم. وقد تُمنح حتى لراهبٍ بسيط وغير متعلِّم، برحمة الله، عطيةُ معرفة الأسرار العظيمة، أسرارِ الحياة والموت والفردوسِ والجحيمِ، وأن يتفقّه عن الترتيب الداخلي لأمور هذا العالم.

حين يدخل ملكوتُ الله إلى قلب إنسان يكون ذلك كما لو أن الله قد أزاح عن ذهنه قناعَ الجهل. وعندها يفهم ذلك الإنسان ليس فقط سرَّ المادة المخلوقة بل سرّ كيانه الشخصي أيضاً.

وأخيراً وفي لحظة واحدة مقدسة، سيكشف اللهُ له ذاتَه، في رحمته اللامتناهية. ولسوف يعاين ملكَ المجد تماماً كما يعاين انعكاسَ الشمس في المياه. في مثل هذه اللحظات يكون اللهُ والإنسان واحداً وروحُ الله يعمل فيه. مثل هذا الإنسان لا يعيش في العالم إلا بجسده بينما تسكن روحه في ملكوت الله مع الملائكة والقديسين، مُعايِنةً الله.

٢٢- يعرف الله تمام المعرفة ما يمكننا احتماله وما نعجز عن احتماله، وما سيسمح به وما لن يسمح به. **هو** يعلم إن كنا نملك القوة لمحاربة تجربةٍ ما، فيسمح لإحدى التجارب بمهاجمتنا حتى نواجهها بسلام. فيما بعد وعندما تواجهنا تجربة أخرى من النوع نفسه فإنها سترحل عنا لأننا لن نتعاون معها ولن نسمح لأفكارنا بأن تتخبَّط فيها.

تحصل الأحداث فنشتركُ فيها. وبدَلَ أن نحافظ على سلامنا تجدنا نتدخَّل في أمورٍ يجدر بنا أن نبقى بعيدين عنها. حين يسمح الرب، تأخذ بعضُ الأحداث مجراها. فإن كنا قد بلغنا

السلام، فستتابع سيرَها وتتجاوزنا من دون أن تمسَّنا. أما إن اشتركنا فيها فسوف نتألم.

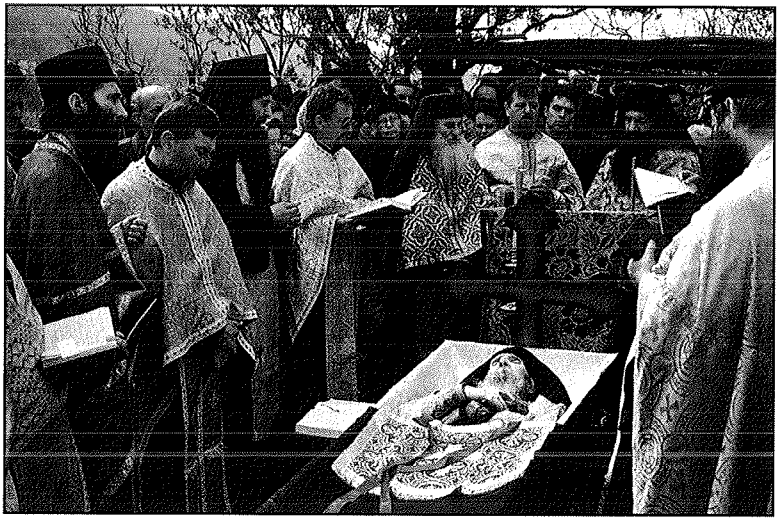
٢٣- يتركنا الله أحياناً نسبح في "مياه عميقة"[٢٤]، وحين نجد بأننا لم نعد نملك القوّة لمتابعة السباحة نصرخ: "خلِّصْني يا رب!" ولكن علينا أن نجدِّف بذراعينا مُحاولين على الأقل إبقاءَ رأسنا فوق المياه. إذ حين تصبح الأمور حرجة سيُخلِّصنا الرب كما خلَّص الرسول بطرس الإلٰهي.

٢٤- نحن أطفال، وكأطفال الآب السماوي، علينا أن نطلب المعونة من **أبينا**. ولكوننا ولدنا من أبوَين أرضيَّين فنحن نطلب منهما المعونة؛ ولكنهما يعانيان من القلق وعندهما هموم وتحوطهما الاضطرابات والصعوبات من كلِّ الأنواع. نلتفت إليهما طالبين الإرشاد والدعم ولكنهما لا يهتمّان بنا بل يقولان لنا: "عندك رأسٌ فوق كتفيك فاستعملْه. أنت إنسان ناضج". وأما **أبونا** السماوي فلا يتهرَّب من مساعدتنا على الإطلاق. إنه يهتمّ بنا على الدوام ويرشدنا على الدوام، إن كان قلبُنا متحداً به. أما

٢٤- المقصود مشكلة كبيرة أو صعوبة (المترجمة).

إذا سعَينا إلى معونةٍ ما في العالم فسيكون إيجادُها صعباً جداً. إنه ليعسُرُ جداً أن نجد إنساناً يكون واحداً معنا في العقل والفكر.

٢٥- تراقب أرواحُ الشرِّ عن كثب لترى ما إن كنا نولي أحلامَنا أهميةً أم لا. فهي تعلم أيَّ تأثير للأحلام في المرء وما يمكنها أن تفعل لإحْداث هذا التأثير. فإذا وجدتْ بأننا نُصدِّق أحلامنا ونعيش بترقّبٍ وخوف لما سنراه في الحلم، فستعمل عندها على تحقُّق بعضِ ما نراه في الحلم حتى ينتهي بنا المطاف بأن نفقد الصلة بالواقع ونصبح عاجزين عن العيش.



مراسيم دفن الشيخ تدّاوس في دير فيتوفنيكا

الفصل الحادي عشر

في الإيمان

١- يقول البعض إنهم ملحدون ولكن لا وجود للملحدين... لا وجود لهذا الأمر. لأنه حتى الشيطان يؤمن ويرتعد (راجع يع ٢: ١٩) ولكنه يرفض أن يفعل الخير. لا وجود لشخص لا يؤمن بالله، وليس من إنسانٍ عاقل على سطح الأرض لا يتوق إلى الحياة من كل قلبه. نحن نبذل كلَّ ما نستطيع لكي نعيش إلى الأبد. وكلنا نتوق إلى المحبة الكاملة، المحبةِ التي لا تتغيَّر على الإطلاق بل تدوم إلى الأبد. الله **هو** الحياة و**هو** المحبة والسلام والفرح. هناك مَن يعارضونه ولكنهم لا يقدرون أن يسيئوا إليه. نحن نعقِّد حياتنا بأنفسنا، بأفكارنا السلبية.

٢- لا يمكن لأحد أن يخلِّصنا ما عدا الذي خلقَنا. ولقد كان بإمكان الرب أن يحقق خلاصَنا بطريقة أخرى لأنه العَليُّ والكليُّ القدرة. ولكنه اختار أن يلبس طبيعتَنا البشرية وأن يُظهِر

لنا بمثاله الخاص طريقَ الحق. ولو أنه اختار أية طريقة أخرى ليخلِّصنا بها لَقُلْنا له: "أنتَ الله الكليُّ القدرة ولم تكن يوماً بشراً مثلي. لم تشعرْ يوماً بالجوع أو العطش، ولم تكن يوماً حزيناً أو مُغتمّاً". لهذا لبسَ الله الطبيعة البشرية بكاملها. وقد دوَّن الرسلُ في الكتاب المقدس بأن حياة الرب الأرضية قد احتوت على لحظات حزينة أكثر بكثير من اللحظات السّارة. لم يرَه أحدٌ يضحك يوماً كما نضحك نحن حين نكون مُبتهجين، بل كان مُغتمّاً على الدوام بسبب خطايانا، وقد حملها كلّها. وما زال يحمل اليوم أيضاً عبء خطايانا. ولكننا لم نقبله رغم أنه كان إنساناً مماثلاً لنا في كل شيء، بالطبع ما عدا الخطيئة.

٣- لكلٍّ منا في هذه الحياة عمله الخاص. فإن كنا نحن البشر الحقيرين نعرف كيف نقوم بأشغالنا ونضع الأمور في أماكنها الملائمة، تخيَّلوا كم يعرف **هو** - المالئُ الكل والمعتني بالعالم أجمع - عن كل شيءٍ في العالم، كبيراً كان أم صغيراً. ليس الرب إلٰهَ الأمور العظيمة وحسب بل إلٰه الأمور الصغيرة أيضاً، وحتى تلك الأصغر من الذرَّة. **إنه** الله وخالق كل شيء. وهو يعرف كيف يسود على كل الأمور. وعمَلنا هو أن نطيعه

ونكون وإياه ذا فكر واحد لأنه يبتغي أن يعود إليه قطيعُه العاقل الذي ضلَّ بعيداً عنه وعن محبته. ولكن الأمر صعب جداً علينا.

٤- لا يحدث أمرٌ واحد في العالم ولا في الكون من دون إرادة الله أو بسماحٍ منه. فكل ما هو صالح وسامٍ هو إرادة الله، وكل ما هو سلبيٌّ وسيئ يحدث لأن [الله] يسمح به. هو يعلم لمَ يسمح بحدوث هذه الأمور وحتى متى ستستمر. لو أُعطي لنا نحن البشر أو القوات الملائكية غير المتجسِّمة، أن نفعل كلَّ ما نريد، لحلَّت الفوضى التامّة في العالم وفي الكون بأسره. ولكن الله حاضرٌ في كل مكان، وهو **النور**، **النور** الذي ينفذ إلى كل شيء.

٥- لا يمكن القول بأن المسيحية ديانة. فالمسيحية كَشفٌ للأبدية والحياة. ويفرح الملائكة فرحاً عظيماً لأن الله قد كشف نفسه أسرارياً للإنسان، خليقتِه. لقد أصبحت طبيعتُنا البشرية جزءاً من سرّ الثالوث القدوس، وهذه عطيَّةٌ عظيمة نحن لا نُقدِّر قيمتها، وبدلاً من ذلك فقد التصقنا بأمور هذا العالم. لقد

أُعطيت لنا فرصة تهيئةِ أنفسنا للأبدية والغلبةِ على الشرّ ولنكون على الدوام مع **أبينا** السماوي.

٦- كل ما هو حيٌّ يسعى إلى الحب: الإنسان والحيوان والنباتات. كل البشر يسعَون إلى الله ويتوقون إليه، مؤمنين كانوا أم غيرَ مؤمنين. يقول بعض الناس إنهم ملحدون ولكنهم يجهلون أنهم يَتوقون إلى الله في قلوبهم. إذ حين يحنُّ المرءُ إلى العدل والمحبة والحق فهو بالحقيقة يحنُّ إلى الله. كل البشر يتوقون إلى الحب الذي لا يتغير والعدلِ الذي يبقى على الدوام دون تبدّل. كل ما هو حيّ يتوق إلى الله. الفرق الوحيد هو أن البعض يعارضونه بخلاف البعض الآخر. بعضهم يحنّون إليه بطريقةٍ واعية وأما غيرهم فلا يعون بأن حنينهم هو بالحقيقة إلى الله.

٧- لن يكون هناك "نوم" بانتظار المجيء الثاني للمسيح، كما تُعلِّم بعض الشِّيَع[٢٥]. فكيف تنام الروح؟ إنها صاحية ونشيطة على الدوام. وأما أجسادنا فتعجز عن اللحاق

٢٥- إنها العقيدة المغلوطة التي يعلّمها شهود يهوه والسبتيون وغيرهم والتي تقول إن الروح "تنام" بعد الموت أو تكون "غير واعية". أنظر:
Fr. Seraphim Rose, *The Soul After Death,* 4th. ed. (Platina, Calif.: St. Herman of Alaska Brotherhood, 2004), pp. 102n, 237-41, 249.

بالروح في نشاطها هذا وتحتاج إلى النوم. خلال النوم يكون الجسد والروح منفصلَين نوعاً ما لفترة من الزمن يرتاح فيها الجسدُ ويجدِّد طاقته. في ذلك الحين تكون الروح في عالم خاصٍ بها حيث يمكن أن تدخل في اتصال مع أرواح الراقدين ومع عوالم روحية. ونادراً جداً ما نتذكر أحلامَنا حين استيقاظنا من النوم. وهناك أيضاً بالطبع الأحلام التي فيها تُعيد الروحُ إنتاج ما تراه وتفعله في اليقظة.

٨- سأخبركم بكلمات قليلة عمّا تنص عليه قوانينُ الكنيسة المقدسة التي كتبها الآباء القديسون بخصوص الذين حُرموا مؤقتاً مِن المناولة المقدسة. فالكنيسة لا تسمح للذين ارتكبوا فِعل القتل بالاقتراب من كأس المناولة إلى أن يتوبوا. وعلى حدٍ سواء لا تُعطى المناولة المقدسة للذين يتعاطَون الممارسات الماورائية مثل الشعوذة ومَن يقال لهم بشكل شائع الوسطاء والسَّحَرة، إلى أن يتوبوا. كما تُفرَض على النساء اللواتي خضعن للإجهاض فترةٌ من التوبة فيها يمتنعن عن المناولة المقدسة إلى أن يَتُبن. إنها لخطيئة عظيمة أمام الله وعلَّةٌ جعلت مصائبَ رهيبة تحلّ بأُمَّتنا. كما تحظِّر الكنيسة المناولةَ المقدسة

على أولئك الذين ليسوا في سلام مع أصدقائهم وعائلاتهم، الذين يَكنّون الحقد لأحد جيرانهم ولم يَصفحوا له. فالرب يُحظر على مثل هؤلاء الاقتراب من الكأس المقدسة لأننا كلنا صُنع يديه وجميعنا ننتمي إليه. فإن ابتغينا الحياة الأبدية معه وجبَ أن نغفر لجميع الناس من القلب.

وهكذا يا أحبائي، اقتربوا [من الكأس المقدسة] بقلب سلاميّ وأحاسيس طاهرة وضميرٍ نقي لكي تقتبلوا جسد الرب ودمه الأكثر طهراً. يمكنكم أن تدركوا ما كانت مشيئة الرب بخصوصنا: أن نكون على مثاله ليس في النفس وحسب بل في الجسد أيضاً. نحن خاصّته بالجسد والنفس والروح[٢٦]. وهو يعطينا ذاته بالكامل. أترون كيف يعطينا ذاته من دون تحفظ؟ إنه يعطينا جسدَه الأطهر ودمه الأثمن لكي نحصل على الحياة الأبدية ونكون في شركة معه. لهذا يريدنا أن نقتني قلباً طاهراً ونشابهَ الملائكة والقديسين. ولذا علينا أن نغفر لجميع الناس من القلب لأن كل شيء هو لله. يجب ألا تكون لنا فكرة سلبية واحدة

٢٦- هنا تشير كلمة "النفس" إلى أعلى ملَكة في الروح: النوس (راجع الحاشية رقم ١٣ في الجزء الأول من الكتاب).

حين نقتبل الرب. فإن اقتبلنا الرب وكنا نُغذي في الآن نفسه أفكاراً مُبغِضة تجاه أحد إخوتنا لا نكون نقتبله لخلاصنا بل لدينونتنا. وهكذا يا أولادي ليفحصْ كلٌ منكم ذاته عند الاقتراب من الكأس المقدسة.

٩- لقد اعتمدْنا في المسيح ربِّنا. نحن مسيحيون بالشكل فقط ولسنا كما يريدنا اللهُ أن نكون. ليس فينا شيءٌ صالح. لا يمكن أن يكون فينا شيءٌ صالح ما دمنا نفكر أفكاراً سلبية ونغضب ونحتقر قريبنا. نقرأ الكتب ولكننا لا نفهم. مَن هو الفيلسوف أو العالِم الذي استطاع أن يقول عن نفسه: "أنا هو الطريقُ والحقُّ والحياة" (يوحنا ١٤: ٦)؟ لا أحد. لم يستطع أحدهم أن يقول يوماً: "أنا هو خبزُ الحياة" (يوحنا ٦: ٣٥) أو "من يؤمن بي فله الحياة الأبدية" (راجع يوحنا ٣: ١٦). الناس ضيِّقو الأفق إلى حد بعيد ولا يفهمون سوى النذر اليسير. هم أقرب إلى الأكاذيب منهم إلى الحقيقة.

١٠- لقد دُعينا للقيام بالأعمال الصالحة ولكن خلاصَنا لن يكون بالأعمال الصالحة. ولو كنا سنخلص بأعمالنا لما احتاج الربُ أن ينزل ليُخلِّصنا. نحن مخلَّصون برحمة الله

وحدها. نعمة الله هي التي تُخلِّص. الرب يُخلِّص. قد نتلقى مكافأةً على أعمالنا الصالحة وأما الخلاص فهو من الله.

١١- لم نودِعْ أنفسنا لإرادة الله. نحن نظن بأن كل شيء هو في أيدينا وعلينا أن نقرر بشأن كل الأمور لأن الله منشغلٌ بأشياء أخرى في هذا العالم. وكثيراً ما نتساءل: "هل سيفكر بنا؟". هذا يعني بأن إيماننا ضعيف جداً وثقتَنا بالرب ضعيفة جداً. الله يفكر في كل شيء ويسدُّ حاجات كل الناس. يجب أن تكون أعينُنا مُثبتة عليه لأنه يقول: "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدكَ ويعرفوا يسوع المسيح الذي أرسلتَه" (يوحنا ١٧: ٣). هذا يعني أن كل حدثٍ وكلَّ تفصيل دقيق فيما حولنا وفينا يكشف عناية الرب الإلٰهية وسماحَه. لا يحدث أمرٌ في الكون كله من دون إرادة الله أو سماح منه. كل ما نجده صالحاً ومتناغماً هو ثمرة إرادة الله. وأما ما هو في حالة من الفوضى فالله يعلم لمَ هو كذلك ولمَ سمح به. هو يضع الحدود. يكفي أن نعرف بأنه حاضرٌ في كل مكان.

الفصل الثاني عشر
في السلام الداخلي

١- يجب أن نقدِّم ذواتنا للرب. أن نودعه أنفسنا وكلَّ ما نملك لأنه حاضر على الدوام. وهو يريدنا أن نكون في هدوء وسلام وألا تكون لنا هموم على الإطلاق. هذا يعني أن على القلب أن يحفظ الصمت. يوصينا الآباء القديسون بأن على النوس أن ينزل إلى داخل القلب. هذا هو مكان النوس، من دون أية أفكار أو تخيلات. كما يوصي الآباء القديسون بأن نشغل النوس بصلاة يسوع. فلتُردِّدْ أذهانُنا على الدوام صلاة يسوع لأنه حاضر على الدوام، ولنكنْ في شركة متواصلة معه.

٢- نعرف أن الرب حين كان في الجسد كان لطيفاً مع كل الناس وحتى مع الذين اضطهدوه، هو اللهُ الكلي القدرة. وقد أرانا كيف نتجنب الشرّ ولا نقاومه وقد قال ذلك بنفسه (راجع متى ٥: ٣٩). فإن عدم مقاومة الشر يعني المحافظة على السلام الداخلي. أما مقاومة الشرّ فهي شرّ. إنها تحوي رغبة ردِّ الشرّ

بالشر، الأمر الذي تنشده الأرواحُ الساقطة وتفرح به. وأما حين تهاجمنا ولا تجد مقاومة من قِبَلنا فإن سكينتنا تُجرِّدها من سلاحها فتنهزم. ولذا فلنحاولْ أن نصلي على الدوام هكذا: "يا رب، أَعِنّي على حفظ سلامي الداخلي. علّمني كيف أكون هادئاً، سلامياً ولطيفاً، تماماً مثل ملائكتك".

ولكي نتمكن من القيام بذلك يجب أن نكون مع الرب في أفكارنا بشكل متواصل. هل تلاحظون بأننا نوجِّه كل أفكارنا وكل انتباهنا نحو الذين نحبهم؟ وهذا ما يجب أن نفعله بالضبط مع الله لأنه لكونه **أبانا** فله الحق بمطالبتنا بأن نعيد إليه ما قد أعطانا. وهذا لمنفعتنا، لكي نشارك في الفرح الإلٰهي والسلام الإلٰهي والحياة الإلٰهية. فلنتعلَّم أن نتوجَّه إلى الله ونطلبه في الصلاة دون انقطاع.

٣- يوصينا الآباء القديسون بالمحافظة على سلامنا الداخلي بأي ثمن، وبأن نكون فرحين على الدوام وفي مزاج جيد على الدوام. ومع ذلك يقول القديس يوحنا كرونشتادت: "نحن مثل الطقس، الآن تهبّ الريح وتثور العاصفة، يقصف الرعد

ويلمع البرق وينهمر المطر؛ ولكن بعد ذلك تظهر الشمسُ ونشعر أننا بحالة جيدة. فيما بعد تهبّ عاصفةٌ جديدة وهكذا دواليك". ويذهب إلى القول بأننا ما دمنا في الجسد فإن الظروف المناخية تؤثر فينا أشدّ التأثير. إذ حين تكون الظروف مؤاتية ولا يكون الضغط الجويّ عالياً جداً ولا منخفضاً جداً، وحين يكون الطقس جميلاً، عندها نشعر نحن أيضاً بأننا بحالة جيدة. ولكن حين تكون السماء رمادية وغائمة نصابُ بالإحباط. علينا أن نتعلّم كيفية المحافظة على توازننا الروحي، وحين يكون الطقس غائماً وعاصفاً، يجب أن نكون مبتهجين وفي سلام.

لنحاولْ أن نكون في مزاج جيد على الدوام وفرحين على الدوام لأن أرواح الشرّ تريدنا أن نكون مكتئبين طوال الوقت.

٤- جاهدوا لكي يحلّ السلامُ في منازلكم. فالسلام يبدأ بكل واحدٍ منا. حين يكون لنا سلام في داخلنا، فإننا ننشره فيما حولنا وننقله للآخرين. بإمكانكم أن تعاينوا بأنفسكم أن هناك قلة قليلة جداً من النفوس المتواضعة والوديعة على هذه الأرض، ولكنها أيضاً مبارَكة بالفعل. لن يستاءوا إن أهنتموهم بأي شكل

من الأشكال. ومهما كانت الطريقة التي تعاملونهم بها فستجدونهم هادئين وسلاميين، ولسوف يحزنون بصدق لأنكم في مثل هذا العذاب الروحي.

٥- نحن نخرق قانون الله على الدوام. نعرف بأن السلطات الأرضية تعاقب على التعديات على القانون المدني، وأنَّ خرقَ القانون المدني قد يستتبع نتائج تدوم أحياناً مدى الحياة. فالتعديات الروحية تؤدي إلى تبعات أعظم أيضاً. لن يحلّ السلام في العالم ما لم يحلّ السلام الداخليّ في كل واحد منا.

٦- ما أكثر ما نحتاج إلى النظر عميقاً في داخل ذواتنا كما قال القديس سيرافيم ساروفسكي، ونسأل: "أين أنا؟"، لكي نقتني السلام الداخلي وخلاصَ نفوسنا. وفيما نفعل ذلك يجب أن نحرص على حفظ حواسّنا، وبالأخص أعيننا، من أجل منفعتنا الروحية. فإن عطايا النعمة لا تُمنح سوى للذين يعملون للحصول عليها عن طريق حِفظ نفوسهم دون انقطاع.

٧- كيف نعرف إن كنا نحيا بحسب مشيئة الله أم لا؟
إن شعرتَ بالحزن لأيِّ سبب فهذا يعني بأنك لم تسلِّم نفسك لله رغم أن الظاهر قد يدل على ذلك. فالذي يحيا بحسب مشيئة الله لا يشعر بأي قلق. وحين يحتاج إلى أمرٍ ما، فإنه يصلي للحصول عليه. وإن لم يحصل على ما طلبه فهو يفرح كما لو حصل عليه. النفس التي قدّمت ذاتها لله لا تخاف من شيء على الإطلاق، ولا حتى من اللصوص أو المرض أو الموت. ومهما حدث تقول: "كانت هذه مشيئة الله".

٨- لقد أُعطيت لنا هنا على الأرض فرصة إحراز الغلبة على كل شرّ، عن طريق السلام والسكينة. بإمكاننا أن نكون في سلام حين نعيش في بيئة سلاميّة وهادئة ولكن سلامنا هذا ليس ثابتاً ولا مستديماً بقدر السلام الذي نكتسبه حين نعيش في ظروف مضطربة. عندما تنتقلون من بيئة هادئة إلى بيئة مضطربة يتغيَّر مزاجُكم على الفور وتصبحون سريعي الغضب: للحال تهاجمكم أفكارٌ شريرة ويصبح ذهنكم في الجحيم. إنها نهاية سلامكم. لهذا يقودنا الرب من خلال عذابات وآلام لكي

نكتسب من خلالها السلامَ الحقيقي. من دون الرب لن تكون لنا القوة على تجاوز هذه الأمور.

ولنا مثال القديسة الشهيدة كاترينا التي تألمتْ من أجل المسيح وهي فتيّة جداً، في الثامنة عشرة من عمرها. وقد ألقاها مُعذِّبوها في زنزانة بعد أن قاست كل أنواع العذاب وكانت محطّمة، فظهر لها الرب. وحين سألته: "يا رب، أين كنتَ كل ذلك الوقت؟" أجابها: "كنتُ هنا طوال الوقت، في قلبكِ". فسألتْ: "كيف يمكن ذلك يا رب، وقلبي مدنَّس ومَليء بالشرّ والكبرياء؟" فأجاب الرب: "نعم، ولكنكِ تركتِ لي فيه مكاناً. ولو لم أكن معكِ لما استطعتِ أن تحتملي كل تلك العذابات. وسوف أعطيكِ القوة لتصمدي حتى النهاية".

يقول الآباء القديسون: "نعرف بأن الله يحبنا حين يُدخِلنا في عذابات ونوائب كثيرة".

يقول الرب **وهو** الطريق والحق والحياة (يو ١٤: ٦): "سلامًا أترُكُ لكُم وسلامي أُعطيكُم، لا كما يعطيه العالمُ أُعطيكُم أنا. فلا تضطربْ قلوبُكم ولا تفزعْ" (يو ١٤: ٢٧).

٩- يجب أن تتعلَّموا محبةَ الأمور الصغيرة. حاولوا على الدوام أن تكونوا متواضعين وبسطاء في كل شيء. حين تتضح الروح يمنحها اللهُ السلام. الرب ينظر إلينا ويسرّ حين نتوق إلى سلامه. وحتى يحين الوقت الذي فيه تصبح الروحُ ناضجة بما فيه الكفاية لكي تستقبل الرب، فإنه يَسمح لها من وقت لآخر فقط، بأن ترى وتشعر بأنه حاضرٌ في كل مكان ويملأ الكلّ. هذه هنيهات من الابتهاج الذي لا يوصف. ولكن الله يعود ويُخفي ذاته عنا من جديد لكي نتوق إليه ونطلبه من كل قلبنا.

١٠- روحنا حزينة، فكلُّ شيء كئيبٌ ومؤلم. لقد اختبرتم بأنفسكم: أنكم حين تكونون في حالة من السلام يكون كلُّ شيء جيداً. ولكنَّ سلاماً كهذا لا يدوم طويلاً، هنا في هذه الحياة. إنه يتعكَّر بسهولة كبيرة. لهذا يجب أن نبقى في اتصالٍ دائم مع **ينبوع** الحياة، مع الله، اتصالٍ دائم لا ينقطع. حالما يتشوَّش سلامنا الداخلي يجب أن نطلب معونته على الفور، تماماً كما يصرخ الطفلُ منادياً أمه ما أن ينفصل عنها لأنه يخاف من البقاء وحيداً. والحال هي نفسها مع روحنا: حين تجد بأنها وحيدة (منفصلة عن الرب) فإنها تتألم بشدة. وأما حين تكون متَّحدة

بالرب فكلّ شيء يكون على ما يرام مهما عظمتْ المصائبُ التي تحلّ بها. وتتجاوز الروح كلَّ المصاعب لأنها مبتهجة لكونها مع الرب، وهي تشعر بفرح وسلام إلٰهيَّين.

تعلم الروح بأن عليها أن تمرّ عبر النار والماء في هذا العالم لكي ترتفع فوق أمور هذا العالم التافهة التي تعذِّبنا. وأكثر ما يعذِّبنا هي أفكارنا. إذ تدفعنا الأفكار للقيام بكل أنواع الأعمال، ثم نفقد سلامنا ويعذِّبنا ضميرنا. وما وخزات الضمير هذه سوى دينونة الله في داخلنا. ولهذا علينا أن نصالح **أبانا** السماوي ونتوجَّه إليه من كل قلبنا سائلين إياه أن يصفح لنا ويهبَنا من نعمته وقوته الإلٰهية لكي نبقى على الدوام في سلام وفرح، على غرار الملائكة والقديسين، آمين.

١١- لقد أسبغ اللهُ علينا عطايا كثيرة ولكننا لا نعرف كيف نعيش، فنخلق الجحيمَ في داخلنا وفيما حولنا. روى مرة الأسقفُ نيكولاي فيليميروفيتش قصة كاهن لا ينفك عن طلب نقله إلى رعية أخرى. وقد أجاب الأسقف نيكولاي التماسه بعد

مدة من الزمن قائلا: "يا أبتِ إنه ليسرّني أن أجيب رغبتك في الانتقال شرط ألا تنقل نفسك إلى هناك!"[٢٧]

١٢- مَن كان في قبضة الأرواح الشريرة يشعر بسلام مزيف يسود في نفسه على الدوام لأن الشرير لا يجرِّبه في شيء. جميعنا نمرّ في فترات من السلام والهدوء، ولكن أيضاً في فترات من الحرب. ويسمح الربُّ بذلك حتى نصبح مُتمرِّسين تماماً في الحرب الروحية ونتعلَّمَ كيف نتغلب على الشرير. ولكن ينبغي أن يمر وقتٌ طويل قبل أن نحوز القدرة على التغلب على سِمة سيئة كانت جزءاً من شخصيتنا لسنوات كثيرة بدءاً من الطفولة. في هذه الحال نحن بحاجة إلى مستشار روحي مُختبَر سبق له أن تجاوز كل هذه المراحل من الحياة الروحية. وسوف يعلِّمنا الأبُّ الروحي أو المرشد كيفية السيطرة على مثل هذه السمات وكيف ننتصر ونحفظ السلام الداخلي.

٢٧- كان القديس نيقولاي (ميليروفيتش) يلمح إلى أن الكاهن سوف يكون حزيناً أيضاً في رعية أخرى كما هو الآن، إذ ليس المكان هو الذي يضايقه بل بالحري حالته الداخلية.

يقول القديس اسحق السوري: "احفظْ سلامك الداخليّ بأي ثمن. ولا تستبدلْه بأي شيء في العالم. تسالمْ مع نفسك وسوف تسالِمُك السماءُ والأرض".

١٣- يجب أن نكون يقظين على الدوام. فحاجتنا هي إلى اليقظة والتمييز. وقد قال الرب ليشوع بن نون: "مهما فعلتَ، تأملْ فيه ليلَ نهار" (راجع يش ١: ٨).

إن ظننّا في البداية أن ما نحن على وشك التفوّه به سوف ينفع أحدهم ثم تأكّدنا - بعدما لجأنا إلى تمييزنا - بأن كلامنا سوف يؤذي الشخص الآخر ليس إلا، فالأفضل لنا عند ذلك أن نبقى صامتين. يجب أن نفعل كل شيء بتمييز. حين يستعمل المرءُ تمييزه عندها يكون يقظاً أيضاً. واليقظة مطلوبة في الصلاة أيضاً، فعلى انتباهنا أن يسبق صلاتنا. علينا أن نعرف ما نطلب في الصلاة. أرأيتم؟ حين نطلب من أحدهم خدمة نقول له: "أعرفُ أن بإمكانك أن تساعدني إن بذلتَ جهدك في ذلك". هذا يعني بأن اهتمامنا ينصبّ على الكلمات التي نتفوّه بها حين نطلب المساعدة.

فإن كانت هذه هي حالنا حين نتوجَّه إلى أحدهم طالبين مساعدته، فكيف بالحري ينبغي أن يكون انتباهُنا مركَّزاً أكثر حين نصلّي إلى الله، الذي هو حياتنا! ولكننا وجدنا سُبلاً لتقصير قانون صلاتنا: فنحن نتلو صلواتنا عن ظهر قلب أو نقرأها في كتاب من دون أن تشارك قلوبُنا وأحاسيسنا في مثل هذه الصلاة، وينتهي بنا الأمر أننا كثيراً ما نجهل أيضاً ما قرأناه.

١٤- يمكننا أن نذهب حيثما نشاء وأن نفعل ما نشاء، ولكن هذه ليست الحرية. الحرية مِلكٌ لله. الحرية هي أن يكون المرء حرّاً من طُغيان الأفكار. الحرية هي أن يعيش المرء بسلام. حين يعيش في الصلاة على الدوام وينتظر المعونةَ من الرب على الدوام، يُصغي إلى ضميره ويقوم بأفضل ما يمكنه. يجب أن نصلّي بكل كياننا، أن نعمل بكل كياننا، وأن نفعل كل شيء بكل كياننا. وعلينا أيضاً ألا نكون في حرب مع أحد، وألا ندع أية إساءةٍ تؤثر فينا بالعمق. لندع الأمور كما هي. اليوم أساء إلينا فلانٌ، من يعلم من سيُسيء إلينا في الغد؟ وبدل أن نفكر بشكل دائم في هذه الإهانات، لننْسَها. يجب ألا ندعها تؤثر فينا بالعمق، وإلا فسيحاول العدو أن يقوم بها من جديد. أما إذا تركنا

الإهانةَ ترتدّ عنا وبقينا في سلام، عندها سيكفّ الناسُ عن محاولة الإساءة إلينا. ولسوف يسألكَ الناس: "كيف يَعقل أنك في سلام على الدوام؟ فكل الآخرين عصبيّون ويتأثرون بسرعة من الإهانة بينما يبدو عليكَ بأن شيئاً لا يهمّك في هذه الحياة. كيف أصبحتَ على هذه الحال؟ كيف يمكنك أن تحافظ على كل هذا الهدوء؟" نعم، هكذا يحمينا الربُّ من كل أذى.

الفصل الثالث عشر

عن الملكوت الروحي

١- حين كنتُ في كنيسة رعية (Vlashki Dol) قدِم رجلٌ ليراني ويروي لي قصته. هذا ما رواه لي:

كان جالساً على درجات منزله، متعباً بعد يوم عملٍ طويل في الحقول وفجأة ظهر أمامه من العدم رجلٌ غريب. فظنَّ بأنه ضيفٌ قد أتى على غفلة ليزوره في منزله. ولكن الرجل الغريب دعاه ليسير معه، وابتعد به. ولم تكن للرجل أدنى فكرةٍ عن المكان الذي يقوده إليه الغريب. وفيما هما سائران ظهرت امرأةٌ أمامهما فجأة، وكانت طافحة بالنور. وحالما سألتْ: "إلى أين تأخذه؟" اختفى الغريب. ثم سألت الرجلَ المُتحيِّر: "هل تعلم أين أنت؟" فأجاب بالنفي. وعندها صفعته وكرَّرتْ عليه السؤال فاستمرّ في جهله المكان الذي هو فيه. وبعدما صفعته ثانيةً تعرَّف إلى منزله والحقولِ المحيطة. فطلبت منه أن يذهب إلى بيته. وأراد الرجل أن يشكرها لكنها كانت قد اختفت. فذهب إلى

بيته وكان أول ما سألته امرأته إياه هو: "ماذا يُطوِّق عنقك؟" فالتفت ووجد بأنها أنشوطة. كان الغريب – والواضح أنه شيطان – يقتاده بعيداً عن منزله ليجعله يشنق نفسه. وقد طلب مني الرجل أن أعطيه أيقونة ورقية صغيرة لوالدة الإله الكلية القداسة لأنه كان واثقاً بأنها هي التي أنقذته.

وهكذا نرى بأن الله يسمح أحياناً حتى بأن تظهر لنا والدةُ الإله الكلية القداسة وتنجّينا.

٢- لا يمكن للإنسان المادي أن يفهم إنساناً روحياً. فكل ما يقوله الإنسانُ الروحي يراه الإنسان الماديّ وهماً وخيالاً لأن المنطق السماوي مختلفٌ بالكلية عن منطق هذا العالم. ورغم ذلك فإذا تحدث أحدُهم إلى شخص ماديّ فقد يستنتج بأن هناك في الحقيقة ما يحرِّك العالم، وأن هناك تناغماً في الكون وتنافراً على الأرض.

ولذا فقد دُعي أبناءُ النور ليُشِعوّا بحياتهم إلى أقصى حدٍ ممكن، وينشروا النورَ في كل مكان. فقد قال الرب: جئتُ لألقيَ

ناراً على الأرض وكم أتمنى لو تكون اشتعلتْ" (لو ١٢: ٤٩). هذه النار هي الحبُّ الإلٰهي.

وقد دُعينا نحن المسيحيين لننشر على الأرض مناخَ السماء والأبديةِ والحبِّ والسلام والحق والهدوء. ولكن ذلك من الصعوبة بمكان لكوننا قد تعلَّمنا منذ فتوّتنا الغضبَ والعصيان وغدَونا معتادين على ردّ الضربات وعلى مقاربة كل الناس بقلة ثقةٍ وبتحفظ. لقد اقتبلنا في قلوبنا شرّاً كثيراً وعلينا الآن أن نتخلص منه.

٣- يعلِّمنا القديس يوحنا الذهبي الفم أن الشرّ يأتي بكامله من ذواتنا بالدرجة الأولى، وثانياً - وليس العكس - من الشيطان. إن أبقينا أذهاننا يقِظة وقلوبنا ثابتة في الإيمان فلن يجد الشيطانُ مَنفذاً إلينا. إذ لا يعمل الشيطان سوى على أفكارنا الشريرة ورغباتنا. حين نكون غاضبين أو حسودين، أو تكون لنا مشاعر عنيفة تجاه أحدهم - أحياناً كثيرة، أو لوقت طويل - فإننا نفتح بأنفسنا نافذةَ قلبنا للشياطين فيُغذّون عندها خطايانا ويقوتونها، ولا يعود بإمكاننا التخلص منهم بسهولة. وقد يحدث

أحياناً أن نتمرّغ في خطيئة ما لوقت طويل حتى تصبح طبيعةً ثانية لنا. في مثل هذه الحال وحده اللهُ هو الذي يستطيع أن ينقذنا من ذواتنا ومن براثن الشياطين في آن.

٤- ما أصعب الانتقال من هذه الحياة إلى الأبدية. بإمكاننا أن نُصلّي قبل انتقالنا إلى الأبدية أما بعد ذلك فلا يمكننا أن نفعل شيئاً لـ[مساعدة] أنفسنا: وعندها يستطيع أحبّاؤنا إعانتنا بصلواتهم فقط. ولسوف يحكم الربُّ علينا بحسب الحالة التي يجدنا فيها ساعة الوفاة.

لهذا يجب علينا أن نُصلّي من أجل أحبائنا الذين رحلوا عن هذه الحياة: فهذا أكثر ما يحتاجونه منا. والله يسمعُ صلواتنا حين نصلّي من القلب، رغم أننا خطأةٌ عظام. فالرب ينظر على الدوام إلى قلوبنا، وإن التمسناه من كل قلبنا فسنجده هناك. الرب سيستمع إلى صلواتنا رغم أننا خطأةٌ عظام ولكنه ينتظر منا أيضاً أن نتوب ما دام الأوان لم يَفتْ بعد.

٥- في أحد الأيام ظهرت والدةُ الإله الكلية القداسة في رؤيا لأحد الآباء الأجلاّء الذي ابتغى أن يعرف سرعة حركةِ

الروح. وقد قال: "حين نطلب الشفاعة كثيراً ما نحصل على المعونة في الحال، وخصوصاً إذا كنا في وضع هو بين الحياة والموت. نتلقى المعونة في الحال إن صرخنا من القلب". وقد أجابت والدةُ الإله الكلية القداسة بأن الروح تنتقل بسرعة الفكرة وأسرع منها أيضاً. بأفكارنا يمكننا أن نكون في أي مكان في لمح البصر. لا يكون لنا حتى الوقت الكافي للتفكير وتكون المعونة قد وصلت. لا يمكن تخيُّل هذه السرعة. فبإمكان عقل الإنسان أن يجتاز الأبدية في لحظةٍ واحدة.

٦- الحرب متواصلة بين الخير والشرّ. نحن نبتغي أن نكون صالحين ولكن أرواح الخباثة لا تريدنا أن نكتسب ولا صفة صالحة واحدة، بل صِفات شريرة فقط. لهذا يجب أن نحارِب. ونحن لا نستطيع أن نحارب بمفردنا بل الرب هو حامينا، إذ في اللحظة التي نسأله المعونة بصدق سيحضر لمساعدتنا في الحال.

كنت مرة في وضع حرج للغاية ورأيت رؤيا فيها طلب مني الربُّ أن أخرّ أمام والدته الكلية القداسة لأنها حامية الرهبان

وقائدتهم. لهذا ينبغي أن نقاتل دون توقف. لهذا نحن نواجه "حرباً من الأفكار". و"حرب الأفكار" هذه ليست ضد لحم ودم بل ضد أرواح الشرّ في السماويّات (راجع أف ٦: ١٢). قال الرسول الإلهي بولس: "جاهدتُ الجهاد الحسن... وحفظتُ الإيمان" (٢ تيم ٤: ٧).

وهكذا علينا أن نخرّ على الدوام أمام الرب ووالدتِه الكلية القداسة. يجب أن نضرع إليه لكي يجعلنا مستحقين أن نحبه بمقدار ما تحبه والدتُه الكلية القداسة والملائكة والقديسون. ولا شك أن الرب القدير بإمكانه أن يساعدنا في هذا الأمر. إنه يود أن نكون على هذه الحال حتى نكون معه إلى دهر الداهرين وأبد الآبدين، في حبِّه وأحضانه. وهذه هي أمنيتي أن تصلّوا جميعُكم إلى الرب ليجعلكم مستحقين أن تحبوه بهذه الطريقة. وعندها ستشعرون بالسلام والطمأنينة في قلوبكم لأنكم ستكونون قد أعطيتم قلبكم إليه، هو اللامحدود والقادر أن يمنحنا حباً وسلاماً لا حدود لهما.

الفصل الرابع عشر

موعظة في رقاد والدة الإله[٢٨]

أشكر الرب ووالدة الإله الكلية القداسة لأنه ارتضى أن يزيِّن هذا العيد، عيدَ رقاد والدة الإله الكلية القداسة بالأصوات الملائكية، أصواتِ الأولاد الذي رتَّلوا بهذه الروعة. هذا يذكِّرني بأيام شبابي ما قبل الحرب حين كنتُ راهباً في بطريركية (Pech) المقدسة، صهيون الصربية كما يدعوها البعض. كان من عادة الجوقة هناك أن ترتل إجابات القداس الإلهي في كل الأعياد. كانت جوقة مختلطة، منظمة أدقّ التنظيم، وكان قائدُها رجلاً مميزاً. لقد سمعتُ جوقات كثيرة من بلغراد وغيرها ولكن جوقة (Pech) تلك كانت فريدة إلى حدٍ بعيد. واليوم حين قلتُ: "مباركةٌ هي مملكة الآب..." وأجاب الفتية "آمين" ذكَّرني هذا بأيام شبابي تلك ولمسَ قلبي.

٢٨- موعظة ألقاها الشيخ تداوس في عيد رقاد والدة الإله الكلية القداسة، في ٢٨/١٥ آب ١٩٨٤.

حين يكون الترتيلُ بهذا الجمال نتحرَّر من كل همومِنا واهتمامنا بالأمور الأرضية ونرتفع إلى الأبدية مع الرب وملائكته والقديسين إلى حيث وطننا الحقيقي وملكوتنا. لو كان وطننا من هذا العالم لكنا عشنا هنا في حالة من الراحة والسلام والفرح. إلا أن هذه الحياة، لنا نحن المسيحيين، مليئة بالمصاعب والأحزان[٢٩]. في هذه الحياة علينا أن نتحضّر للحياة في الملكوت السماوي وأن نبلغ السلام الإلٰهي. لا يمكن لأحد أن يعطينا ذلك السلام، وحده الله يمكنه أن يمنح السلامَ للكائنات المخلوقة ولنا إذا سَعينا إلى [الله] وتُقنا إليه من كل قلوبنا واشتهينا أن نتَّحد به. إنه يريد أن تتحد نفوسُنا به، بإرادته الإلٰهية. إنه يريد أن يتحد كامِلُ كياننا به لكي نشعر بفرح الحياة. أما نحن فإننا ننغمس بشدة في هذه الحياة المادية فلا يعود لنا الوقت لنفكر بروحنا، بسلامنا الداخلي. نحن نهشِّم سلامنا الداخلي على الدوام.

عندنا أمثلة كثيرة نتعلَّم منها. فقد أعطانا الرب أولاً والدة الإله الكلية القداسة. وكانت مشيئته أن تبقى والدةُ الإله الكلية

٢٩- حسب تعبير الأب تدّاوس Epitimia (أنظر الفصل العاشر، الفقرة ١٧ من هذا الكتاب).

القداسة مع الرسل القديسين لتعزّيهم وتشجعَهم بعد قيامته وصعوده. وقد ابتغى أحد الآباء الحاملي الإله، القديس ذيونيسيوس الأريوباغي الذي من أثينا، أن يعاين والدة الإله الكلية القداسة. وعندما وصل إلى أورشليم اصطحبوه إلى بيت القديس يوحنا اللاهوتي الذي عاشتْ فيه والدةُ الإله الكليةِ القداسة. وحين دخل إلى غرفتها تحرَّر على الفور من كل الاهتمامات والهموم وغمره فرحٌ وسلام لا يُنطق بهما. إليكم كيف يصف لقاءه بوالدة الإله الكلية القداسة: "لو لم أتعلَّم في شبابي عن الإله الحقيقي لكانت لي والدةُ الإله الكلية القداسة هي الله".

أرأيتم أي سلام وأي فرح يشعّان من والدة الإله الكلية القداسة! وقد سمح اللهُ لكل نفس متحدةٍ به بأن تشعّ بالسلام وبالفرح. إذ ينبعث السلام والفرح الإلٰهيّان من مثل هذا الشخص فنشعر بالارتياح في حضرته. أترون ما يعني ملكوت السماوات؟ "إن ملكوت الله هو.... صلاحٌ وسلامٌ وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ١٧).

إن والدة الإله الكلية القداسة تصلي من أجلنا دون انقطاع وتفتقدُنا على الدوام. في أي وقت نلتجئ إليها في قلبنا نجدها هناك. إنها بعد الرب الحمايةُ الأعظم للجنس البشري. ما أكثر الكنائس حول العالم المُهداة إلى والدة الإله الكلية القداسة! وما أكثر ينابيع الأشفية التي فاضت في أماكن ظهرت فيها والدةُ الإله الكلية القداسة وباركت تلك الينابيع لتُبرئ الأصحّاء والمرضى على السواء! إنها بجانبنا بشكل دائم ولكن ما أكثر ما ننساها.

تعرفون أن أياً كان في هذه الحياة يمكن أن يتخلى عنا، وحتى أقرب المقرَّبين إلينا. فلكلٍّ منا ضعفاته، ونحن كثيراً ما نؤذي الناس الأقرب إلينا. وقد يتخلَّون عنا بسبب فظاظتنا أو يسامحوننا من دون أن يتوقف شعورُهم بالألم. وأما الرب ووالدة الإله الكلية القداسة... آه كم من مرة أسأنا إلى الله ووالدة الإله الكلية القداسة، ولكن حين نتوب ونلتجئُ إليهما في قلوبنا، فإنهما يغفران لنا كل شيء ولا يتذكران يوماً خطايانا ولا أفعالنا الشريرة!

أنتم تدركون كم تمرّ الحياة بسرعة لا تصدّق. وهذا ما لا ينتبه إليه المرءُ كثيراً في شبابه، ولكن حين تلقي السنون بثقلها علينا نجد بأنْ قد مرَّ وقتٌ طويل ولم يبقَ سوى القليل جداً من هذه الحياة. فأين نذهب حين تحلّ نهاية حياتنا؟ نحن نعلم أين نمضي ما دمنا هنا ولكن ماذا سيحصل بعد ذلك؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ وهل تهيَّأنا للملكوت السماوي، لموطِننا الحقيقي؟ الذي لن يدخله سوى الودعاء وأنقياء القلوب. فهل اعتنينا بتنقية قلبنا ما دمنا في هذه الحياة، القلبِ الذي يعذِّبنا إلى هذه الدرجة في هذه الحياة؟ وهل قلنا في ذواتنا: "يا قلبُ، لقد سبَّبتَ لي ما يكفي من الوجع. فتواضعْ وكنْ قلباً صبوراً، طويل الأناة!"

قال الرب إننا بصبرنا وطول أناتنا نخلِّصُ نفوسنا. نحن نعلم أن مِحناً وأحزاناً كثيرة تصيب المؤمنين وغير المؤمنين على السواء، الأبرار والخطأة على السواء. نحن كلنا ننال نصيبنا من المحن: بهذه الطريقة نتعلَّم أن نقبل كلَّ شيء بسلام. نحن لا مقدرة لنا من أنفسنا، المقدرة لله. فيجب أن نلتجئ إليه في أعماق قلوبنا ولسوف يمنحنا المقدرة على تجاوز كلِّ الصعوبات لأنه من المهم جداً أن نتعالى فوق كل تلك الأمور التافهة التي تنتزِع

سلامَنا الداخلي. نادراً ما نُعير هذا الأمر اهتماماً بل ندع الظلمَ الذي نصادفه في كل مكان خلال حياتنا يمزِّقُ سلامنا الداخلي. وكثيراً ما نكون نحن الذين نظلم الآخرين. قد يبدو لنا في ذلك الوقت أننا نفعل ما يجب ثم يتضح لنا لاحقاً بأننا كنا مُخطئين إلى حد بعيد. يجب أن نتعلَّم كيف نتجاوز كلَّ تلك الأمور التافهة، بسلام، ومتحدين بالرب، فلا يدخل إلينا الارتباكُ من الخارج. وهكذا نحافظ على سلامنا الداخلي على الدوام.

الله موجود في مركز حياةِ كلِّ إنسان. إنه في قلبنا سواء قبلناه أم لم نقبله. إنه لا ينفصل عنا لأنه هو المُحيي الذي يمنح الحياةَ لكلِّ كائن مخلوق. لقد دفنّاه بهمومنا واهتماماتنا الدنيوية التي تدمِّر السلامَ في داخلنا، ولهذا لا سلام لنا ولا راحة. ليس باستطاعة أحدٍ على الأرض أن يمنحنا السلام الداخلي الذي لا يتزعزع. فلا المال ولا الشهرة ولا الشرف ولا المنصب الرفيع بإمكانها أن تعطينا السلام، ولا حتى أقرب المقربين إلينا من الأصدقاء أو من العائلة. وحده الربُّ هو مُعطي السلام ومُعطي الحياة. إنه يمنح السلام والهدوء والفرح للملائكة والقديسين ولنا ولكلِّ ما هو مخلوق. لهذا يجب أن نتوب ونعود إلى الرب.

ما هي التوبة؟ التوبة هي أن يغيّر المرءُ طريقة حياته؛ إنها نَزعُ الإنسان العتيق وكلِّ عاداته الشريرة، والانعطافُ نحو الله، نحو **الحقّ**. التوبة تعني أن يصبح المرءُ هادئاً، سلامياً، متواضعاً ووديعاً. كلنا نعلم أنه يُبهجنا جداً أن نكون في صحبة إنسانٍ وديع وسلاميّ ولطيف. أما الذي لا يملك السلام فهو يولِّد القلقَ ويشعّ به فيما حوله لدرجة أننا نضطرب حين نكون في صحبته ونشعر نحن أيضاً بالقلق. هذا لأننا لم نتَّحد بالرب من خلال الصلاة الدائمة.

نكون في سلام حين نكون مع الرب ومع والدتِه الكلية القداسة؛ فهي تَحضر لمعونتنا في أي وقتٍ ندعوها. ولنا فيها العضُد الذي لا يتزعزع بل يثبت إلى دهر الداهرين ولن يتبدَّل يوماً. لن نجد هذا العضد في أي مكانٍ آخر على الأرض ولا حتى مع أفراد عائلتنا، فكيف إذن في أشياء كالثروات والسلطة الأرضية والشرف. فقد نعدم يوماً هذه الأشياء كلها وأما الربُّ ووالدته الكلية القداسة فلن يتخليا عنا يوماً.

وهكذا يا أولادي، إذ نحن نحتفل بالعيد العظيم، عيدِ والدة الإله الكلية القداسة، لنتحضَّرْ للحياة السماوية. لنُلقِّنْ قلوبنا أن تتوق إلى الله على الدوام على غرار الملائكة، وإلى والدةِ الإله الكلية القداسة لأنها شفيعتنا وهي تصلّي دون انقطاع من أجلنا نحن الضعفاء أمام عرش ابنها. في أي وقتٍ نطلبها في قلوبنا نجدها هناك على الدوام مستعدةً لتقديم المعونة. لا يُحصى عدد الذين قدّمتْ لهم التعزية على هذه الأرض كما لا تُحصى النفوس التي قادتْها من أعماق الجحيم إلى ملكوت السماوات. ولذا فلنتعلَّم أن نصبح معتادين على الملكوت السماوي ونحن بعد في هذه الحياة. فإن الملكوت السماوي سلامٌ وفرح في الروح القدس.

يجب أن تصبح قلوبنا متواضعة لأنها تتأثر بالعمق من الإساءات، وأيضاً ما ندعوه "كرامتنا" لأننا لن ندخل ملكوت السماوات بالكبرياء، كما حين نتألم بشدة لكلِّ افتراءٍ يُصيبنا من قريبنا. علينا أن نتقبَّل دروسنا من الحياة اليومية لأن كل يوم يحمل لنا الهمومَ والقلق والإساءات. يجب أن نتعلَّم ألا نتأثر كثيراً بالإساءات إذ مَن يعلم ماذا ينتظرنا على مدى حياتنا الأرضية؟ لقد رحمَنا الله فأخفى عنا مستقبلنا. وإلا لما أستطاع أحدٌ منا أن

يتابع حياته لو علم بما يخبِّئه له المستقبل. يجب أن نتجاوز العديد من المِحن والمآسي لكي نتعلَّم كيف نرتقي فوق كل تلك المعضلات التي تعكِّر سلامَنا الداخلي. علينا أن نتعلَّم أن نقتني السلام والفرح الإلٰهيَّين، سلامَ الملائكة والقديسين وفرحَهم لأننا نقتني الملكوت السماوي ونحن بعد في هذه الحياة.

في هذه الحياة نكون تارةً في الجنة وتارةً أخرى في الجحيم. بإمكانكم أن تعاينوا ذلك بأنفسكم وتتعلَّموا منه: فحين تكون أفكارُنا هادئة ولطيفة، وحين نغفر كل افتراء وإساءة، نكون في سلام إلٰهي وفي فرح وهدوء! وأما حين نغضب بسبب كلمات قاسية [تلفظ بها] أحدُهم فإننا نصبح فجأة في الجحيم! ينهار كلُّ شيء ونفقد كل فرح الحياة الذي كنا نشعر به من قَبل. أرأيتم كم هو رهيب العيش في الجحيم؟ لقد أُعطيتْ لنا في هذه الحياة فرصةُ تذوّق الحياةِ السماوية وحياةِ الجحيم على السواء. وعلينا أن نختار أياً من الاثنتين توفِّر لنا السلام والملكوت السماوي. ونحن نرغب بذلك جميعاً من دون أي استثناء سواء كانت حياتنا صالحة أم فاسدة. كل الناس يتوقون إلى السلام والصلاح، والحبِ الذي لا يوصف ولا يتغيَّر، ووحده الله هو هذا النوع من

الحب. وحده لا يتبدَّل. **إنه هو هو** على الدوام و**هو** أصلُ كل الأشياء وعلى الأخص الجنسِ البشري. **إنه** ينتظرنا على الدوام لكي نعود إلى أحضانه وأما نحن فنفرّ مُبتعدين عنه. **هو** يودّ أن يعطينا السلام وأن يعزّينا لكي نختبر فرح الحياة ولكننا لا نرى سوى قلق هذا العالم وهمومه.

لقد ارتكبنا خطيئة فادحة منذ بداية حياتنا. وقد نبَّهنا الربُّ إلى وجوب أن نكون محترزين للغاية وإلا فستكون حياتُنا مليئة بالمشقات والحزن وسنعاني ألماً كثيراً إلى أن نتواضع ونَعي بأننا خطئنا. فقد قال الرب: "أكرِمْ أباك وأمَّك لتطول أيامُك على الأرض التي أورثك الربُّ إلٰهكَ إياها" (خر ٢٠: ١٢) هذه هي الوصية. ولقد أظهر لنا الرب كيفية إكرام والدَينا بمثاله الخاص في حين كانت آلامُه على الصليب تشارف على النهاية، عهد بأمِّه الكلية القداسة إلى تلميذه الحبيب يوحنا قائلاً لأمِّه: "يا امراة، هوذا ابنُكِ" (يوحنا ١٩: ٢٦)، ولتلميذه: "هذه أمُّكَ!" (يوحنا ١٩: ٢٧).

(إن كلمة "امرأة" في اللغة الآرامية التي كان يتكلَّمها ربُّنا تنطوي على احترام أكبر من كلمة "أمّ". أما اليوم فيصعب علينا أن نفهم أنَّ الربّ قد خاطب أمه بكلمة "امرأة". والأمر هو نفسه حين كان الربُّ في قانا الجليل والتفتت إليه أمّه الكلية القداسة قائلةً: "ليس لديهم خمرٌ" (يوحنا ٢: ٣)، فأجابها: "ما لي ولكِ يا امرأة؟ إن ساعتي لم تأتِ بعد" (يوحنا ٢: ٤). ونحن حين نستعمل كلمة "امرأة" في لغتنا فإن ذلك يحمل نوعاً من قلة الاحترام أما حين نقول "أمّ" يكون ذلك أكثر حميمية وحناناً. أما باللغة الآرامية فتحمل كلمة "امرأة" احتراماً أكبر).

أرأيتم كيف اعتنى الربُّ بأمه في آخر لحظاتِ حياته على الأرض! ونحن كيف نعامل والدَينا؟ لا سمح الله أنْ نتابعَ معاملة والدينا كما نفعل الآن. فنحن حتى منذ طفولتنا لا نُكرم أبوينا، ومع ذلك نودّ أن نحيا طويلاً وجيداً. فكيف نحيا حياة جيدة بعد أن خالفْنا منذ طفولتنا هذه الوصيةَ المُعطاة لنا من الله؟ إن شريعة هذا العالم التي تتبدّل على الدوام تعاقِب كلَّ تعدٍ عليها فكيف نتوقع إذن ألا نلقى عقاباً عند مخالفتنا الشريعة السماوية،

كلمة الله التي لا تتغير أبداً بل تبقى هي نفسها على مدى الدهور لأنها **روحٌ وحياة؟**

نحن ثمرة أبوَين عاصيَين. حين دخل العصيان في جدَّينا آدم وحواء فجأة تغيَّرت طبيعتنا وأصبحتْ فاسدة، ذات رائحة كريهة وعرضة للانحلال والموت. دخل إلينا الموتُ بعد أن كان جدّانا قبل السقطة خالدَين. وحده الله، خالِقُنا، قادرٌ على أن يُعيدنا إلى حالتنا الأولى، كما خَلَقنا. هذا هو السبب الذي جعل مَن **هو** محبة ينزل إلى الأرض ويولد طفلاً من **العذراء.** هذا هو السبب الذي جعله يعيش ثلاثاً وثلاثين سنة بين البشر. لقد أراد أن يُلقِّننا الحقَّ ويُظهرَ لنا أنه محبة. علينا أن نعتبر الرب ووالدتَه والرسلَ والقديسين نماذج [لنا] ونُجدِّد حياتنا. علينا أن نتوب ونتخلى عن أسلوب حياتنا السابق مع كل عاداتنا الرديئة، وأن نجتهد في تعلُّم الطاعة. إن أساء إلينا أحدٌ أو إلى أبوينا أو إلى شقيقنا أو شقيقتنا أو قريبنا، فيجب أن نغفر له من القلب، وعندها سيَعلم الرب. يجب ألا يقتصر غفرانُنا على الكلمات فقط، فالرب يريدنا أن نغفر من القلب. وعندها سيشعر قريبنا بغفراننا

ولن تعود الكلماتُ ضرورية. فسيعلم الشخص في قلبه بأننا قد غفرنا له.

كيف يعلم الشخصُ في قلبه بأن قد غُفر له؟ للناس أفكارٌ. ونحن نشبه جهاز أفكارٍ مرهفاً. نحن متصلون ببعضنا البعض بأفكارنا. حين نفكر بشخص فإنه للحال يتلقّى أفكارنا. ولكننا لكوننا مُشتَّتي الذهن، وأفكارُنا مبعثرة، نعجز عن تحديد الشخص الذي يرسل إلينا الأفكار ونوع الأفكار التي يرسلها إلينا. ولكن الشخص ذا الأفكار السلامية والمتَّحِد بالرب والذي حَرَّره الربُّ من تشتُّت الذهن، هذا الشخص يعرف بالضبط أية أفكار هي أفكاره وأية أفكار تأتي من العدو وأية أفكار تأتي من الأصدقاء. فإن المشاعر والأفكار التي تأتي من أذهان إخوتنا البشر تصلُ إلينا. لهذا أقول لكم إننا حين نغفر من القلب بإمكان قريبنا أن يشعر بذلك وعندها يزول العبءُ الذي كان يُرهق نفسه.

بهذه الطريقة نتفقَّه عن الحياة السماوية وكيفيةِ اقتناءِ السلام الداخلي. لنتوجَّهْ إلى والدة الإله الكلية القداسة في قلوبنا

طالبين إليها أن تتشفع بنا لكي يمدّنا الربُّ بالقوة ويجعلنا في عداد ملائكته وقديسيه الذين يمجِّدون الله إلى أبد الآبدين، آمين.

الفصل الخامس عشر

التوبة هي تغيير الحياة[٣٠]

ليكن سلامُ الرب وفرحه مع جميعكم! فالسلام والفرح هما بالحقيقة أعظم ثروة للمسيحي في هذا العالم وفي العالم الآخر على السواء. ونحن جميعاً نحنُّ إليهما. قد نملك العديد من الأمور المادية وقد نمتلك كل ما نريد ولكن كل ذلك سيكون دون جدوى إن لم يكن لنا السلام. والسلام يأتي من الرب، **ينبوع السلام**. حين كلَّم تلاميذَه والأبواب مغلقة خوفاً من اليهود كانت أولى كلماته إليهم: "سلامٌ لكم" (يوحنا ٢٠: ١٩). وأنا بدوري أرجو أن يحلَّ علينا جميعاً سلامُ الرب وفرحه. وسوف يكافئنا الربُّ بسلامه إنْ غيَّرْنا طريقة تفكيرنا وتحوَّلْنا باتجاه **الصلاح المُطلق**. و**الصلاحُ المطلق** هو الله نفسه. و**هو** يودّ أن يمتلك أولادُه هذه الصفة الإلٰهية أيضاً. كمال الحياة المسيحية في

٣٠- ألقى الشيخ تدّاوس هذه الموعظة والحديث بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٩٨ في قاعة مسرح (Shumadija) في (Banovo Brdo)، وهي ضاحية من ضواحي مدينة بلغراد. وقد نُشر النص أولاً في مجلة (Svetigora)، العدد ٧٥-٧٧، سنة ١٩٩٨، ص ٣٤-٣٧، كما ورد في تدوينات إيفان ماركوفيتش.

التواضع الأقصى. فالتواضع صفة إلٰهية أيضاً. وحيثما يسود التواضع، أكان ذلك داخل عائلة أو داخل مجتمع ككل، فإنه يشعّ على الدوام بالسلام والفرح الإلٰهيَّين.

كلُّ خيرٍ وكل شرّ على هذه الأرض مصدره أفكارنا. لهذا السبب يجب أن نناضل. فنحن جهاز أفكارٍ يُطلِق ويشعّ بالأفكار التي بها نؤّثر في كل الكائنات: البشر والحيوانات والنباتات. فللنباتات أيضاً جهازٌ عصبي، وهي تنتظر منا السلام والتعزية والمحبة.

التوبة تغييرٌ للحياة. على المرء أن يذهب إلى كاهن ويعترف، أو أن يبوح لصديق أو قريب بما يُقلق ضميره ويبدِّد سلامَه الداخلي[٣١]. بعد الاعتراف يشعر المرءُ دائماً بأنه أخفّ. لقد خلقَنا اللهُ بشكل يجعلنا كلنا نؤثر ببعضنا البعض. حين يشفق قريبٌ أو صديق لنا على معاناتنا نشعر للحال بالتعزية وبأننا أقوى. والتوبة على نحو مماثل هي تغيير للحياة. يجب أن نبدِّل

٣١- لا شك أن الاعتراف للصديق أو الأخ الروحي يجعلنا نشعر بأننا أخفّ، ولكن يبقى الاعتراف للأب الروحي ضرورة لا بد منها لنيل الإرشاد الروحي والحلّ من الخطايا (المترجمة).

طريقة تفكيرنا لأن الحياة قد سدَّدت لنا ضربات كثيرة. ونرى بأن العالم أجمع – وليس فقط أمَّتنا – يعاني بسبب هذا الأمر. فإن انعطفنا نحو الله، **ينبوعِ الحياة**، فسيمدّنا بالقوّة لنصبح مُتجذّرين في الأفكار الصالحة، الأفكارِ الهادئة والسلامية والعطوفة والمليئة بالمحبة. ولسوف تسطع توبتنا الصادقة لأن الأفكار الصالحة والرغبات الطيبة ومشاعر الحب تشعّ بالسلام وتمنح التعزية لكل كائن.

لقد أصبحتم تدركون الآن ماهية التوبة. فالتوبة هي تحوّلُ قلبِ المرء بالكامل باتجاه **الصلاح المطلق**، وليس تحوّل القلب فقط، بل الذهن والمشاعر والجسد وكل كيان المرء أيضاً. التوبة هي اتحاد المحبة مع **أبينا وخالِقِنا** اتحاداً لا ينفصم. ولذا علينا أن نكون في كلَّ حين في [حالة] الصلاة وألا نكفَّ عن الطلب من والدة الإلٰه أن تمنحنا القوةَ لكي نحبه كما تحبُّه هي مع القديسين والملائكة. وعندها سنتبارَكُ في هذه الحياة وفي الأبدية على السواء. لأن الله محبةٌ وسلام وفرح، وهو يملأ كلَّ كائن يلتمسه من القلب.

وهكذا أصبح من الواضح أننا إنِ ابتغينا الخيرَ لأنفسنا وللقريب وجب علينا أن نتغيَّر. إذ لا تؤثر أفكارُنا فينا وحسب بل في كل ما يحيط بنا أيضاً. لهذا يجب ألا نُصدِر سوى الأفكار الصادقة، الهادئة والودودة. يوصينا الربُّ بأن نحبّ أعداءنا، وليس ذلك من أجلهم بل من أجلنا نحن. لأننا كلما غُصنا في ذكرى إساءةٍ تلقيناها من صديق أو من أحد المعارف أو الأقارب فلن يكون لنا سلامٌ ولا راحة. يجب أن نتحرَّر من مثل هذه الأفكار. وهذا يعني أنَّ علينا أن نُسامِح من القلب. يجب أن نسامح على كل شيء. ولسوف يجلب لنا السلامُ الذي نشعر به بعد ذلك إحساساً بالراحة والفرح وانشراح الصدر، وليس فقط لنا بل لكلِّ المحيطين بنا أيضاً. وسيشعر الجميعُ بأَثَر أفكارنا، إن كانت أفكارُنا ودودة وسلامية.

والعكس صحيحٌ أيضاً. فإن كان ربُّ العائلة مُثقَلاً بهموم العائلة المالية ومتاعبِها فلن يكون أفرادُ عائلته في سلام. وحتى الأولاد الصغار الذين ليسوا في عُمرِ فَهمِ مشكلات الحياة هؤلاء أيضاً لن يكون لهم سلام لأن الأب مُثقَلٌ بالهموم. ولذلك علينا جميعاً وعلى الأخص مَن يضطلعون بمسؤولية أُسرة أن نتعلَّم أن

"نودع أنفسَنا وبعضنا بعضاً وكلَّ حياتنا للمسيح الإله"[٣٢]. وحين نؤمن، بكل ما في الكلمة من معنى، بأن الله سيُعيننا إن نحن التجأنا إليه من القلب، فسوف يعزّينا. وحتى لو اقترفنا خطيئةً تجاه والدَينا أو عَصيناهما في مسألة هامة فسيفتحان قلبَيهما الأبويَّين ويسامِحاننا ويقدِّمان لنا العون إن طلبنا معونتَهما بحرارة كبيرة.

ولذا يجب أن نتعلَّم نحن أيضاً أن نسامح من القلب.

كثيرون يأتون إليَّ ويقولون لي بأنه يصعب عليهم المحافظة على سلامهم الداخليّ. بالحقيقة لا يمكننا أن نحافظ على سلامنا الداخليّ إن كان ضميرُنا يؤنِّبنا. علينا أولاً أن نُسكِّن ضميرَنا وسينظر الربُّ إلينا وينيرُنا بنعمته. وسوف يمنحُنا من صلاحه لأن الصلاح قدرة إلٰهية تعمل أينما كان وخصوصاً في الذين يطلبون بحرارة **ينبوعَ الحياة**. وقد قال لنا الرب حتى على لسان نبيٍّ من العهد القديم: "يا بنيَّ أَعطِني قلبك" (أم ٢٣: ٢٦).

٣٢- من طلبات الخدم الإلهية في الكنيسة الأرثوذكسية.

هذا هو السلام الإلٰهي الذي يزرعه اللهُ كالحبة في كل قلب، وهذا هو نوعُ السلام الذي يهب التعزيةَ لكل نفس.

ربُّنا هو التعزية الوحيدة للملائكة والبشر على السواء، لكل نفسٍ تحنّ إليه. وحده هو سرمديّ. بإمكاننا أن نطلب التعزية من إخوتنا البشر في هذه الحياة ولكنَّ كل ذلك محدود جداً لأن الكائنات المخلوقة محدودةٌ في الزمان والمكان ولا يمكنها أن تمنح الأبدية. وحده الله يهتمّ بكل حاجة من حاجات نفوسنا. ونحن على الرغم من أننا قد خُلقنا كائناتٍ محدودة إلا أننا نسعى إلى الأبدية، ولا أحد من خاصَّتنا الأقرب إلينا من العائلة أو الأصدقاء قادر أن يمنحنا الأبدية. لماذا؟ لأننا جميعاً كائنات محدودة وفي حرب متواصلة في أفكارنا. الأرواح الساقطة مليئة بالشرّ والحسد وهي تشنّ علينا الحرب باستمرار. والله ينظر إلى هذه الحرب ليرى إن كنا سنطلبه ونطلب معونته من القلب أم لا. إنه ينتظر على الدوام لكي يمنحنا المعونة.

قليلةٌ هي الأمثلة الحية التي يمكننا أن نحتذي بها في هذه الحياة. نحن نسمع أقوالاً كثيرة ونرى أمثلة كثيرة عن كيفية

العيش والتصرُّف تجاه قريبنا وعائلتنا، وعن كيفية إرشادهم لكي يقتنوا السلام والفرح. ولكن هل سنطبِّق كل ذلك في حياتنا أم لا؟ هذا غير مؤكد. ولكن الأمر يختلف تماماً حين نرى مثالاً حياً، إنساناً هادئاً وسلامياً ممتلئاً من الحب. نحن ننزعج وأما هذا الشخص فلا. إنه يسامح على كل شيء وهو مرح في كل الأحوال. حين نرى مثل هذا المثال الحيّ نتأثَّر ونحنُّ لاقتناء ذلك النوع من السلام.

تتمثل الحياة على الأرض في أفكارنا. فإن أفكارنا تعكس نوعَ حياتنا من الأمور التي تنشغل بها. إن كانت أفكارنا هادئة، سلامية، ودودة ومُحِبة فنحن في سلام؛ وإن كانت سلبية فنحن في اضطراب وبلبلة. نحن كائنات صغيرة مغلوبة على أمرها ويجب أن نطلب العون من **أبينا** السماوي في كل أمر وفي كل حين. يجب أن نصلّي له ليمدّنا بالقدرة ويعطينا من نعمته القوةَ (energy) الإلٰهية الموجودة في كل مكان وتعمل في كل مكان، وعلى الأخص في تلك النفوس التي اختارت أن تخدم الرب بحياتها كلها في هذا العالم وفي الأبدية على السواء. لأن الله هو

سلامٌ؛ الله تعزيةٌ وفرح لكل الناس. لذا أرجو لكم السلام والفرح في الرب.

فما ترانا نحتاج – نحن العائشين في هذا الزمن المعاصر المنفصم الشخصية – أكثر من السلام في قلوبنا وأذهاننا، السلامِ الذي من الرب؟ بإمكاننا أن نعاين ونشعر بهذا السلام في تواضع شيوخِنا القديسين الشِّيب وخَفرِهم، الذين لم يسمحوا يوماً للناس بأن يعاملوههم وكأنهم آلهة أو معبودات. هذا هو الفارق الأساسيّ بين شيوخ القرون الماضية القديسين وأولئك "الألمعيّين" المعاصرين الذين فقّسوا حديثاً.

أسئلة وأجوبة

س. كيف يمتنع المرء عن ارتكاب الخطيئة تجاه والديه اللذين يعارضان الكنيسة ويُجدِّفان على المسيح، ويهدّدان حتى بإنكار ابنهما؟

ج. للأهل تأثير عظيم في الأولاد. ومسألة كونهما جيّدين أو سيّئين أمر يختص بهما فقط، ولسوف يقدّمان حساباً [عن ذلك] إلى الله.

الشرّ في العالم متفاقم جداً لأن الناس فقدوا احترامهم **لأبيهم** السماوي ولوالديهم. لم أكن أعرف ذلك في حداثتي. أنا أشبه والدتي كما هو حال الكثير من الرجال، وأنا مثلها شديد الحساسية. كنت أظن بأن على والدي أن يقوم بأكثر مما فعل لأولاده. كنت ابنه الأكبر ورأيتُ النور سنة ١٩١٤. وهذا النوع من الأفكار أوشك أن يدمّر حياتي. ما كان يجب أن أفكر مثل هذه الأفكار عن والدي فقد كان لها تأثيرٌ سلبيّ على حياتي، ولم ينفع قط كوني ولداً لامعاً.

يجب أن نُصلّي إلى والدة الإله الكلية القداسة لكي تمدَّنا بالقوة والإرادة حتى نحبَّ والدينا وسوف تختفي هذه الصعوبات من حياتنا. فسيفتح الربُّ دربنا ويعطينا ما هو الأفضل لنا. الله عظيم وصالح وسوف يصفح عن كل خطايانا. يجب أن نحب والدَينا بغض النظر عمّا هما عليه. إن كانت أفكارنا صالحة

فسيكون لها تأثير إيجابيّ في والدينا. يجب أن تكون لها أفكار صالحة عن العالم أجمع. إن كنا نتشاجر مع مدرّسينا أو والدينا فسيكون لنا جحيمٌ في نفوسنا. لقد حدث هذا مرات عديدة: يتعلّم أحدهم أن يُحبَّ مدرِّسه والمدرّس يمنحه علامات عالية. إن خطئتم تجاه والديكم فستكون لكم عواقب وخيمة. لوالدينا تأثير قوي في حياتنا.

قال الآباء القديسون: "يستحيل على المرء أن يقتني السلام إن كان مليئاً بالحسد والخبث". إنهما خاصّيتان من خصائص الجحيم إن استطعنا أن نتحرَّر منهما عشنا بسعادة. لنصلِّ إلى الرب القادر وحده على تبديل حالة نفسنا.

الأفضل لنا أن نتلقى الإساءة من أن نفعلها. لأننا إن احتملنا إساءةً نستطيع رغم ذلك أن نحافظ على سلامنا، وأما إذا أسأنا إلى أحد فلن يدعنا ضميرُنا في سلام.

س. كيف نتهيّأ للمناولة المقدسة؟

ج. حدّدت الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة قواعد التهيئة للمناولة المقدسة. الأهم هو تهيئة القلب للاتحاد بالرب. الصوم ضروري لتسكين الجسد، وحين يصبح الجسدُ في سلام تصبح الروحُ في سلام هي الأخرى. لذا علينا أن نُهيّئ قلوبنا في التواضع والوداعة من أجل الاتحاد بالرب. والكنيسة تعلّمنا كيف نصوم. وعلينا جميعاً بالدرجة الأولى أن نتسالم مع قريبنا. وعلى كل كاهن رعية أن يتسالم أيضاً مع إخوته. فإن كنا جميعاً أبناء الله، فكيف ننتفع من المناولة المقدسة إن كنا لا نحتمل أحد الأشخاص؟ فإنْ أخذنا المناولة المقدسة ونحن في مثل هذه الحالة الذهنية، فإنها لن تكونَ لخلاصِنا لأننا لم نتخلَّص من هذا الشعور الذي هو من الجحيم.

الصوم تهيئة القلب المتواضع. يقول الآباء القديسون: "من لا يطيع باطلاً يصوم ويصلّي إلى الله لأن الطاعة أعظم من الصوم والصلاة". لم أكن أفهم تماماً تعليم الآباء القديسين هذا في حداثتي ولكني فهمت سبب ذلك فيما بعد. فالإنسان الذي لا يتواضع ولا ينقّي قلبه من الرغبات الشرّيرة باطلاً يصوم. قد لا

يضع في فمه شيئاً على الإطلاق ولكن ذلك لن يجديه نفعاً إن كان الشرُّ في داخله. فعليه أن ينقّي قلبه أولاً من الشرّ الذي في داخله لكي يستقبل الرب. والرب كله محبة وسلام وفرح. لهذا يجب أن نهيّئ قلوبنا. إن هيّأنا قلوبنا لتكون متواضعة ووديعة ومليئة بالحب فسننعم بصحة النفس والجسد معاً. وفي حال لم تتوفّر فينا أيٌ من تلك فإننا نأخذ المناولة المقدسة لدينونتنا وليس لخلاصنا. لهذا نصلّي على الدوام: "أيها الرب، لتصِرْ هذه المناولة المقدسة لخلاصي لا لدينونة أو إدانة.

س. ما رأيك بالرحلات الشائعة المُنظَّمة إلى أديارنا، وغيرها من النزعات الرائجة المعاصرة في كنيستنا؟

ج. يخطئ الناس حين يزورون الأديار لمجرد اهتمامهم بتصميم هندستها المعمارية وتاريخها. أما الذين يشاركون في هذه الرحلات ليس لمعاينة أيقوناتها الجدارية وحسب بل لاكتساب السلام في نفوسهم أيضاً، فسيعودون من رحلتهم بفرح في نفوسهم. وحتى الذين يذهبون لزيارة أحد الأديار بدافع من فضولهم – لمعاينة الفارق بين الأديار المُشيَّدة في القرن الحادي

عشر والأخرى المُشيَّدة في القرن الثاني عشر – فسيشعرون بالارتياح ويعودون بقلب مُفعم بالفرح إن كان في قلوبهم ولو قليلٌ من التقوى. في حين أن الذين يزورون الأديار لتمضية الوقت ليس إلا، فسيعودون من رحلتهم بنفس مُقفِرة.

س. كيف نصون أنفسنا من الذين يقومون بالممارسات السِّحرية ويُلقون علينا اللعنات؟

ج. تعمل قوة السِّحر فقط حيث لا وجود للصلاة ولا لإيمانٍ صلب بالرب. فالسِّحر عاجز ضدّ الذين يصلّون وهم ذوو إيمان متين.

جاءتني مرة سيدة شابة تحمل شهادة في علم السياسة وكانت ورعة جداً رغم كل تحصيلها العلمي. كانت الزوجة الثانية لطبيب هجرته زوجتُه الأولى بعد مضي شهر واحد على زواجهما. وبعدها تزوج هذه الفتاة. كان له شقيق يكبره سناً تزوّج ثلاث مرّات ولكن جميع زوجاته هجرنه فتخلى عن البحث عن زوجة جديدة. كانت والدتهما طبيبة هي الأخرى وأستاذة في معهد

الطب وكانت تمارس السِّحر. في ذلك الوقت لم تكن تعيش مع ولدَيها بل مع شقيقتها. وكانت تزور ولدَيها بين الحين والآخر.

وقد حضرتْ ذات يوم لزيارة ابنها وزوجتِه الجديدة. وشعرت المرأة الشابة بأن حماتها منزعجة بسبب أمر ما. ثم عُرف السبب حين قالت الحماة لكنَّتها: "لقد طردتُ الأخرى في أقل من شهر أما أنتِ فيبدو أني عاجزة عن الاقتراب منكِ!" كانت تلك المرأة الشابة ذات إيمان متين بالرب ولم يكن لكلُّ التعاويذ السِّحرية التي تستعملها حماتُها ضدّها أيُّ تأثير فيها. فقد كانت بالطبع تحاول استخدام القوات الشريرة ضد المرأة الشابة لكي يُخيفوها ويدفعوها لتهجر زوجها. ولكنهم لم يتمكنوا من الاقتراب منها لأنها امرأة مصلِّية سلَّمت حياتها للرب بالكامل، وكانت تعلم بأن الرب سيحميها وأن أرواح الشرّ لن تقوى عليها. وأما ما حصل بعد ذلك فهو أن قوات الشرّ تحوّلت ضد الحماة ولم يعد لها سلام. فصارت تأتي إلى ابنها قائلة: "أنت لا تحبّ طفلك المزعج هذا، أليس كذلك؟" فيجيبها: "بحقِّ الله يا أمي، أيُّ أبٍ لا يحب ابنه؟" أرأيتم؟ كانت تحاول أن تلقي بتعاويذها السِّحرية لكي تجعل ابنها يكره امرأته وولده في آن.

وفي أحد الأيام عاد إلى بيته والدموع تسيل على وجهه [وهو يقول]: "لا احتمل المكوث في شقتنا. أعلمُ بأن كل هذا صنيع أمي ولكن ما العمل؟" طبعاً لم تكن أمه قد ربَّته على الإيمان ولم يكن قد صلّى في حياته على الإطلاق، فتحوَّلت كلُّ تعاويذها الشريرة إليه وأما زوجته فكانت في سلام. أترون قوة الصلاة؟ لن تمسَّنا أية تعويذة شريرة إن كان إيماننا قوياً، بل ستعود وتنعكس على الشخص الذي يحاول أن يؤذينا من خلال هذه الممارسات السِّحرية.

س. مل رأيك أيها الأب تدّاوس بإحراق جثث الموتى؟

ج. ليس حرق أجساد الأموات بعمل مسيحي بل عادة معاصرة. إذ يكون جسد المسيحيّ قد تقدّس بنعمة الروح القدس – هذا بالطبع إن كان قد عاش حياة تقيَّة – فيجب ألا يُحرق. لم يخلق الله أجسادنا حتى تُحرق. وقد كانت إرادته منذ أيام جدّنا آدم وحتى يومنا هذا بالذات أنه حين تغادر الروحُ الجسدَ الذي هو تراب، يرجع الترابُ إلى تراب. يجب أن يُدفن الجسد في الأرض ولا يُحرق. الحرق ابتكار معاصر ومحاولة لتوفير

المكان. يحرق المرء جثتَي والدَيه ويحفظ رمادهما في جرّة واثقاً من أنهما أبوه وأمه. هذا خطأ فادح.

س. هل سيغفر الرب لهؤلاء النسوة اللواتي أجهضن مرات عدة ثم تُبن بصدق؟ وماذا ينبغي أن يفعلن للتكفير عن خطيئتهن؟

ج. المرأة التي تقتل ثمرة حشاها تقترف خطيئة فظيعة. إنها تقتل الحياةَ نفسها لأن الله **هو** وحده المُعطي الحياة وهو الذي يخلق إمكانيةَ الحَبَل بكائنٍ حيّ في الرحم. **هو** يعطي الحياة وامرأة تقتلها. المطلوب أن تتوبَ توبة عظيمة من صميم النفْس. يجب أن تتغيَّر وألا تعود إلى اقتراف هذه الخطيئة على الإطلاق، وإلا فستُحاكم كقاتلة. ما من خليقة على الأرض تقتل أطفالها سوى الإنسان، الكائنِ العاقل. هذه خطيئة فظيعة وإن لم تتب المرأة من أعماق نفسها فستُحاكَم كقاتلة. هل ستجتاز المحطات الجمركية؟[٣٣] ليس من خطيئة لا يمكن أن تُغتفر سوى

٣٣- أثبت الدكتور عدنان طرابلسي في كتابه "ما وراء الموت: أحلام وأوهام. دراسة لاهوتية للمحطات الجمركية" الذي صدر سنة ٢٠١٢ أن المحطات الجمركية ورد ذكرها في كتاب منسوب إلى القديس مكاريوس الكبير المصري بينما هو كتاب غنوصي (gnostique) هرطوقي ضلل كثيرين.

خطيئة عدم التوبة. المطلوب لمثل هذه الخطيئة توبةٌ صادقة وحقيقية، ويجب ألا تُكرر مطلقاً.

فظيعٌ إثم شعبنا بارتكاب هذه الخطيئة. لقد زالت قرى كاملة من الوجود. حين كنت طفلاً كانت بيوت فيتوفنيكا تعدّ مائة وعشرة أما اليوم فلم يبقَ منها سوى أقل من النصف. الأمر المُحزن أننا نحن الصربيين سنصبح عما قريب أقليةً على أرضنا الأم لأن أمماً أخرى ستأتي وتستوطن أراضينا. إنه لأمر محزن جداً. كما يرتكب الناسُ خطأً فادحاً بتجزيء ممتلكاتهم بين أولادهم. على عكس ما يحدث في ألمانيا على سبيل المثال [حيث] يبقى ابنٌ واحد فقط في المزرعة وعلى الآخرين أن يجدوا لهم عملاً. أما هنا في صربيا فتُجزَّأ قطعٌ صغيرة من الأرض إلى قطع أصغر وأصغر. ماذا سنفعل حين لا يعود بالإمكان تقسيم الأرض؟ ولكن أنظروا إلى الغجر! إنهم لا يملكون بيتاً ولا أرضاً ولا خبزاً يأكلونه ولكن خيامهم تعمر بالأولاد! إنه لمحزن جداً ما نصنعه بأنفسنا. لنتُبْ ونتحسَّن، إن استطعنا!

س. ماذا تخبرنا عن أرواح الموتى؟

ج. لا نندبنَّ الأموات بل لنصلِّينَّ بحرارة من أجل أحبائنا الذين رحلوا لكي أن الله يمنحهم السُّكنى مع الملائكة. هذا ما يريده [الله] منا. فالندب لن يجدينا نفعاً. بالندب نحن لا نُتلف صحتنا وحسب، بل بإمكاننا أيضاً أن نُلحق الضرر بالسلام الذي حصل عليه الأمواتُ من لدن الرب. يجب أن نصلّي من أجل أحبائنا. يجب ألا نُصاب بالحزن أو اليأس فالحزن المفرط على أحبّائنا الذين تركوا هذا العالم ليس عملاً مسيحياً بل هو إلحاديّ. في هذه الحياة نحن نتحضّر للحياة الأبدية. يجب أن نكون شاكرين على كل شيء، وأن نشكر الله لأنه أخذ إليه أرواح أحبّائنا الذين رحلوا.

إنْ غادروا هذا العالم من دون أن يتوبوا فعلينا أن نصلّي من أجلهم لعلّ الله يغفر خطاياهم. يجب أن نقوم بأعمال رحمةٍ باسمهم ولذكراهم من أجل سلام نفوسهم. ولسوف يقبل اللهُ مثل أعمال المحبة هذه.

وحده الله يستطيع أن يُحرِّر نفساً من شبكات الأفكار التي وقعتْ في حبائلها وهي بعدُ في هذه الحياة وما زالت تقيِّدُها في الأبدية. وحده الله يستطيع أن يُحرِّر مثل هذه النفس. ولذا فعلينا أن نصلّي من أجل أحبّائنا الذي ماتوا. هذا أقصى ما يمكننا فعله: أن نصلّي لكي أن الله يهب الراحة لنفوسهم، وأن نعطي أسماءهم بالمعمودية إلى الكهنة والكهنة الرهبان الذين يقيمون القداسَ الإلهي يومياً لكي يصلّوا من أجل نفوسهم.

في أحد الأيام اقترب شخص من الأسقف نيقولاي فيليميروفيتش وسأله: "هل ستخلص أرواحُ الخطأة الذين لم يتوبوا؟" فأجاب: "سيخلصون إن كان هناك مَن يصلّي من أجلهم. إن أكثر ما ينفع الأرواحَ التي رحلتْ أن يُقام من أجلها أربعون قداساً إلٰهياً، ثم أن تُقدَّم هبةٌ إلى الكنيسة من أجل متابعة ذكرهم في القداس الإلٰهي". ونحن نعرف بأن القداس الإلٰهي هو ذبيحة الجلجلة. وهذا يعني أن الرب نفسه هو المُضحّى به خلال القداس الإلٰهي. إذ يقول الكاهن، حين يأخذ الجُزيئات من قربانة التقدمة من أجل راحة نفوس الراحلين، وبعد أن يحصل على

المناولة المقدسة: "اغسلْ يا ربُّ بدمك الكريم آثامَ جميع عبيدك المذكورين اليوم!"

وهكذا كما ترون، فهذه هي أكمل صلاة وأعظم تقدمة يمكن أن نقوم بها من أجل أحبّائنا الذين رحلوا إلى الله.

الفصل السادس عشر

مختارات من أقوال الأب تدّاوس[٣٤]

١- نزل إلٰهُنا إلينا نحن البشر لكي يعيدنا إلى حالتنا الأولى[٣٥]، الحالةِ التي خَلَقَنا عليها. لقد فعل كل ما يمكن من أجل أن يفهم الإنسانُ مشيئتَه. كان باستطاعته أن يخلِّص الجنس البشري بطريقة أخرى ولكن الجنس البشري الساقط عطَّل الجهاز الدقيق الذي للعقل البشري فأصبح عاجزاً عن فعل الخير[٣٦]. لقد وقع تحت سلطة قوى الشرّ وأخضع نفسَه لها إرادياً.

٣٤- هذا الفصل عبارة عن مجموعة من تعاليم الأب تدّاوس تمّ تسجيلها خلال التسعينيات. وقد ظهرت أولاً هذه المجموعة مع مختصر عن سيرة حياة الشيخ، على شكل منشور مسيحي سرّي (*samizdat*): وكانت مخطوطة من ١٢ صفحة منشورة ذاتياً، مطبوعة على الآلة الكاتبة ومنسوخة.

٣٥- التجسد الإلهي رفعَنا فوق الملائكة فنحن موجودون الآن في يسوع المسيح ربنا عن يمين الآب وحتى فوق الملائكة. بالمعمودية سكن الروحُ القدس في قلوبنا ووُلدنا ثانية في المسيح مشتركين في ميلاده وصلبه ودفنه وقيامته (راجع أفسس وكولوسي). قال القديس ايريناوس: بالتجسد الإلهي صار الإله إنساناً ليصير الإنسان إلهاً، وهذا كله لم يكن يتمتع به آدم في الفردوس (المترجمة).

٣٦- أوضح الرسول بولس الصراع بين الروح والجسد: فالروح تشتهي ضد الجسد والجسد يشتهي ضد الروح؛ إذ إن خطيئة آدم ألحقت بالطبيعة البشرية الظلمة. قال القديس مكسيموس المعترف إن الخطيئة قطعتنا ألف قطعة ولكن طبيعتنا البشرية المهشّمة بقيت على الصورة الإلهية. ثم جاء التجسد الإلهي ودمُ المسيح يُعطيانها نعمة التأله. قال القديس

٢- لم يخلق اللهُ الشرَّ. فالشرّ يأتي من الأرواح العقلية التي ابتعدت عن محبة الله وانعطفت باتجاه نفسها وتوقفت عن طاعة الله متَّبعةً طريقة تفكيرها الخاصة. إن لم تكن القوة العقلية متحدة **بينبوع** الحياة فمهما سعت للقيام بعمل صالح أو لقول كلمة صالحة فلسوف تتخلَّل كلَّ أفعالها وكلماتها نتانةُ الجحيم لأن الله هو وحده **ينبوع** السلام والفرح والحب والاستقامة والصلاح.

٣- كل الكائنات المخلوقة محدودة، وما هو محدود لا يمكن أن يكون كاملاً. ولكن الكائنات المخلوقة أُعطيت إمكانية الجهاد باتجاه الكمال.

٤- غير أن بعض الكائنات المخلوقة ساقطة. فقد عجز أولاً بعضُ الملائكة عن المحافظة على كرامتهم، وبعدها سقط أيضاً جدّانا آدمُ وحواء بسبب حسد تلك الملائكة الساقطة. وقد تجذَّرت هذه السمةُ نفسها: الحسد، فينا نحن أيضاً. فالحسد لا

بالاماس إننا في المعمودية نأخذ نعمة التجلي. ليس الإنسان عاجزاً عن فعل الخير ولكنه ينجذب على الدوام إلى الشر وبدرجة أقوى بكثير مما إلى الخير (المترجمة).

يتوقف عند حدّ، وهو يصرخ معارضاته في وجه الله في كل حين وفي كل مكان.

٥- كيف يعمل الحسد؟ الحسد روحٌ من الجحيم يقاتل اللهَ والصلاحَ دون انقطاع. الله محبة والحسد لا يمكنه أن يحتمل رؤيتنا نفعل الخير لقريبنا. حين شفى الربُّ - الذي هو محبة - المرأةَ العجوز التي كانت منحنية منذ ثمانية عشر عاماً، للحال أظهر الشيطان وجهه وبدأ يتمرّد على الفور لأن الحسد لا يمكنه أن يحتمل رؤية فعل الخير مع أحد (راجع لوقا ١٣: ١١-١٧). الحسد لا يتوقف. إن روح الجحيم يحسد كل البشر على كل شيء.

٦- وقد فسَّر لنا أحد الآباء الحاملي الإله، القديس نيلس المُفيض الطِّيب، الكثيرَ من أسرار ملكوت السماوات (فقد ظهر للراهب ثيوفانس الذي أقام في كهف القديس نيلس في القرن الثامن عشر). قال إن الحسد هو ختم "ضدِّ المسيح" على قلب الإنسان. فهل تُدركون الآن كم هو رهيب الحسد؟ ولكن المؤسف

أننا كثيراً ما نحسد قريبنا وحتى أقرب رفاقنا إلينا. ونحن لا نبالي ولا حتى نحاول شفاء أنفسنا من هذا الداء والعودة إلى رشدنا.

٧- إلٰهنا يسوع المسيح إلٰهٌ تام وإنسان تام. ولكونه إلٰهاً تاماً فهو يحتضن كلَّ شيء بمحبته، بمحبته التي لا حدود لها. ولكونه إنساناً تاماً فهو محبوب من كل نفسٍ تتوق إليه. كلنا نشعر أن هذه المحبة الإلٰهية هي نوعاً ما بعيدة جداً، وأن الله بعيدٌ جداً، ولكن الواقع أننا نحن الذين نزداد ابتعاداً عنه. **هو** لا يمكن أن يبتعد عنا لأنه **هو** الحياة. وكله محبة. آه، لو كنا نستطيع نحن البشر أن نكنَّ له المحبة نفسها، وأن نقترب منه كصديقنا الحقيقيّ الوحيد! للأسف نحن لا نأتي إليه بهذه الطريقة بل نتحفَّظ [معه] ونقترب منه بتكلّف. حين نصلّي أو نقوم بعمل صالح، نكون رسميّين بالكلية... أما **هو** فيريدنا أن نكون طبيعيين. حين أتى وسكن فيما بيننا أرانا طريقة الحياة: بسيطة، متواضعة ووديعة. علينا أن نقترب منه كما خَلَقَنا: كأولاد أبرياء.

٨- يرتضي ربُّنا بالأعمال الصالحة التي نقوم بها. فكل أعمالِ الرحمة وسواها من الأفعال التي نقوم بها من أجل

خلاصنا وخيرِ قريبنا والكنيسة المقدسة، كلُّها مرْضيَّة لله. ولكن أكثر ما يرضيه هي المحبة البسيطة، البريئة والمُماثلة لمحبة الأطفال، وهي التي تلتصق بقلبه. هذا أكثر ما يرضيه وما يريده منا. وهذا ما يستطيع كلُّ إنسان أن يقدِّمه له أكان غنياً أو فقيراً، شاباً أو عجوزاً.

٩- يبدو أنني أعود دوماً إلى هذا الموضوع وأكرِّر نفسي: علينا أن نتعلَّم كيف نقترب من **أبينا** السماوي، كيف نأتي إليه بقلبنا وبكامل كياننا، وكيف نرضيه على غرار الملائكة والقديسين. فنحن متَّسخون للغاية ولكن الله لا يهتمّ بوساختنا حين نقترب إليه من القلب بل يَقبلنا على الفور. حين نخطئ إلى **أبينا** ثم نقترب إليه من القلب فإنه يغفر كل شيء وكأن شيئاً لم يكن.

١٠- لا حدود لربنا، ومحبتُه لا توصف. يجب أن نقترب منه بقلب منفتح ونكون معه على الدوام لأنه معنا بشكل متواصل. إنه القوة المحرِّكة لحياتنا ويريدنا أن نفهم فكرَه. فقد كانت كلُّ حياته هنا على الأرض وبين البشر طبيعيةً وقريبة منا. قال إنه المحبة وشرحَ لنا أن الله أحبَّ العالم حتى إنه أرسل ابنه

الوحيد لخلاص الإنسان (راجع يوحنا ٣: ١٦). لقد كشف لنا سِراً عظيماً، وعرَّفنا أموراً كثيرة. جعلنا أسمى من كافة الخلائق. فدخلت الطبيعةُ البشرية، التي جُعِلت أسمى من كل الخليقة، في سرّ الثالوث الأقدس والمعطي الحياة.

١١- فماذا يمكن أن نبتغي نحن البشر أكثر مِن أن نكون واحداً مع إلٰهنا وأبينا؟ لهذا يجب أن نتعلَّم كيف نقترب منه في خلال زمان حياتنا القصير الذي أُعطيناه. وبما أنَّ لا قوة لنا من ذاتنا في أي حال من الأحوال فيجب أن نقترب منه من القلب كأولاد أبرياء منفتحي القلوب. يجب أن نتوسَّل إليه لكي يُلقِّننا كيف نكون صالحين وكيف نحبّه بمقدار ما تحبه والدةُ الإله الكلية القداسة والملائكة والقديسون.

١٢- لن يتخلّى عنا الرب إن اقتربنا منه على الدوام من القلب[٣٧]. هو يريد أن تلتهب قلوبُنا وأرواحنا برغبة واشتياق أكبر له حتى لا نبتعد يوماً عنه وعن محبته.

٣٧- الله كالأب في مثل الابن الشاطر يتوق إلى عودتنا. هو الذي أتى إلينا ومات من أجلنا. الله هو الذي فتش عن البشر حين كانوا في ضلال، وليسوا هم الذين فتشوا عنه. لا يمكن أن يتخلى الله عن أحد وحتى الذين نسوه تماماً (المترجمة).

١٣- غالباً ما تصيبنا نوائبُ كثيرة وكل ذلك لأننا لم نتواضع بعد. حين تتواضع النفس وتنحني أمام إرادة الله تتوقف عندها معاناتنا ومصائبنا. لأن مصائبنا ومعاناتنا ستصبح عندها وكأنها عزيزة علينا، وسنبلغ إلى فهمٍ للحياة مختلف تماماً. لا نعود نفكّر بحسب قوانين هذا العالم بل نرى كل شيء تحت نور مختلف. ويبدو كلُّ ما ننظر إليه وكأنه أكثر إشراقاً ومليئاً بالحب. يصبح كل شيء صالحاً لأنه مُرضٍ لله. نحن مخلوقاته وكل مخلوق هو مُلك له. لقد أبدع اللهُ كل الأشياء لنفسه، لكي نصبح مشاركين لمحبته الإلٰهية وسلامه وفرحه الإلٰهيَّين.

١٤- وهكذا ترون الآن أنه علينا أن نداوي أنفسنا. يجب ألا نسمح يوماً للحسد بالدخول إلى قلوبنا لأن الحسد يدمِّر السلام الداخلي وهدوءَ الروح. لنحسب أننا في سلام، ثم يأتي صديقٌ لنا ويخبرنا عن شخص قد اقترف ظلماً بحقِّنا فيما مضى. وهذا الشخص هو الآن ناجح جداً وقد حقَّق الكثير. إن لم نكن قد سامَحْنا هذا الشخص فإن روح الحسد يُطلّ برأسه مباشرة. هذا ما يحدث. يجب أن نكون دوماً يقظين في الصلاة وألا نقبل أبداً ما يوحيه لنا روحُ الحسد.

١٥- يقول الآباء القديسون إننا إن رفضْنا إيحاءً من أرواح الشرّ نحقّق نصراً من دون معركة. لقد تكلم الآباء القديسون عن خبرة. إن رفضنا إيحاءً من أرواح الشرّ يكون النصرُ لنا من دون معركة!

١٦- تنصبُ لنا الأرواحُ التي تحت السماوات فخاخاً على الدوام في أفكارنا. حين رأى القديس أنطونيوس كل أنواع الأشراك التي تضعها أرواح الشرّ لكي تقبض علينا تنهّد وقال: "يا ربُّ، من يستطيع أن يخلص؟" فسمع صوتاً يقول: "وحده الوديع والمتواضع. والأكثر من ذلك: إن هذه الحبائل لن تستطيع حتى أن تمسَّه".

١٧- أرأيتم، حين تتواضع النفس وتستسلم لمشيئة الله لا تعود لأرواح الشر أية سلطة عليها، لأنها تكون [أي النفس] مصونةً بنعمة الروح القدس ومَخفيَّة بالشعلة الإلٰهية.

١٨- لهذا لنخرَّ يا أولادي بقلوبنا أمام الرب، لنصلِّ إليه طالبين منه أن يُلقِّننا كيف نكون صالحين، بصلاح ملائكته

وقديسيه. ما أروع السكنى مع الأبرار، مع الذين عاشوا حياةَ قداسة!

١٩- على البشر هنا على هذه الأرض أن يجاهدوا لرفض ما توحيه إليهم أرواحُ الشرّ. يوصينا آباء الكنيسة بأن نكون يقظين على الدوام ونَعي بأن أية فكرة تعكِّر سلامنا الداخلي تأتي مباشرة من الجحيم، فلا نقبل مثل هذه الفكرة بل نرفضها على الفور. إنْ دخلنا في حوارٍ مع فكرة مماثلة فسنقع سريعاً في شباكها. ولسوف تتولَّد أفكارٌ أخرى كثيرة من هذه الفكرة الواحدة [الآتية] من الجحيم، ولن يكتشف المرءُ إلى أين أخذته أفكارُه وما قد فعل، إلا في وقت متأخر جداً. فإن أمراً شريراً واحداً يقود إلى أمر شرير آخر. ويتساءل المرء حين يعود إلى رشده: "ما الذي جعلني أقوم بهذا؟ كنتُ في سلام والآن فجأة انهار كلُّ شيء". السبب في أن كل شيء قد انهار هو أننا لم نكن يقظين بما فيه الكفاية.

٢٠- المحبة والفرح والسلام كلها عطايا إلٰهية وخصائصُ إلٰهية. بإمكانها أن تجترح العجائب حتى من تلقاء

نفسها. فالمحبة تجمع وتجعل كلَّ شيء مُتكاملاً؛ والسلام يشعّ من شخص وينضح بالصمت؛ والفرح يزيل ألم الروح. حين يقابل شخصٌ فرِح إنساناً حزيناً ويقول له بضعة كلمات لطيفة وسلامية يبدو فجأة وكأن الشمس قد أشرقت للشخص الحزين.

المحبة والسلام والفرح تجترح العجائب وهي منفصلة، وأما إذا اتَّحدت فبإمكانها أن تسود على كل الأشياء. فإن اجتمعتْ وتجذَّرت في العمق في قلب إنسان، فإنه يكون هناك سلامٌ كلما أصدر هذا الشخص فكرةً لأنه يشعّ بالسلام. ويقول الآباء القديسون إن هذا الإنسان قادرٌ على أن يحرِّك الجبال ويشفي الأمراض. وقد أرانا الرب كيف تحصل الشفاءات وقال بأننا سنكون قادرين على شفاء الأمراض بقدرته الإلٰهية. وستكون هذه هي العلامات: سنضع أيدينا على المرضى وسيُشفون (راجع مرقس ١٦: ١٨). هذه هي كلمات الله الحقيقية.

٢١- ولكننا فقدنا الصلاح الذي أسبغه علينا الربُّ وسمَحْنا لأنفسنا بالوقوع أسرى في شباك الأفكار، كحيوان هارب.

ويبدو بأننا عاجزون عن أن نتحرَّر بأنفسنا. يجب أن نعمل بكل قوتنا لمنع أي شيء يعكِّر سلامنا الداخلي من الدخول إلى قلبنا.

٢٢- لقد مهّد لنا الآباء القديسون الطريق وأبانوا لنا درب الجهاد بمعونة الله. والله قويٌ وباستطاعته أن ينجّينا من كل شرّ. وأما نحن غير المختَبرين فنعجز عن المحافظة على ذلك السلام الداخلي.

٢٣- يريدنا الرب أن نرفض الشرَّ بوعي وفهم وأن نقبله **هو** وصلاحَه الإلٰهي، داخل قلوبنا. ومن أجل ذلك علينا أن نلتجئ إلى الرب **ينبوعِ** الحياة وحده. يجب أن نتَّحد به لأننا قد ابتعدنا عنه. ونحن أحياناً نبتعد عن أقرب الناس إلينا وكثيراً ما نشعر بالوحدة وحتى بصحبة أفراد عائلتنا الأقرب إلينا. وذلك لأننا قد ابتعدنا في أفكارنا عن **أبينا** الحقيقي.

٢٤- الحياة الروحية هي حياة النوس والأفكار. لهذا يجب أن نولي اهتماماً وثيقاً لكل الأفكار التي تعشش فينا، وأن نصلي إلى الرب ليل نهار لكي ينجّينا من كل شرّ ويَنقّينا ويعطينا القوة لنرفض إيحاءات الأرواح الشريرة. حين نقبل إيحاءً

فإننا نوافق عليه أيضاً وعندها تبدأ المعركة: نرفض أمراً، فيخترعون إيحاءاً آخر، وبعده آخر ثم آخر... وينتهي بنا الأمر وقد فقدنا السلام. في هذه الحال علينا أن نلتجئ إلى الرب بكل قلوبنا وأذهاننا ونقول له: "لا قوة لي يا ربُّ. لم أتعلَّم من شبابي وقد شِخت في عمل الشرّ وشاخ فيَّ الخبثُ أيضاً. أحتاجُ إلى قوة كبيرة لأنتزعه من جذوره. أما أنت يا ربُّ فجبَّارٌ عزيز. علِّمني أن أكون طاهراً، بسيطاً، وديعاً ومتواضعاً. امنحني هبة خصائصك الإلٰهية التي أسبغتَها على ملائكتك وقدّيسيك".

٢٥- لنخرَّ جميعاً أمام الرب بقلب طاهر مستعملين كلماتنا الخاصة إلى جانب قانون الصلاة الذي نلتزم به جميعاً ونحن في أشدّ الحاجة إليه (لأننا إن لم يكن لنا قانون صلاة فسيعطينا الشريرُ قانونَه الخاصّ: أي كلَّ أنواع الأفكار). لهذا نحن نحتاج إلى الصلاة مهما تكن قصيرة. فمنذ لحظة نهوضنا من السرير لنرفع الشكر إلى الله الذي أهَّلنا أن نعيش خلال الليل. وحين يأتي المساء لنرفع الشكر من أجل كل شيء لأن الرب هو معطي الحياة ومُعطي كل الأشياء. هكذا نبرهن عن حبِّنا له، وبسبب هذا الحب سوف يجتذبنا إلى حضنه.

٢٦- حين تعشق الروحُ الصلاة من القلب لا تعود تطيق الانفصال عن أبيها بل تبقى في صحبته وفي حضرته على الدوام، سواء كانت في محادثة مع الآخرين أو في العمل. مثل هذه الروح تكون معه على الدوام وتسير في حضرته على غرار الملائكة والقديسين. هذا ابتداء ملكوت الله في هذه الحياة. إذ تصبح مثل هذه الأرواح معتادة على الحياة السماوية وتنتقل من هذه الحياة المؤلمة والمليئة بالجهادات إلى الفرح الأبدي لأنها قد تطهَّرت.

BBC: 12207/H/27500/3/4

24: 12206/H/27500/3/4 نالح من لدن الرب ووالدةِ

Nation: 11226/H/27500/3/4 ظيمة. فوالدة الإله الكلية

الوثنية: 12054/H/27500/5/6 لاً كيف كان القديس

DWTV: 11900/V/27500/5/6 الدة الإله الكلية القداسة

MTV: 12130/ 27500/5/6 أة بأنه تحرر من كل

صحا: 10921/V/27500/5/6 صف لهما. أرأيتم، هذا

الديانات: 11176/H/27500/3/4 أن نخرّ أمامها من

العزيزية: 11564/H/27500/5/6 أمام الرب. ولسوف

تصلّي إلى إلٰهنا، ابنِها، لكي يمدّنا بالقوّة لكي نكون صالحين كالملائكة ونمجِّدَ اللهَ في هذه الحياة والحياة الأبدية على السواء.

٢٨- يجب ألا تتركَّز أيةُ حركةِ أفكارٍ آتية من الروح على شيءٍ من هذا العالم. إذ يجب أن يكون اللهُ هو المركز الذهنيّ لمحبتنا، ومع الله نحن نحبُّ كل شيء. فكل شيء فيه ومن خلاله. يجب ألا نصبح متعلقين بأمور هذا العالم.

٢٩- ليست القوات الملائكية مستعبَدة لأفكارها ولا لأمور هذا العالم. إنها تعاين الأمور المخلوقة ولكن أفكارها لا تصبح عبدة لها لأن مركز أفكارها خاضعٌ فقط لقدرة الله، ومن خلالها هي تحبّ كل الخليقة. أما نحن فحالما تقع أعينُنا على غرض يستهوينا حتى نتعلَّق به تلقائياً. إن هذا الأمر لرهيب، وهو قاتلٌ أيضاً. فإن استمرّ ذلك لمدة من الزمن يصبح ذلك الغرضُ لنا صنماً: صنماً يحتلّ في قلوبنا المكان الذي يخصّ الله، بغض النظر عمّا إذا كان ذلك غرضاً جامداً أو شيئاً حياً أو شخصاً.

٣٠- المحبة الإلٰهية لا تحتمل الأنانية. عندما نسقط نصبح فارغين ولا نجد أحداً بقربنا غير ذاتنا. فنحتضن الذات ونحفظها قريباً منا ولا نسمح لأحد بأن يؤذيها، مُريدين أن يفكر كلُّ الناس بنا حسناً. ولكننا في الوقت نفسه لا ننتبه إلى نوع الحياة التي نحياها ولا ما نفعل أو كيف نفعل ذلك. لا ننتبه لأننا مستغرقون في ذواتنا إلى الغاية.

٣١- يجب أن نحتقر الذات من أجل محبة الله، وليس فقط أن نرفض "سيادة" الأنا بل أن نقتلها أيضاً. لأنه إنْ لم تمتْ الأنا لن نستطيع أن نتَّحد بالله لأن "سيادتها" ستقف دوماً حائلاً دون ذلك. إذ تشبه الأنا سيداً عريق النسب وليس باستطاعتها أن تحني رأسها، بل تبقيه عالياً في كل وقت. لهذا نحن بحاجة للتواضع: نحتاج لأن نصبح متواضعين وودعاء.

٣٢- لقد أظهر لنا الربُّ كيف يجب أن نكون: متواضعين وودعاء ومطيعين لمشيئته. وأما نحن فعلى العكس: نريد أن يكون كلُّ شيء موافِقاً لرغباتنا. نحن نعذِّب أنفسنا، ننهكها، وماذا حققنا؟ لن يكون العالمُ كما نريده أن يكون، الأمر

الذي يجعل "سيادتها" غاضبة جداً لأن الأمور لا تسير بحسب مخططها. نحن نعذِّب أنفسنا لهذا السبب واللوم يقع علينا: لأننا لم نتواضع ولم نتَّحد بالرب. حين ننظر إلى داخل قلوبنا نرى "سيادتها" الأنا. حين تأتي التجاربُ وتجرحنا يكون الجرح عظيماً. أترون مقدار الشفاء المطلوب، ومقدار التواضع، ومقدار ما نحتاج بالفعل لأن نلتجئ إلى الرب ببساطة؟

٣٣- مَن تواضع لا يفكِّر بأنه على درجة من الأهمية لأنه يعرف بأنه لا شيء سوى غبار. ولولا أن الرب يحفظنا ويحمينا لكنا لا شيء سوى طين!

٣٤- هل رأيتم الأب كليوبا؟ إنه بسيط جداً. وهذه عطية من الله. إنه لا يعتبر نفسه هاماً بل يعرف بأننا غبار ولولا أن الرب يحفظنا لكنا لا شيء، لا شيء غير طين ونتانة!

٣٥- حين تكون الأفكار مبعثرة يكون القلب بارداً على الدوام. أما حين تتجمَّع الأفكار وتتمركز في القلب فعندها فقط يبدأ القلب بالاشتعال.

٣٦- حين تكون الأفكار مبعثرة وتتشرَّد الروحُ خارج بيتها يكون القلب بارداً. أما حين تكون الروح في بيتها فإنها تُدفئ القلب. ولكن ما أن تغادر بيتها حتى تتلقى الضربات. إنها تتلقى الضربات من الأفكار حين تكون بعيدة عن بيتها. فكرة مقبولة، وأخرى مرفوضة... ولا شك في أن القلب سيتمزق إرباً ويبرد، وكأنه يقول: "هذا لا ينفعني، ولا هذا ينفعني..." وكل هذا يجرح القلبَ من الداخل، ويصبح القلب مرهَقاً. أما حين تعود الروح إلى بيتها وتتصالح مع الرب فعندها يصبح الربُّ مركزَ حياة الإنسان، فيشعر بالصلاح والدفء. نحن مشتَّتون ومتهشِّمون ووحده الرب **هو** القادر على أن يجعلنا، بنعمته، كاملين من جديد.

٣٧- ينظر الرب إلى عمق القلب الداخلي، إلى ما يشتاق إليه القلبُ ويرغب به. وإن وجد [الربُ] بأن الروح عاجزة عن العودة إلى بيتها فإنه، في الوقت الذي يراه مناسباً، سيُنقّيها ويجذبها إلى المركز حيث ستجد الروحُ السلام. فإنْ كان هناك أمر غير نقيّ في أعمق أعماق القلب، أمرٌ متعلِّق بهذا العالم ومقيَّد به، فإن تشرُّدَنا سيدوم طويلاً وسنُكابد الكثير من الحزن

والمعاناة. وسنعاني نحن المتديّنين، إذا جاز التعبير، حزناً أكبر من الآخرين وذلك لأنهم لا يشعرون بالألم الداخلي ولا يفكرون بالأبدية بل بأمور هذا العالم فقط: كالاستمتاع والطعام والشراب... وانتباهُهم مرتكز بالكلية على هذه الأمور في حين أن انتباهنا منقسم: نحن نبتغي أن نكون مع الرب ومع ذلك لم نتخلَّ عن الأمور المادية بل ما زال قلبُنا متعلقاً بها ولسنا أحراراً. لهذا السبب نحن نتألم بشدة.

٣٨- على القلب أن يتحرر من شهواته. لو علِمْنا بأن كل علاقاتنا بإخوتنا البشر وعائلتنا لا تعدو كونها أموراً عالمية تقيِّدنا إلى درجة أن قلوبنا تصبح متعلقة بهم، فمن الأفضل عندها أن يكره المرءُ أباه وأمه وأخاه وأخته وامرأته لأن كل لك غير مفيد لنا إنْ كان يدمِّر سلامَ الله. وفي هذه الحال الأفضل أن يكره المرءُ كل ذلك ويتَّحد بالرب ويصلّي إليه متوسِّلاً معونته. علينا أن نتواضع ثم نعيد تكوين علاقة صحيحة مع كل إخوتنا البشر. الأهم هو الاتحاد بالرب، وعندها سيعلِّمنا [الربُّ] كيف نحب قريبنا لأننا لا نعرف كيف نحبه إذ تتحوَّل محبتُنا في الحال إلى شيء مادي لأنها لم تتطهَّر من الداخل.

٣٩- على المرء أن ينقّي قلبه من الغايات والشهوات العالمية. وعندها فقط يمكننا أن نحب قريبنا بصدق وإلا فستلتصق محبتُنا الأرضية بالأمور [المادية] الواحد تلو الآخر. هذا حب عابر ووقتيّ وهو يمزقنا بشكل متواصل فلا نعود نفهم الحياة التي نحياها بل نعيش بشكلٍ سطحي.

٤٠- يجب أن تكون لنا فكرةٌ واحدة ورغبة واحدة في الذهن في كل أمرٍ نعزم على القيام به، لأن هذه هي مشيئة الله. إنه يريد أن يكون لنا كلِنا فكرٌ واحد. وقد صلّى الربُّ أن نكون واحداً. ونحن ماذا نفعل؟ إننا منقسمون على الدوام وحتى في داخل محيط عائلتنا. وهذا لا يجوز. نحن نريد أن نحقق مشيئتنا. بإمكاني أن أفهم ذلك حين يكون رأسُ العائلة ملحداً ويدعو الربُّ أحدَ أفراد عائلته إلى الإيمان. ولكن على هذا الشخص الذي دعاه اللهُ أن يتصرف بحكمة. عليه ألا يشنّ حرباً في ذهنه على بقية أفراد عائلته على الإطلاق لأنه لن يحرز بذلك أيَّ تقدّم. وفي هذه الحال سيصبح الشخصُ المؤمن كالمجرم الذي يقتل بأفكاره ورغباته أقربَ الناس إليه.

الأمر يختلف تماماً إذا اتحدنا بالرب وقال لنا رأسُ العائلة: "أنكرْ إيمانك!" عندها لن يكون مثلُ هذا الشخص أبانا ولا قريباً لنا. وعندها يمكننا أن نُجيب: "لا أستطيع أن أُنكر الرب فقد أصبحت وإياه واحداً في قلبي. أنا له، وحياتُه الإلٰهية هي فيَّ. لا يمكنني أن أتخلّى عن الرب، أما أنتَ فافعل ما تشاء". وهنا أيضاً يجب ألا نفكر مطلقاً بأي أمر مسيء بخصوص هذا الشخص، لأنه حتى أصغر فكرة سلبية ستعكِّر سلامنا. سيتعكر سلامُنا الداخلي ويصبح قريبُنا معادياً لنا. لذا فإن الأفكار غير المرتكزة على الحب، حتى ولو مرّت بسرعة شديدة، فهي قادرة على أن تدمِّر كلَّ خير.

٤١- في عائلة كبيرة يكفي أن يكون هناك فردٌ واحد مستاء، وليس بالضرورة أن يُظهر ذلك، بل يكفي أن يبدأ بتغذية أفكار عن الشفقة على نفسه وكيف أنه يلاقي سوء المعاملة من القريبين منه، حتى يتعكَّر السلامُ في تلك العائلة. بإمكان شخص واحد أن يعكر سلامَ العائلة بأسرها بأفكاره. وعندها يصبح الجميع تعساء من دون أن يعلم أحدٌ السبب وراء ذلك.

٤٢- يجب أن نتصرَّف بطريقة واحدة مع كل إخوتنا البشر. لا نُصنِّفنَّ الناس قائلين: "أني أحب هذا الشخص، وأما فلان فلا أحبه". لأنكم بقولكم هذا تكونون قد أعلنتم الحرب على الشخص الآخر الذي لن يعود يحتملكم وحتى ولو لم تُظهروا له أية علامة خارجية من الكراهية، سواء بالكلام أو بالحركات، فقد فعلتم ذلك بأفكاركم، وهذا كافٍ.

٤٣- نحن المسيحيين قد لبسنا المسيح بالمعمودية المقدسة. لقد لبسنا الله، واللهُ محبة. فكيف يحدث أننا، بعد أن اتحدنا بالله بالمعمودية المقدسة، نشنُّ الحرب عليه؟ كيف نشنّ الحرب؟ بأفكارنا! نبعث أفكاراً سلبية نحو إخوتنا البشر.

٤٤- ما أن تتولَّد فينا فكرةٌ غير مرتكزة على الحب نكون قد قبلنا الإيحاءات الشريرة التي من الشياطين. بقبولنا فكرة سلبية نحن نقبل الشيطان نفسه. الشياطين غير منظورين ولكننا نعيرهم أجسادنا لكي يصبحوا منظورين.

٤٥- بإمكاننا أن نرى الروح الذي سيطر على نفسِ أحدِهم من الشرّ الذي يُبديه. إذ يظهر الشيطانُ من خلال ذلك

الشخص، صارخاً ومجدِّفاً. وليس الشخصُ هو الذي يصرخ شاتماً الله لأن روحه مسيحية، بل الشيطانُ الذي سيطر على جسده، قاذفاً به إلى هذه الناحية وإلى تلك، كما يحلو له.

بدل أن نجاهد لكي نفهم معنى الحياة فإننا نقاومها ونرسل أفكارَنا الخبيثة إلى إخوتنا البشر. وهكذا نصبح أشراراً. لأننا منذ اللحظة التي وُلِدت مثلُ هذه الفكرة في أذهاننا قد قبلنا الشيطان لأنه قوة عقلية وبإمكانه أن يدخل إلى جسدنا. ومنذ اللحظة التي نوافق فيها على مثل هذه الأفكار يكون قد وصل! وكم وكم من المرات دخل وسيطر على أجساد أشخاصٍ مؤمنين ناهيك عن غير المؤمنين! فكم من مرة أظهرْنا الغضبَ تجاه الذين شتمونا أو عاملونا بطريقة ظالمة؟ فإن فكَّرْنا بالشرّ عن أحدهم نكون وكأننا نقتله! لأن كل ما يتَّحد من أفكارنا بمشاعر القلب يحضر أمام الكرسي [الذي يجلس عليه] الربُّ للدينونة.

٤٦- لذا علينا أن نتعرَّف إلى الشرّ بتمييز ونَقبلَ الخير بتمييز. يجب أن نكون يقظين في كل الأوقات حتى نمنع ذوي

النوايا الشريرة من الدخول إلى حجرتنا الداخلية. المطلوب يقظة وحذر في كل الأوقات!

٤٧- كم تفوق اليقظةُ النسكَ والصوم والعمل!

٤٨- قال الرسول (١ تس ٥: ١٧): "صلّوا بلا انقطاع". إن صلاة القلب هي أعظم جهاد يقدِّمه المرء لله. لأن الأرواح الساقطة تعرف أنه بالصلاة يقترب قلبُ الإنسان أكثر من الله، فلا تنفكّ تحاول أن تجعلنا متعلّقين بأي أمرٍ من هذا العالم.

٤٩- أول ما نحتاجه عند الصلاة هو الانتباه. وبدون الانتباه لا تكون الصلاة نافعة. أما إذا أهمل المرءُ الصلاة كلياً فهذا أسوأ الأمور. عليكم أن تجاهدوا!

٥٠- ولكن انتباهنا في حالة شرود دائم. وقد صلّى الآباء القديسون على الدوام لكي ينقذهم الله من الشرود في أثناء الصلاة.

٥١- علينا أن نقوم بكل عمل بمثابرة مع الرب. إذ لا ينفكّ العدو عن محاولة تحويل عقلنا إلى حيث كنا، وما فعلنا،

وما سمعنا، وحتى في أيام شبابنا. ولأرواح الشر طريقتها في ربط هذه الأمور: إذ لديها أرشيف كامل لكل أفعالنا... هي تعجز عن رؤية أفكارنا الداخلية ولكنها تستطيع أن ترى حالة روحنا. لهذا نحن نحتاج إلى جهد جبّار لنقرّب قلوبنا إلى الرب ونكون معه في كل الأوقات. هذه هي الصلاة المفعمة بالجهاد.

٥٢- وإلى جانب الصلاة المفعمة بالجهاد، هناك الصلاة المفعمة بالنعمة. إذ عندما يعاين [الرب] جهودَنا ورغبتنا في الاتحاد به وإهمالَنا كل الشهوات العالمية فإنه يحرِّرنا تدريجياً من اهتمامات هذا العالم ومن التعلّق بالأمور الدنيوية وينقل الروحَ إلى حالة من التواضع والبساطة. فلا تعود الروح تهتمّ أو تتأثر بالإساءات بل تصبح سلامية وتُسلِّم بكل شيء بتواضع. وتتطهَّر الروحُ تدريجياً وتصبح مستعدّة لاقتبال الشعلة الإلٰهية لكي تكتسب الصلاة الدائمة من خلال الروح القدس.

٥٣- إن الأطهار وبسطاء القلوب وغير المُثقَلين باهتمامات هذا العالم يحصلون في وقت قصير على الشعلة الإلٰهية، شعلةِ الصلاة الدائمة، قبل غيرهم. على عكسنا نحن

الفضوليين التوّاقين إلى معرفة هذا وذاك من الأمور والمُثقلين بهموم هذا العالم واهتماماته، فإننا نحتاج إلى الوقت لكي نتجدَّد ونتخلّى عن اهتماماتنا الدنيوية ونولدَ من جديد... ولكننا نعجز عن تحقيق ذلك بمفردنا: يجب أن ينزل الروحُ القدس ويدخل قلبنا ويطردَ منه كلَّ الأمور الدنيوية حتى لا تعود تسيطر عليه حكمةُ هذا العالم. حينئذٍ نتَّحد بالله. وعندها فقط يمنحنا الربُّ الحكمة الحقيقية والمعرفة الحقيقية والعميقة عن كل الأشياء الموجودة. فتتكشَّف للمرء الأسرارُ السماوية بمقدار تواضعه. ويُعطى للوديع والمتواضع أن يعرف سرّ كل ما يحيط بنا. ويصبح لمثل هذا الشخص إدراكٌ روحيّ لكل شيء. ويكتسب إدراكاً أعمق من الذين أمضوا السنين في دراسة حكمة العالم. فإن مفتاح السرّ هو في الله، ولن تكون للبشر معرفةٌ كاملة للأشياء حتى يتحرَّروا من حكمة العالم. وقد يظنون بأنهم حققوا الكثير واكتسبوا معرفة عظيمة في موضوع ما، ولكن الحكمة الإلٰهية لن تدخل عقولهم وقلوبهم ما داموا يرون الأمور من هذا المنظار. وإلى هؤلاء لن تُعطى سوى [معرفة] أحداث سطحية مقابل جهودهم في دراسة الطب أو الفيزياء.

٥٤- الأفكار في العالم الروحي واضحةٌ وضوحَ الكلام. وبالإمكان سماعها. لذا فإن الجهاد الذي يبذله المرء لتحسين روحه هو أثمن من أية عطية أخرى. فإن لم نتحضَّر للأبدية بتقويم أطباعنا لن نقدر على دخول جماعة الملائكة والقديسين بل سننتقل إلى الأبدية مع كل تلك العيوب والخطايا.

٥٥- ما دام لنا أدنى اتكال على أيِّ أمر كان من هذا العالم فإن ثقتنا بالله ضعيفة جداً. كان من عادة الآباء القديسين أن يقبلوا المسرّات والمحن على السواء على أنها آتية من الله، فبلغوا التواضع. حين يرى [الله] بأن الروح قد أصبحت جاهزة فإنه يرسل نعمة الروح القدس على ذلك الشخص فينال عطية الحرية والسلام والفرح والتعزية. بعد ذلك لا يعود هناك من خوف. أما نحن فإننا ممتلئون من المخاوف.

٥٦- يبقى الخوف موجوداً إلى أن يستنير المرء بالروح القدس. بعد ذلك ينتفي الخوف. وتشعر الروحُ بالعطف على كل الناس إذ تُدرك بأن كل الخليقة تتألم بسبب سقطة الإنسان. مثل

هذا الشخص قادر في أي وقت على ذرف الدموع من أجل كل الناس والصلاةِ من أجل الجميع.

٥٧- قد يبذل المرءُ جهداً عظيماً ويجاهد من أجل خيرِ إخوته البشر في هذا العالم ولكن روحه تبقى موحلة بالخطيئة. قد يتجاوز الإنسان معظم محطات الجبايات[٣٨] ثم يُلقى به في جهنم حين يصل إلى محطة الرحمة لأنه على الرغم من كل جهوده لم يفطن إلى أن قلبه كان مقيداً بشدة إلى قوى الجحيم. قد يُنجِز في حياته العديد من الأعمال الصالحة فتخلص أرواحٌ كثيرة بفضل جهوده (لنقلْ إنه قد شيّد كنائس عديدة)، ولكن إن لم يجعل كل اهتمامه في تطهير روحه فإن تعلّق أفكارِه بأمور هذا العالم سيمنعه من ولوج عالم القيم الأبدية الذي لا تشعر به سوى الأرواح الطاهرة دون سواها. مثل هذا الشخص تسيطر عليه أرواح الخباثة بنسبة عدم رحمته. إنه في قبضتها حتى في خلال حياته الأرضية، وحين تغادر روحه جسده سيصبح هذا الشخصُ في قبضتها.

٣٨- راجع الحاشية السادسة من الجزء الخامس عشر من هذا الكتاب.

٥٨- لا يمكن أن نخلص من دون أن نحارب الشيطان! نحن سلالة والدَينا اللذين ورثنا عنهما كل تلك الخصائص السلبية التي ليس من السهل التخلص منها. يجب أن نقاسي وجع القلب لكي تتحرر أرواحُنا من هذه القيود العقلية. عدوُّنا يهاجم مباشرة أو غير مباشرة من خلال الآخرين. وهكذا فإننا نحارِب – بما يتوافق وعناية الرب الإلٰهية – ونستعيد رشدنا تدريجياً. من دون المحن لن يصلّي أحد إلى الله.

٥٩- وفي النهاية ندرك بأن معونتنا في هذا العالم معدومة ونقول: "لا أحد يفهمني". وتبحث الروحُ عن الحب الذي لا يتغيّر، ولكن لا وجود لشيء من هذا القبيل هنا على الأرض. وحده الرب **هو** القادر على تعزيتنا.

٦٠- يسمح لنا الرب بأن نشعر بأنه معنا بمقدار ما نتخلّى عن همومنا العالمية. فالرب سلامٌ وفرح؛ هو لنا أبٌ وأمٌ وصديق، ولنا فيه كل شيء. **هو** الذي يملأ احتياجات الروح.

٦١- حين تتحد الروحُ بالرب عليها أن تبقى يقظة على الدوام. فنحن ما زلنا في أجسادنا التي من خلالها نتعلق بأمور هذا العالم.

٦٢- كثيراً ما يسمح الربُّ بأن يباغتنا العدو، فنتساءل: ماذا حلَّ بنا؟ يسمح الرب بأن تحدث هذه الأمور لكي نُدرك بأننا لا شيء وأن ثقتنا بأنفسنا هي لا شيء. يجب أن نتعلّم ألا ننسب لأنفسنا أي فضل على الإطلاق.

٦٣- يجب أن نعتني على الدوام بأن نُرضي الرب في كل ما نفعله أو نفكر به. نعم، حتى في أفكارنا. فكل عمل نقوم به في هذا العالم هو عمل الله.

٦٤- لو كنا نحب الرب من كل قلبنا لما اقترفنا أية خطيئة مهما حيينا، لأنه سيكون معنا. هو القدرة التي بشُعلتها يحترق كلُّ ما هو دنس وكل خطيئة. ولَما دخل قلوبَنا يوماً أمرٌ دنِس.

٦٥- لأننا نعيش في الجسد ولأننا غير طاهرين، فكلما ابتغينا أن نُظهر محبتنا لقريبنا تتدخل أهواؤنا الجسدية [في هذا الأمر]. علينا أن نفصل المحبة عن الأهواء. فالأهواء ثمرة الشياطين. يجب أن نكثّف انتباهنا على المحبة الإلٰهية التي لا تُميِّز. فالمحبة الإلٰهية ليست أنانية بل تشمل كلَّ شيء وتجد فرحها في كل شيء.

٦٦- أن حرب الأفكار وعبودية الأفكار... معركة متواصلة لا تتوقف على الإطلاق. وأما المرء الذي يحوز - بمعونة الله - معرفة أكبر في صدِّ الهجمات التي تأتيه على شكل أفكار، فسيعرف أن هذه الهجمات هي من الشيطان وسيصرخ: "يا رب، ما هذه القذارة التي فيَّ! وقد جاءتني معها فكرة أن فلاناً قد أساء إليّ وهذه الفكرة لا تتركني... بعد ذلك سمعتُ بالحرب التي تدور في البلاد الفلانية وبالظلم الذي يحصل فيها. ومن جديد لم تعد أفكاري تتركني في سلام وبدأت أُبدي رأيي. وفجأة تحطّم سلامي: فقد بدأتُ أَدين [الآخرين]..." يجب أن ندع كلَّ شيء للرب فهو سيهتم بكل شيء في العالم. يجب ألا تصبح أفكارُنا متورّطة في هذه الأمور الدنيوية لأننا إن

تركناها تتورّط فيها فسنصبح في حرب متواصلة مع العالم، نقاتل بالكلمات والأفكار، ولن يكون لنا سلام. وفي نهاية حياتنا الأرضية سيتضح بأننا أصبحنا معتادين على المشاجرات المتواصلة!

٦٧- إن عاصفة الأفكار وتشوّش الذهن على أثر تأدية المرء اعترافه واستماعه إلى نصيحة أبيه الروحي يدلاّن على أن هذا الشخص قد استسلم للكبرياء وأنه يشنّ حرباً في أفكاره ضد أبيه الروحي. الرب يرى ذلك ويسمح بأن يتعرَّض هذا الشخص للتجارب.

٦٨- حين يفقد المرءُ النعمة لا يلاحظ ذلك لمدة من الزمن بل يظن بأنه ما زال في حالة النعمة لأن أفكاره ما زالت حية. إنه لا يدرك بأنه قد أصبح بارداً وأنه في خطر فقدان الحياة الأبدية.

٦٩- ضعْ شخصاً متواضعاً ووديعاً في وسط الجحيم فلن يتذمَّر.

٧٠- تجارب كبيرة (معاناة) تحلّ [بنا] قبل أو بعد الخير الذي يمنحنا اللهُ إياه. ويحدث ذلك حتى لا تمتلئ الروحُ بالكبرياء.

٧١- منذ الأزل شاء الرب أن يتجسّد لأنه علم بأن الكائنات العاقلة لن تحافظ على حالتها. يجب أن نعود إلى حالتنا الأصلية حين كنا أطهاراً، ودعاء، متواضعين وطيّبين لكي نكون في شركة مع الله الذي هو محبة.

٧٢- لا تقدر الروح على فهم الأمر الإلٰهيّ إلا إذا دخل المرءُ في شركة مع الملائكة والقديسين. ويسمح الرب أحياناً بأن يحدث ذلك لشخص عادي. حين يشعر شخصٌ متألم بأن لا راحة له ولا تعزية من أي إنسان على الأرض، حين يشعر بأن الجميع يكرهونه ويرفضونه، عندها الربُّ نفسه **هو** الذي يعزيه.

٧٣- كل تلك الأرواح العقلية الساقطة تطوف في الأرض. وكل خطيئة هي صفةٌ لها. كل خطيئة تكون في البداية فكرة، فكرة قوية.

٧٤- تحاول الأرواح الساقطة أن تجد "تعزية". بعضها يبحث عنها في الغيظ والغضب والبعض الآخر في اليأس وغيرها في الفحشاء. فهناك درجات في الخباثة حتى عند الأرواح الساقطة.

٧٥- على المرء أن يكون بسيطاً على الدوام وخالياً من كل تعجرف. حالما يصبح المرء متعجرفاً يكون مصدر التعجرف واضحاً تماماً: من الأرواح الساقطة التي تطوف في الأرض.

٧٦- حين تكون الروحُ في الجسد تكون محميّةً فإذا خرجت من الجسد تفقد الحماية بالكامل وتغدو عارية وسريعة العطب كالحلزونة التي أُخرجت من صدفتها.

٧٧- إذا استمرت الروح في تواضعها فالربُّ يُنيرها أكثر فأكثر.

٧٨- يكون البعض متحدين بالرب إلى درجة أن لا فكرة نجسة تلامس أذهانهم على الإطلاق. إنهم لا يدخلون، في أفكارهم، بأي نوع من الاتصال مع الأرواح الساقطة.

٧٩- نعرف من مثال القديس يعقوب الصوّام أن هدف الأرواح الساقطة هو أن تُكرِه البشر على ارتكاب الخطايا لكي يفقدوا موهبة الشفاء واجتراح العجائب. ولكن لنعلمْ أيضاً أن هناك من سقطوا في الخطيئة رغم أنهم عاشوا حياة قداسة. وقد حصل ذلك لأنهم لم يُطهِّروا أنفسهم بالكامل من كل نجاسة. ونعرف مثال عذراء سقطت في خطيئة الكبرياء إلى درجة أنها صارت تحتقر كل المتزوجين.

٨٠- تدوم الطهارة الفلسفية ما دامت أفكارُ المرء مستغرقة في الفلسفة. علينا أن نبلغ النقاوة التي هي ثمرة حبنا لله.

٨١- نحن شاردو الذهن إلى حدٍ بعيد وتركيزنا ضعيف. نحن مثل مرآة محطمة تعكس الواقع في جزيئات صغيرة إلى أن تجعلنا قدرةُ الله كاملين من جديد وقادرين على عكس صورته بأمانة.

٨٢- لو استجاب الربُّ كل صلواتنا لظننّا بأننا ما عدنا بحاجة إلى نصيحة من أحد ولا حتى من الكنيسة. وقد يسيء

الشيطانُ إلى صحة أحدهم فيُطلب منا الصلاة من أجل المريض ثم ينسحب الشيطان من الشخص المريض - ظاهرياً بفضل صلواتنا - فنسقط عندها ضحية الضلال الروحي.

٨٣- حين نطلب من الآخرين الاحترام والانتباه فإنهم بالعادة يديرون لنا ظهورهم. وأما حين لا نبالي مطلقاً باحترام الآخرين ولا نولي ذلك أي اهتمام فعندها يتحلَّق الناس حولنا ويتبعوننا.

٨٤- أفكارنا الخبيثة تولّد الشرّ وتعكِّر السلام في الكون.

٨٥- ما هي سرعة حركة الملائكة؟ الملائكة كائنات روحية وسرعة الروح تعادل سرعة الفكرة. فسرعة الفكرة هي نفسها سرعة الروح.

٨٦- إنْ لم تتكشف الروح من خلال الجسد فهي تتعرَّض للخطر من خلال الفكر. في الليل تتواصل الروحُ مع العالم العقلي. وتطارد الشياطينُ على الدوام الروحَ التقية الممتلئة من النور وتبتغي أن تخنقها، فكأن متمرِّداً قد ظهر في عالمها

المظلم. نحن نسمح لأرواح الشر بالاقتراب منا عن طريق كبريائنا.

٨٧- تتنوَّع حالات الروح في النوم وعند الاستيقاظ. حين تكون الروح في سلام تكون الأفكار مرتاحة. وفي مثَل آخر: يخلد شخصٌ إلى النوم وهو مرتاح ولكنه ينهض صباحاً مُحطَّماً بالكلية ومتعباً وكأنه أمضى الليل بطوله يكدح في عمل مرهِق، كما أن أفكاره في حالة اضطراب. وكأن شريط فيلم في داخل رأسه يُريه مشاهد من الماضي، كما تظهر في الوقت نفسه مخططاتٌ ضبابية للمستقبل. وتصنع الروح من هذه "الاقتحامات" تركيباتها الخاصة. ولكن حين تكون الروح خالية من هذه التركيبات ومن الضغط النفسي عندها تكون أحلامُ المرء سلامية ويستيقظ في الصباح مرتاحاً ومتجدِّداً. ويجوز أيضاً أن نخوض حرباً مع أرواح أشخاص آخرين وأن نتجادل معهم في خلال نومنا.

٨٨- كثيراً ما يكون الأدب نتيجة أكاذيب الأرواح الساقطة. مثل هذه الأقاصيص والكتب ليست أعمالاً مسيحية.

كما أن بعضها يحتوي على أمور شيطانية وأكاذيب لأن الشيطان هو أبو الكذب. حين يستغرق أحدهم في التخيّلات فإنه يسقط حالاً في الشِّباك التي نصبتها الأرواحُ الشريرة. وعندها يقول له الشيطان: "ها قد أصبحتَ مثلي!"

٨٩- يسمح الرب بأن تصيبنا في هذه الحياة الأرضية خيباتُ أمَل وأحزان ومصائب كثيرة لكي لا نعود نضع ثقتنا في العالم الذي يؤذينا بشدة ولكي نُدرك بأن [الرب] وحده **هو ينبوع** كل تعزية وسلام وطمأنينة.

٩٠- حين يعجز الشيطان عن إلحاق الأذى بنا من خلال أفكار مضطربة فإنه يهاجمنا عن طريق أفكار سلامية. وبعد أن نمضي بعض الوقت في البناء على أساس هذه الأفكار شبه السلامية نتبيَّن مَن يقف بالحقيقة وراءها.

٩١- يدخل شخصٌ إلى دير وهو لا يعرف تماماً لماذا أتى. فيشرع في عَيش حياة عالمية في الدير. مثل هذا الشخص لا يمكنه أن يحتمل رؤية أحدهم ينمو في الإيمان؛ ثم يرحل من هذا العالم حاملاً في شخصيته هذه السمة التي عجز عن

تقويمها. فإن كانت هذه هي حالنا يجب أن نصلي إلى الرب على الدوام هكذا: "يا ربُّ ساعدني على تقويم هذا الخلل في شخصيتي!"

٩٢- لن يستجيب الربُّ كل صلاة لنا لأننا لو حَظينا باستجابة كلِّ صلواتنا كلما طلبْنا أمراً ما لتيقَّنّا من أنه لا يوجد على هذه الأرض من هو أحكم ولا أكثر أهليَّة منا. ولكُنا وثِقنا بأن لا حاجة لنا لنصيحة أيٍ كان وفي أي موضوع كان. ويكشف لنا الربُّ أحياناً أجوبة على بعض الأسئلة والأسرارِ التي في أفكارنا ولكنه لا يكشفها أحياناً أخرى حتى نطلب نصيحة الآخرين ونتواضع.

٩٣- غالباً ما نغضب حين يسيء إلينا أحدُهم أو يسخر بنا إلى أن تستقرّ علينا النعمةُ الإلهية. وحين نقتبل النعمة لا نعود نشعر بالألم حين يسيء إلينا الآخرون بل نبقى هادئين وسلاميين وكأن الإساءة لم تكن موجَّهة إلينا على الإطلاق.

٩٤- عندما نتجادل مع أحدهم نسعى دوماً لإقناعه بأنه على خطأ. وهكذا يصبح الجوّ متوتراً إذ يجادل الشخصُ الآخر

ولا يقبل بتصويبنا. وأما نحن فنُبدِّد وقتَنا ونعكِّر سلامنا الداخلي دون جدوى. لو كنا نملك التمييز لعرفنا مَن هو الذي يتكلم بالحقيقة، لعرفنا أن "غريمنا" ليس هو المتكلم بل الروحُ الساقط الذي يتكلم من خلاله. لا نفع من الجدال مع الذين يشنّون الحرب على الجنس البشري منذ آلاف السنين وهم كثيرو الفطنة وذوو خبرة في هذه الحرب ضد الناس.

٩٥- ما هو الصوم؟ ليس الصوم إمساكاً عن الطعام بقدر ما هو إمساك عن الأفكار النجسة.

٩٦- حين يجد الروحُ الشرير شخصاً يحاول أن يُرضي الله ويُحرز تقدّماً في الخير يجد طريقَه إلى قلوب أشخاص آخرين ومنها يحسد الشخصَ التقيّ. هكذا يخلق الروحُ الساقط نزوعاً شريراً في بعض الأشخاص تجاه أخيهم فيحسدونه ويرتكبون تحت تأثير الشيطان العديدَ من الأعمال الخبيثة ضد أخيهم وينشرون عنه الأكاذيب والشائعات ويزعجونه في أثناء تأدية عمله. ويبدو لنا أن الناس هم الذين يحسدون أخاهم الورع ولكن الحقيقة أنَّ روح الإثم هو الذي قد رسّخ مكانه في قلوب

هؤلاء الأشخاص وهو الذي يحسده. وبالطريقة نفسها يدخل روح الشرّ إلى قلب إنسان سمع بأن مصيبة قد حلَّت بشخص هو على علاقة غير جيدة به منذ وقت طويل. إنه لا يعرف بأن روح الجحيم هو الذي يبتهج للمصيبة التي حلَّت بقريبه.

٩٧- يمكن للروح أن يشغل مكاناً أكبر بكثير من حجم الجسم البشري، ولكن باستطاعته أن يشغل أيضاً مكاناً أصغر بكثير من ذلك، بحجم سنتمتر واحد مكعَّب. لهذا يمكن أن تدخل كتيبةٌ كاملة من الأرواح الساقطة في إنسان. إنهم يبتهجون حين يحتلون جسد إنسان ويصبحون "متجسدين" في جسد بشريّ.

٩٨- أخيراً لتُمنح لكم كلُّ عطية صالحة من لدن الرب ومن والدته الكلية القداسة التي هي حاميتنا وشفيعتنا أمام الله فإنها ستطلب من ابنها وإلٰهنا أن يعطينا القوّة لنكون صالحين ونمجِّد الله هنا على الأرض وفي الأبدية أيضاً، آمين.

شكر

هذا المؤلَّف، "أفكارُنا تحدِّد حياتنا"، مُترجَم عن الكتاب الصربي "سلامٌ وفرح في الروح القدس" (بلغراد: "أوبراز"، ٢٠٠٤) الذي كان المحاولة الأولى لتقديم كل ما كان متوفراً من حياة الشيخ تدّاوس وتعاليمه. وقد احتوى الكتاب بالدرجة الأولى على أحاديث وحوارات ومواعظ نُشرت حرفياً وتمّ تدوينها نقلاً عن تسجيلات للشيخ.

ولتجنّب الإطالة رتَّبنا تعاليم الشيخ تدّاوس بحسب المواضيع. وأدرجْنا في نهاية الكتاب موعظة وحديثاً بكاملهما لتقديم رؤية أكثر شمولية لطريقة تقديم الشيخ تعاليمه. وهنا نود أن نشكر بشكل خاص بربارة توندر لتنقيحها الأوّلي للترجمة.

وقد استقينا مواد "حياة الشيخ تدّاوس" المُدرَجة في هذا الكتاب، بالدرجة الأولى، من مقدمة كتاب "سلام وفرح في الروح القدس" لمؤلِّفه ماتيج [متى] أرسنيجيفيتش. كما أخذنا معلومات

أخرى مُدرجة في سيرة الحياة من أقوال الشيخ خلال حواراته وأحاديثه كما من ذكريات أبنائه الروحيين.

نودّ أن نشكر كل الذين عملوا بجدٍ في نشر الكتاب الأصلي باللغة الصربية: الأب سردجان جبلانوفيتش الذي حصل على برَكة شخصية من الأب تدّاوس لنشر مثل هذا الكتاب (بشرط أن يظهر إلى العلن بعد رقاده) والذي أعارنا الكثير من أشرطة التسجيل والنصوص؛ والأبَ دراغوسلاف توبولاك الذي تكرَّم بإعارتنا صوراً فوتوغرافية عدّة للشيخ وأشرطة تسجيل إلى جانب نسخة عن "مقتطفات من أقوال الشيخ تدّاوس"؛ وفلاديمير ستيفانوفيتش الذي قدَّم لنا الكثير من أشرطة التسجيل وأقراصاً مدمجة تحمل صوت الشيخ تدّاوس؛ وميرا بريشيفيتش التي دوَّنت بجدٍ، كلمة بكلمة، تعاليم الشيخ وعظاته؛ وميلينكو ستيفانوفيتش الذي بفضله اكتشف الناشرون بعض الصور الهامّة للشيخ؛ وجوفان سربولج محرِّر دار "أوبراز" للنشر في مدرسة القديس ألكسندر نفسكي الرسولية، الذي عمل على طباعة "سلام وفرح في الروح القدس".

فهرس

	الصفحة
تمهيد	١
مقدمة الطبعة العربية	٥
الجزء الأول – حياة الشيخ تدّاوس	٩
طفولته وشبابه	١١
الدعوة الرهبانية	١٧
دير ميلجكوفو: في فردوس النعمة الأولى	٢١
النذور الرهبانية والرسامة الكهنوتية	٣٦
اعتقالان وظهور عجائبي لملاك الله	٣٩
أعوام ما بعد الحرب	٤٤
التعزية من خلال أقوال الآباء القديسين	٥٣
حين نُصلّي من أجل أحدهم نأخذ معاناته على عاتقنا	٥٥
"لا أنا، بل الربُّ"	٦٤
"لنكن أبناء النور"	٧٣
شهادة وديعة للمخلِّص الوديع	٧٧

الجزء الثاني – تعاليم الأب تدّاوس ٨١
في الأفكار ٨٣
في الحياة العائلية ١٠٣
في التواضع ١٢٥
في خدمة الله والقريب ١٣٣
في الرهبنة ١٤٩
في التوبة ١٥٣
في الصلاة ١٥٩
في المحبة ١٨١
عن العالم الساقط ١٨٧
في الجهاد الروحي ٢٠٥
في الإيمان ٢٢٩
في السلام الداخلي ٢٣٧
عن الملكوت الروحي ٢٤٩
موعظة في رقاد والدة الإله ٢٥٥
التوبة هي تغيير الحياة ٢٦٩